شاكر الأنباري
في المشغل السردي
حوارات و كتابات
2023
دار نجمة للنشر الإلكتروني

شاكر الأنباري

في المشغل السردي

حوارات و كتابات

2023

دار نجمة للنشر الإلكتروني

كوبنهاغن

shakerhussein@yahoo.com

لوحة الغلاف: طالب حسين

حوارات

فاطمة المحسن

كاتبة عراقية

2007 جريدة الرياض السعودية

منذ أول مجموعة قصصية نشرها شاكر الأنباري، تعّرف القراء على كاتب شديد الولع بتصوير المكان الذي غادره، تستغرقه جغرافيا الجهات التي حملته الرياح بعيدا عنها. قريته التي تقع على الفرات وتمتد بامتداد الشريط الزراعي الذي يتمطى على رمال الرمادي، ويختفي ويظهر بين طيات سهوبها وتفرعات أنهارها وتجاذبات الخصب المفرط ويباب الصحراء. كانت حكايات القرية وحيواناتها وأنواع نباتاتها، وتحولات المواسم والمناخ والتربة، كل تلك التفصيلات التي يوليها شاكر الاهتمام، بمثابة أطلس خيالي يصقل الجمال الرعوي والريفي ويحوله إلى مادة تجمع الفانتازيا بالواقع. ظل الكاتب يدور حول موضوعه مختبرا قدراته في تخييل الذكريات، ولم يخرج من فخ الماضي إلا بعد أن هرب من حياته في الغرب مخلفا زوجة أجنبية وطفلين. كانت الشام تعيد له دفء شمس الشرق وحميميته، ولكنها تقسو عليه بالفقر والحاجة، فبدل البيوت الأوروبية الفارهة، تنقل شاكر بين غرف وفنادق رثة، ولكنه كان من بين أكثر المثابرين على إصدار الروايات والقصص. وعندما سقط تمثال صدام حسين، قرر العودة دون تردد. برز اسمه في الصحافة البغدادية، وكان مطافه جريدة المدى أحد أبرز محرريها. يقول الآن إنه تعب من العراق، وسيخرج دون عودة! لقد انطفأت أحلام العراق، ولم يعد لنا من مكان فيه، هذا ما يقول وهو يعد العدة إلى منفى جديد. هل هي تراجيديا الرحيل والعودة، وهل سيكتب من ذهب إلى العراق ورحل عنه، مثلما كتب عندما غادر أول مرة. هذا السؤال يشغل جزءا من الثقافة العراقية التي تداخل خارجها بداخلها، وأصبح الارتحال والعودة من بين واقع يومها ومادة أدبها ومحور تفكير كاتبيها. كان لنا مع الأنباري حوار أردناه عن العراق الحاضر والماضي في تبدل أحواله عبر المخيلة الروائية، وهو موضوع يحاذي الجدل حول أدب المنفى، ومكونات الذاكرة والوعي.

– أنت بدأت الرواية والقصة من منطلق الحنين إلى مكانك الاول، قريتك التي احتلت ذاكرة خيالك. كيف وجدتها بعد العودة، وهل هناك من فارق بين ذاكرة الغربة والذاكرة الواقعية؟

000 كانت هناك قريتان في تلك اللحظات التي عدت فيها إلى الوطن، احداهما في رأسي والأخرى على أرض الواقع، تلك التي كانت في رأسي ظلت شابة لم تشخ منذ أن غادرت العراق في العام 1982 وهي ذات ملامح واضحة، مكانها طازج ويمتلك تفاصيل أعرفها جيدا. أعرف الناس والأشجار والحشائش والأسماء وقصص العشق التي دارت منذ قرن وكانت النكات والحكايات والمقالب مدار تسلية للفلاحين في

ليالي القرى المظلمة. تلك كانت قرية من بساطة وتسامح وجهل وبحث عن حياة أفضل وتوق إلى ارتياد المجهول واحترام الثقافة والعلم والوجاهة، وهي على نحو ما، قرية نموذجية لقرى الفرات الغربية بكل ما هو معروف عنها من انتماءات عشائرية وأساطير. كانت القرية تلك واسمها الحامضية قرية لبكورة الحياة وهي تتفتح وتتخلص من العصور المظلمة. القرية التي عدت اليها وجدتها قرية أخرى، لا تشبه تلك الحامضية التي سامرتها وناجيتها خلال تجوالاتي الطويلة في بلدان العالم. لقد تغيرت الوجوه التي كنت أتذكرها طوال كل تلك السنين وشاخت بساتين النخيل وتهدمت البيوت المعاصرة لطفولتنا. وقفت أمام أشجار أخرى ونباتات جديدة وبشر آخرين. نعم يمتلكون الأسماء ذاتها، لكنهم يختلفون عن أولئك الذين أدمنتهم في خيالي بين سرو أوروبا وعلى صقيع ثلجها. يمكن القول إنني كنت أعاقر سرابا أو شبحا لمكان، وهذه لفتة روائية أفكر بها دائما، أي الفرق بين الموجود في الرأس وذاك المتحرك على سطح الحياة. الأمكنة على ما يبدو تشيخ هي الأخرى وتتبدل ويتغير هواؤها وتصبح ذكرياتها في النسيج ذكريات بشر آخرين. كل تلك التبدلات وتلك المفارقات لم تدخل حتى اللحظة مصهر الكتابة الابداعية، كوني كتبت قصصي ورواياتي عن تلك القرية والمدينة بل والعراق كله الذي كان في رأسي، أي كتبت عن وهم خالص.

– ما الذي تغير في وضعك عندما عدت إلى العراق، هل أدركت المكان كبنية ثقافية، أو نأى عنك وأنت عشت ما يقارب الربع قرن في بيئة أخرى؟.

000 خلال السنوات الثلاث التي قضيتها في العراق بعد عودتي ظلت لدي محاولات دؤوبة لإعادة الصلة بيني وبين العراق القديم الذي غادرته قبل حوالي خمس وعشرين سنة. كانت الفجوة كبيرة على ما يبدو، والتحولات التي عاشها العراق أثناء غيبتي من العمق بمكان بحيث أنها خلقت هوية أخرى للإنسان والمكان وما يتبع ذلك من سلوكيات وأمزجة ووجهات نظر. لم يعد العراق يشكل بنية ثقافية واحدة في الوقت الحاضر، فنتيجة للأوضاع القاسية التي مرت تحول العراق إلى جزر ثقافية، بل ويمكن القول إن المنظومات الثقافية لها اليوم علاقة بالمدينة والدين والطائفة والجغرافية، وهذا التحول رهيب ويستحق دراسات معمقة، ومن أسباب ذلك التحول التأثير الهائل للحروب المتعاقبة التي مزقت نسيج المجتمع التقليدي وثقافته، إضافة إلى غياب المؤسسات المعروفة وغياب الدولة وغياب المنظومة الموحدة، أي الآلة الأمنية والاعلامية والثقافية والاقتصادية، كل ذلك أفضى إلى تمزق في الهوية الثقافية. المواطن

البسيط اليوم في الرمادي غيره في الموصل وغيره في بغداد والبصرة والحلة والنجف، والفروقات بنيوية، وما يجري في الوقت الحاضر يعمق من تلك الفروقات. السنوات التي عشتها بعد عودتي كانت محاولة لمعرفة ما يجري، ولمراقبة الناس وتعابيرهم وألفاظهم وطريقة ردة فعلهم تجاه الحوادث اليومية. كما عشت البؤس ذاته الذي يعيشه المواطن البسيط من قطع كهرباء في جو حرارته خمسون درجة مئوية ومن تلوث هوائي ومائي ومن انعدام الأمل في الخروج ليلا إذا ما تعرض الطفل أو المرأة أو الشخص إلى حادث عارض يستدعي الذهاب إلى المستشفى. عشت رعب القتل على الهوية الطائفية والحزبية والسياسية، ورعب الإرهاب، وهو يتلذذ بقتل البشر، ولا يفرق بين مثقف وفلاح، طفل وشيخ، تقدمي أو سلفي. كل ذلك جعلني أنظر بزاوية واسعة إلى ما يجري في بلدي، زاوية تتفهم العنف والثأر والقتل والنفي والهجرات والقسوة في الشخصية العراقية ومعنى الاحتلال ومعنى علاقة الثقافة بالمجتمع وعلاقة السياسي بالثقافي، وكل تلك المصطلحات التي ينبغي لنا إعادة قراءتها لأن الواقع يتحدث بلغة مختلفة عما تربينا عليه وألفناه.

– كيف تنظر إلى تجربتك في المنفى؟ . أنت عشت في بيئة غربية، وتزوجت من امرأة غربية، ولكنك وعلى حين فجأة غادرت هذه البيئة، واستبدلت حياة العيش في بلد عربي، كنت شبه فقير في البيئة العربية، ولكنك فضلت البقاء، لحين ما أتيحت لك فرصة العودة إلى العراق. كيف لك أن تصف كل هذه التبدلات في حياتك. لنتحدث عن تبدل شكلك أولا، أنت الآن عراقي، كامرتي تسجل هذا ! كنت في البداية تشبه الناس في الغرب، وفي سوريا أقرب إلى العرب. هل لك أن تصف هذا ؟

000 ما عشته من تحولات سواء ككاتب أو كإنسان لا يختلف كثيرا عن تحولات شعب، هو الشعب العراقي، ربما يختلف الموضوع في قراءة تلك التجربة، والبحث لها عن معنى، واستخدامها في عمل ابداعي أو فني. تجربتي هي تجربة غالبية العراقيين، ومن هذا الجانب استخدمت الكثير من تجاربي في كتابة رواياتي وقصصي ومقالاتي، لقد عشت تبدلات المكان فهاجرت أكثر من مرة وعشت الهجر والحنين حين تعرفت على أصدقاء في أكثر من بلد ثم تركتهم وخلّف فراقهم الأسى. ربيت أطفالا في بيئة أوروبية وغادرتهم، وتركت زوجة وبيتا ومكتبة وبقي السفر الطويل هو ذاته، ويبدو أن جيلنا هذا، لن يرى حياة مستقرة بعد اليوم. علينا أن ندفع ثمنا كان ينبغي دفعه نتيجة لتخلفنا الحضاري، ندفعه مرة واحدة، وهذا

قدر شعب وحضارة وبلد. الأمكنة تترك بصماتها على السمات، وعلى الحديث والصوت، وعشت أنا كل تلك التبدلات والتغيرات، وهذا أمر طبيعي فالهواء له تأثير وكذلك الطعام واللغة والشمس والتضاريس والتواجد في بقعة معينة من الكرة الأرضية، ومعاشرة بشر بذاتهم، هذا كله يترك بصماته على الوجه وعلى العين والنظرة والحساسية تجاه الحياة. وأنا رغم كل هذه المسيرة المؤلمة، مسيرة التبدلات التي لم تنقطع منذ عشرات السنين، أعتبر نفسي محظوظا. جدّ محظوظ. لأنني رأيت برلين ولندن وكوبنهاغن ودمشق وبيروت وساوباولو وطهران وغيرها من المدن. واعتبرت نفسي محظوظا لأنني رأيت خرائب الفلوجة، وآثار السيارة المفخخة التي ضربت ساحة التحرير، والطائرة التي قصفت والجندي الذي قضى والصباحات النائية في قرية مهملة أو بلدة تغرق في الظلام. أعتبر نفسي محظوظا لأنني أعرف أكثر من لغة وتزوجت أكثر من امرأة من أكثر من بلد وحضارة، وأعتبر نفسي محظوظا لأنني رأيت انهيار ديكتاتورية والسقوط في فوضى وعبور ألفية قديمة إلى واحدة جديدة. سافرت وعشقت وتزوجت وطلقت، خلّفت أطفالا وهجرت أصدقاء وتعرفت على ناس جدد. قرأت كتبا وشربت في صالات وحانات وتذوقت آلاف الوجبات من مختلف أصقاع الأرض. هذا منفى حولني إلى إنسان حقيقي. حولني إلى خلية حساسة تشارك البشرية آلامها وأحلامها رغم الاختلافات في الأديان واللغات والبلدان. لم أعد أمتلك أي وهم حول أدوار المثقف، فلكل شخص دور في الحياة وعليه أن يعيشه بعمق وشرف وقوة وحماس. إنني أصبّح على الحياة كل يوم بابتسامة وضحكة وأحس وكأنني أعيش أول يوم في حياتي. اؤمن أن الحياة ليست معضلة ولا مشكلة إنما هي تجربة تستحق أن تعاش بنبل وكرامة وفضول وتفاؤل. لذلك لم أحقد على بلدي ولن أحقد إذا لم يوفر لي الحياة التي أريد، وسأغادره برحابة صدر، وسأختلق له الأعذار كي لا أكون له عدوا. لأنني لا أستطيع أن أنفصل عن قتلته وأصولييه ومتنوريه وشرفائه، لصوصه وخرابه ونخيله وأشجاره وحرارته الجهنمية، تخلفه وحدّته وقسوته. هو مادة خيالي وأفكاري وابداعاتي القادمة. هو المصهر الذي سأخرج منه رغيفا جديدا أسدّ فيه جوعي إلى وطن غائب.

- **تعيش في بغداد، ولو قيض لك العيش في الرمادي، أو في الحامضية قريتك الأولى، هل ستذهب هناك؟ أو تفضل العودة إلى الشام بعد ان تزوجت امرأة سورية وكتبت عن بيئة دمشق بعض رواياتك وقصصك ؟**

000 إنني عشت في بلدان كثيرة، والمرة الأولى التي شعرت فيها أنني لست غريبا هي حين عدت إلى العيش في الوطن، في كل بلدان العالم كان هناك سؤال موجه لي في يوم ما في ليلة ما في لحظة ما، ذلك السؤال هو من أنت ولم أنت هنا ولماذا تركت البلد؟ المكان الوحيد الذي لم أواجه فيه بسؤال أو أسئلة مثل تلك هي حين عدت إلى العراق، لقد كانت أمنياتي وأحلامي أن أمتلك بيتا صغيرا أسكن فيه مع ابني وزوجتي، أؤسس فيه مكتبة دائمة، وأفرشه وأؤثثه كما أرغب وأعيش فيه شيخوختي، وأسافر بين مدن العراق وأغوص في قراه ورماله وأهواره وأنهاره، إلاّ أن شيئا من ذلك لم يتحقق، هناك في قريتي هيمنة للتكفيريين، لذلك لا أستطيع البقاء هناك، أما المدن الأخرى ومنها بغداد فهي لم تعد توفر الحد الأدنى من مستلزمات العيش. أحيانا أظل نصف يوم دون كهرباء، وهذا يعني أنه ليس هناك قراءة كتب ولا كتابة على الكومبيوتر ولا مروحة تخفف سيلان العرق، هذا مع دوي انفجار هنا وصراخ اسعاف هناك، كل تلك الأجواء لم تعد تقدم لي بيئة مناسبة للكتابة او التأمل حتى. إنني أضع في حساباتي أن أعود إلى الشام، وبما أن حياتنا مصنوعة من مراحل فإنني أعتبر أن وجودي في العراق كان مرحلة انتهت، وعلي أن أبدأ من جديد. أبدأ بتأثيث بيت، وتأسيس مكتبة من جديد، وتكوين صداقات مرة أخرى. هذا قدر عراقي يجب أن نرضى به. لقد دخلنا حروبا ثلاثين سنة، وتحول نصف شعبنا إلى قتلة، ولا مشكلة عمن يكون المسبب، هذا واقع الحال، لهذا لا نتوقع أن تكون النتائج أفضل من التي نراها، على الأقل في المستقبل المنظور.

علي الراعي

صحافي سوري

2007 جريدة تشرين السورية

في كتاباته؛ يختصرُ العالمَ بطريقٍ ضيّق، ونجوم بعيدة لإنسانٍ يتسعُ بالمدن والنساء، حيث الرواية لدى شاكر الأنباري كونٌ يعجُّ بالضجيج والناس والأصوات والروائح وهواجس القلوب القلقة..في رصيده الكتابي خمسُ مجموعات قصصية، بدأ بها مشواره السردي حتى سنة 1988، ومنذ ذلك التاريخ انعطف الأنباري صوب نتاجٍ إبداعي آخر، فأصدر في الغربة ست روايات حتى سنة 2007، تاريخ عودته للعراق مُتابعاً إصداراته في الرواية، وقد أصدر منها ثلاث روايات بعد ذلك. مع شاكر الأنباري في تفاصيل هذا الحوار:

- **رواية دمشق سأبدأ من واسطة العقد في نتاجك الروائي، وأقصد رواية "الراقصة".. أسأل عن عراقي يكتب في تفاصيل دمشق بكل هذا القرب، ومتى، في زمن ما قبل مجيء قصيدة النثر بكثير؟**

000 رواية "الراقصة" تدور في ثلاثة مستويات، الأول: حاضر الرواية الذي يجمع كثيراً من الشخصيات المهتمة بالأدب وبالمتعة بالمكان الدمشقي والذاكرة الدمشقية. المستوى الثاني: مستوى خمسينيات أو ستينيات القرن الماضي عبر شارع كان معروفاً؛ هو شارع "شيكاغو" الذي شكّل علامة فارقة في الحياة الدمشقية، وكان بطل الرواية يعيش حنيناً إلى هذا المكان. وأمّا المستوى الثالث: هي دمشق من القرن الثامن عشر، كما تجلت في مذكرات بديري الحلاّق أيام الوالي أسعد باشا، حاولت أن أربط بين هذه المستويات الثلاثة عبر "رؤوف وحيد الدين" بطل الرواية الذي كان مسحوراً بالذاكرة والمكان الدمشقيين، يُحاول تثبيت الحاضر بوعي وبذاكرة مُثقف من نوعٍ خاص.

- **ما الذي شدّك لدمشق، لتُشكّل منها فضاءً روائياً لهذه الرواية– الراقصة؟**

00 0 العمق الزماني المكاني.. لذلك اعتبرتها رحلة في بعض تاريخ دمشق، وهي تحية لمدينة عشت فيها سنوات سبع قبل أن أعود للعراق، مدينة أحببت تفاصيلها، أحببت التاريخ الذي كنتُ أراه في كل باب، وفي كل واجهة من الواجهات.. بشكلٍ –لا شعوري– كنتُ أحاول عبر هذه الرواية أن أخلق هويّة شخصية "لي" ككاتب عربي يعيش في دمشق.

- **هنا.. أسأل عن قصيدة النثر التي يأتي ذكرها في هذه الرواية كإشارة مرور إلى منعطف جديد لناس قاع المدينة ولحياتها على مختلف الصعد؟**

00 الربط الذي أقمتّه بين قصيدة النثر كهمٍّ مُشترك للشخصيات التي هي مُتمردة على ما هو تقليدي، سواء في الحياة أم في الأفكار، وباعتبار أنّ قصيدة النثر هي أيضاً نوع من التمرّد على البُنية التقليدية للشعر العربي، لذلك اعتبرت أنّ التمرد السلوكي والثقافي أمران لا ينفصلان، ويُكمّل أحدهما الآخر، فأنت لا تستطيع أن تكون مُتمرداً ثقافياً من دون أن ينعكس ذلك على سلوكك، وطريقة تعامُلك.

- **في رواية "الراقصة" تُميت شخصيتها الرئيسية منذ بدء الرواية، وهي الشخص الذي يروي، ويتذكر.. ما أريد قوله وأسأل عنه: الرواية ذاكرة، وهي ذاكرة لشخص ميّت هنا، وأيضاً عن شارع أصبح اليوم ميتاً رغم هذا الموات ثمة حكاية حيّة؟**

00 أعتقد أنّ افتتاح الرواية بموت "البطل" ثمّ الدخول في تفاصيل الذاكرة لشخص ميّت والحديث عن أمكنة زالت من الوجود؛ كلُّ ذلك يُعطي انطباعاً بوجود عالم قديم في طريقه إلى الاندثار، أي إن دمشق القديمة التي كان بطل الرواية يتذكرها دائماً، ويحنُّ إليها قد تجاوزتّها تطورات الحياة، لكن في الوقت نفسه، فأنت تجد حتى الشخصيات المُحيطة بهذه الشخصية، بدأت تحن شيئاً فشيئاً إلى ذلك العالم القديم، أي إنّ "رؤوف وحيد الدين" قد نقل رسالة حضارية إلى جيل آخر.. هي رسالته الوجودية؛ تلك الأماكن التي كان مسكوناً بها والتي هي رغم زوالها ظلت في ذاكرة الأجيال الجديدة، وهذا ما أعتقده يُعطي حيوية للبنية الفنية للرواية. رؤوف وحيد الدين، يتذكر "ماغي" الراقصة بشارع شيكاغو، التي تُذكّرهُ بزنوبيا، أي مُقارنة بين مملكة الرقص ومملكة تدمر؟ الراقصة ماغي، كانت ملكة في شارع شيكاغو– المملكة الأنثى.. ومن يوجد هذه الصورة بين الراقصة والملكة؛ هو رؤية المُثقف باعتباره شخصياً يتحسس الجمال والتاريخ، بطل الرواية يُحاول أن يُسقط ملوكية زنوبيا في تدمر على ماغي الراقصة في شارع شيكاغو، ما يوجد وشائج كثيرة بين زمنين وبين مفهومين للجمال!!

- **ألقيت ضوءاً قوياً على "ليالي الكاكا" وهي روايتك الأخرى، التي هي ليالي العراق، فكشفت العيوب رغم الليل، كشفاً يكاد يوازي الألم في خرق التابوهات في الرواية "ليالي الكاكا"؟**

00 الغاية كانت قراءة التجربة العراقية، قراءة حاولت أن تكون مُغايرة من حيث ضرورة البحث والتنقيب في روح الفرد، وليس فقط قراءة الأحداث الخارجية والاكتفاء بها. إنّ ما جرى ويجري

في العراق له علاقة كبيرة بدواخل الفرد وبنائه اجتماعياً وأخلاقه وتقاليده ونظرته للحياة؛ لذلك أردت أن أقدّم بطل الرواية كإنسان أولاً، ومن ثُمّ تجربة التشرّد والهجرة والحنين.. وكل هذه الإشكالات التي تواجه الناس المُقتلعين من أمكنتهم بسبب هذا الظرف أو ذاك؛ لذلك لم أفصل سبب قيام الحروب ووجود هذا الثقل الكبير للتقاليد وانسحاق الفرد تحت وطأة داخلية يُمكن للقارئ من خلالها أن يتفهّم أسباب الكثير من المآسي التي حدثت وتحدث في المجتمع العراقي.

- **"ليالي الكاكا" كأنها تأتي سيرة ذاتية، فيما رواية "الراقصة" تأخذ شيئاً من السيرة، لكنها أيضاً تتكئ على سير الآخرين قديماً وحديثاً.. أرى – وهذه وجهة نظر– أنّ الثانية تفوقت على الأولى فنياً وغنى. هل جاء الأمر من تعدد السير في "الراقصة"؟**

00 لا أقرأ المسألة بهذا الشكل، إذ لكل رواية أجواؤها، ومسوغاتها الفنية.. في "ليالي الكاكا" استعرت كثيراً من السيرة الذاتية، لكن الرواية لم تكن سيرة ذاتية، هو شيء من الإغراء للقارئ لكي يتفاعل مع أحداث الرواية.. اعتبر الأمر "خدعة فنية". أرى أن ثمة حقلين مختلفين للاشتغال في الروايتين. "الراقصة" هي رواية مدينة، مدينة دمشق.

– ثمة شخصيتان رئيستان في رواية "ليالي الكاكا" عربي وكردي، في عالم يتحوّل إلى "غجر". هل تقرأ مُستقبلاً ما؟

000 الشخصية الرئيسية ركزت على ترحاله ومُطارداته في أكثر من مكان، والهاجس الذي يعيش داخله؛ هو هاجس الغجر باعتبار أنهم يحملون مفهومين مُتناقضين: الغجر كرمز للحرية والانطلاق والرقص.. ومفهوم آخر، وهو مفهوم التّشرد وعدم وجود مكان ثابت لهم، ومن يقرأ الدراما العراقية خلال ثلاثين سنة الأخيرة؛ يستطيع أن يرى هذا التشرد الدائم الذي يُمكن أن يكون في لحظة مُعينة، بحثاً عن الحرية.. من هنا تمّ الربط بين الغجر وأحداث الرواية، أمّا لجهة قراءة المُستقبل؛ فأجد أن الرواية هي وصف حال كان قائماً، وقد يستمر لفترة طويلة، وقد ينطبق على تجارب شعوب أخرى.

علي العائد

صحافي سوري

2009/03/24 السفير/ اللبنانية

الحوار المتمدن

يستند الروائي شاكر الأنباري في تكوين موضوع روايته إلى حدث واقعي حصد أحد عشر فرداً من عائلته بصاروخ، رداً على قصف المجاهدين لموقع للجيش الأميركي. يدخل بطل الرواية في جدل عمن يتحمل وزر هذه الجريمة، لتجري الأحداث بطريقة استرجاعية مرة، وليتعدد الرواة في الرواية مرة ثانية، ولتأخذ البلاد السعيدة نصيباً من اسمها، على الأقل من باب الأمل. عن رواية (بلاد سعيدة) كان هذا الحوار مع الروائي شاكر الأنباري:

– ليس من رأى كمن سمع. ما خلفية الحدث الذي تقدمه في روايتك (بلاد سعيدة)؟

000 رواية (بلاد سعيدة) تقتنص فترة تاريخية في حياة المجتمع العراقي، هي الأشهر التي أعقبت سقوط الدولة والنظام، ودخول أكثر من ربع مليون جندي من القوات المتعددة الجنسيات، ونهب المؤسسات، وتدفق المقاتلين من جميع القارات. في هذه الفترة، شهدت المدن والبلدات أحداثاً غير مألوفة في السابق، وعبر واحدة من البلدات هي (الحامضية)، حاولت الرواية تقديم شخصياتها وقصصها، والنوازع الجديدة التي عاشتها تلك الشخصيات. ويتلخص الحدث الروائي بتقديم رجلٍ جريح أصيب إثر قصف أميركي على عائلته، قضى نتيجته عدد من أفراد الأسرة. الرواية تبدأ في اللحظات التي شرع الرجل يستعيد فيها قليلاً من عافيته، فيراقب الإيقاع اليومي للبلدة بعيون محايدة، ويسترجع في بعض الأحيان تفاصيل ما حدث أثناء القصف وبعده، وتدور حول تلك الشخصية المحورية شخصيات أخرى تظهر وتختفي، لتقدم جزءاً من الحكاية. البلدة، بمعنى ما، بلورة مصغرة للمجتمع الأكبر، فما جرى متشابه بعض الشيء، مع تباين ضئيل في الصور.

– هنالك أكثر من راوٍ في الرواية، فما هو الجانب الذي أغفلته، بمعنى هل حضر الرقيب الداخلي في روايتك، أم أن ذلك التفاف فني لتقديم الحدث؟

000 الغرض من تعدد الشخصيات، إضافة إلى الشخصية المحورية (محمد)، هو تقديم صورة بانورامية شاملة لمختلف المواقف وردود الفعل على ما كان يجري يومياً. ومن خلال أولئك الأشخاص، ومنهم أفراد عاديون، يستطيع القارئ التقاط النسيج الاجتماعي الذي كان موجوداً، وتمزق بقسوة. هنالك من يؤسطر الإحتلال، ويتعامل مع الجنود الأميركيين بعقلية أسطورية، تحاول أن تستعيض عن الفهم

الموضوعي لما جرى بتلك الأساطير والخرافات التي رافقت ذلك الجيش، وهنالك شخصيات كانت تمثل الذاكرة الجمعية للبلدة، وكيف دمر الصراع دورها السابق ليقضي عليها جسدياً في النهاية، ضمن الثنائية الكبيرة التي حكمت الوضع، فمن ليس معي هو ضدي وينبغي إلغاؤه، وهذا ما جلب كوارث يومية لا تحصى.

– تسمي الميليشيات المسلحة بالمجاهدين، ولا تقصد الجانب الحميد للكلمة، لكنك لا تقول موقفاً صريحاً من ممارسات الاحتلال الأميركي. فهل هذه الحيرة خاصة بك، أم أنها الجو العام بين العراقيين؟

000 تلك كانت حيرة شاملة بين الناس العاديين، ومن عاش في تلك الفترة الزمنية التي تتحدث عنها الرواية يمكنه فهم ذلك، فالأوراق كانت مختلطة بشكل كبير، والشيء الوحيد الذي يجمع الأطراف المتصارعة، سواء أكانوا جيشاً أميركياً، أم مجاهدين، أم مقاومين، ومهما كانت التسميات، فهي القسوة، قسوة بين بعضهم البعض، وقسوة تجاه الناس البسطاء، تجلت بقصف من قبل الطائرات الأميركية لبيت مليء بالأطفال والنساء والشيوخ، بحجة أنهم إرهابيون، ودون وجود علاقة لهم بالقتال الدائر. كان هذا المفصل محور الرواية الأكبر. وفي الجانب الآخر، هنالك القسوة التي أبداها المسلحون، أو المجاهدون، أو سمهم ما شئت، تجاه كل من يخالفهم الرأي، أو السلوك. وفي الرواية قام المجاهدون بقتل الرجل المسن أحمد العبد، الذي كان ذاكرة القرية، وتاريخها الغائر في السنين. وهنالك المقبرة المائية لأبناء المنطقة تحت مياه الفرات. كل ذلك في حمأة هوس ديني أصولي متطرف، وشهوة دموية للقتل، كان منها جز الرؤوس على الشاشات، والاختطاف، والتشهير، والاتهامات بالخيانة بدون أي عقلانية، وهذا ربما ما قاد لاحقاً إلى فشل ذريع في تكوين حركة مقاومة حقيقية تستطيع إخراج المحتلين بكل السبل، ومن بينها التفاوض السياسي. ليس هناك رأي للكاتب في ما تقوله الشخصيات، أو تفعله، فالراوي، وهو يتكلم بضمير الأنا، يرصد ما يقوله الناس، وما يفعلونه، بحيادية، وعلى القارئ استنتاج ما كان يجري بين طبقات المجتمع في تلك البلدة.

– (بلاد سعيدة) تعبير أبيض عن حوادث سوداء. فهل هي سخرية، أم استشراف لما قد يصل إليه العراق بعد كل هذه المآسي؟

000 إنه نوع من البارادوكس الفني في العنوان، فثمة جماليات هائلة في مكان الأحداث، وثمة سحر حتى داخل الفجيعة ذاتها. وفي الوقت عينه، كانت الفترة التي دارت فيها الأحداث تشبه الكوميديا، فبين ليلة وضحاها ينهار كل شيء، تنهار الصداقات، والروابط الأسرية، والتقاليد الاجتماعية، وتنتقل البلدة بسكانها ومقابرها ونهرها وزراعتها ووظائفها إلى فضاء من التشكيك والقسوة والأساطير، فتتحول أبسط الأشياء إلى معجزات وغرائب. تخيل أن أهالي البلدة لم يعودوا يستطيعون دفن موتاهم إلا برفع الرايات البيض حين يذهبون إلى المقبرة، بسبب الخوف من الجيش الأميركي، وكان هناك بعض العجائز ممن امتنعوا من شرب المياه من نهر الفرات، لأن الجيش الأميركي، وكما شاعت الأسطورة، كان يلقي قتلاه يومياً في النهر كي لا يعدوا من الخسائر، خاصة أن بعضهم مرتزقة، من الطامحين إلى الحصول على الجنسية فقط. أما المجاهدون، فكانوا يشيعون أسطورة أن من يقتل في الحرب ضد الأميركان يصبح جسده باعثاً لرائحة العنبر، في ترغيب واع في الموت والعمليات الانتحارية. وفي وسط هذه المتناقضات والأساطير والعنف، لم يعد أمام بطل الرواية سوى النظر والترقب، فقط، فهو يحس أن الجميع على صواب، وهم على خطأ في الوقت ذاته، ولا يعود يعرف أين يمضي، هو المعطوب الروح والمشلول معنوياً، والمصادر العقل والإرادة. وهذا من أصعب الأشياء على الفرد، أي حين يجد نفسه لا يعرف ماذا يفعل، أو في أسوأ الأحوال لا يعود هناك أي شيء يمكن له فعله.

– تضع في الرواية مخزون ذاكرتك الأولى عن العراق قبل الاغتراب القسري، لكن العودة إلى العراق في جو الاحتلال تشبه الغربة القسرية، فهل توافقني؟

000 هذه إشكالية واحد من أشخاص الرواية، وهو أخو البطل (سعيد)، وكان مغترباً لسنوات، ثم عاد بعد سقوط النظام ومجيء الاحتلال. وصوته في الرواية يظل متأرجحاً بين نارين، نار الاغتراب السابق، والذاكرة الرومانسية التي رافقته عشرين سنة، ونار الواقع الدامي، واللامنطقي، والخراب الشامل لما كان يعتقده باقياً. لكنه يكتشف أنه لم يكن سوى وهم في الذاكرة. هذه الشخصية هي مأزق الناس جميعاً، فهم كانوا يحلمون بحياة أخرى، خالية من الحروب والموت والدمار النفسي والمعيشي، وبتغيير من نمط آخر، ينقلهم مثل بقية الشعوب صوب الحضارة، فتكشف لاحقاً أنه تغيير كابوسي ومرعب، مما شكل حيرة من نوع خاص، تحصل عادة في المنعطفات المفاجئة، مثل التي جرت في العراق. كانت مأساة

شخصية المغترب الذي عاد إلى وطنه هي اكتشافه بوضوح أنه لم يعد يستطيع الانتماء إلى أي مكان، سواء بفعل الزمن، أو بفعل التغيرات الجوانية التي طرأت عليه، ليكتشف في النهاية أنه لم يعد يمتلك وطناً. لذلك يقرر في نهاية الرواية العودة مرة أخرى إلى مفازة الاغتراب، دون أن يعرف ما الهدف من وراء ذلك، وإلى أين يروم الوصول، وكيف ستكون النهاية.

– في الرواية، رغم تقدم الزمن، واختلاف هيئات الأشخاص كما هم في ذاكرة قبل الرحيل، فإن الزمن الحضاري لم يتقدم كثيراً، والمكان بقي كما هو. فهل فات العراق أن يواكب الزمن، وإلامَ تردّ ذلك؟

000 الأحداث تدور على نفسها، والبلدة كانت مثل قدر يغلي، لكنه مغلق، ولا أحد يعرف متى ينفجر، ولا الطبخة التي ستنتج من هذه الفوضى. تلك هي هواجس الوهلة الأولى، لكن المراقب الدقيق للأحداث يمكنه التقاط متغيرات صغيرة تجري، هي بطيئة، لكنها موجودة، فثمة خلل حصل، وهذا يعرفه الجميع، وثمة خطأ موجود، لكن لم يدركوا مكانه، ورغم غياب أي أفق في أحداث الرواية، إلا أن البطل يستعيد عافيته قليلاً قليلاً، ويبدأ بإدراك أن الحياة ستستمر، واستمرار الحياة يفترض العودة إلى طقوس سابقة، كالأكل والشرب والمضاجعة والتفكير والعقلانية والمراجعة العميقة مع الذات. وكان (محمد) يقوم بكل ذلك رغم أنه نجا من انفجار صاروخ تحت قدميه، وفقد أحد عشر فرداً من عائلته، وهذا هو منطق الحياة التي تتقدم إلى الأمام رغم الكوارث والمطبات. تنتهي الرواية بصعود ابنه إلى حيث كان يقف على السطح، وطلب منه النزول كي يأكل السمك مع العائلة، فكانت هذه الحوارية الصغيرة بين الأب الجريح وطفله، في المساء الساحر فوق نخيل البلدة، تشبه لوحة مشرقة خارج السياق، غير أنها موجودة على أية حال، والإنسان محكوم بالأمل في النهاية.

– لا تتقاطع رواياتك في موضوعاتها. فهل هي نوع من التجريبية التي يبحث عنها الأنباري؟ حتى المكان لا يحضر بنوع من التشابه سوى في (الكلمات الساحرات) و(بلاد سعيدة) مع اختلاف الزمن.

000 أول رواية لي هي (الكلمات الساحرات)، دارت أحداثها في البلدة ذاتها (الحامضية) قبل ثلاثين سنة، وآخر رواية لي هي (بلاد سعيدة)، وجرت أحداثها في البلدة نفسها بعد العام 2003، وما بين الزمنين تحولات هائلة، وهي تحولات واقعية للمكان الفيزيقي، والأشخاص السابحين في ذلك المكان. عادة

ما أستوحي أحداثي ضمن سياق زمني يبدأ في نهاية الستينيات ليظل مفتوحاً على الحاضر. وغالباً ما تحمل كتاباتي هوية أحداث العراق بامتياز. وتحولات أربعة عقود في مسيرة شعب هي منجم كاف للخيال. لكنها، أيضاً، تحولات كبيرة للكاتب وأدواته الروائية، ولغته ورؤيته الفنية، في تناول الشخصيات والأحداث. لكن الأكيد أن استدارة الزمن هذه لم يفتعلها الكاتب، إنما جاءت بشكل طبيعي، فقد فرض التاريخ نفسه، وكانت الرغبة ملحة في العودة إلى المكان عينه. ومن يقرأ الروايتين فسيجد بالتأكيد القفزة التطورية الهائلة في الوعي والتفاصيل والهواجس والمعتقدات والأساسيات في الوجود، عدا عن الزمن المتسارع بين النقطتين، زمن الماضي في (الكلمات الساحرات)، والزمن الحاضر في (بلاد سعيدة). أما التجريبية، فهي بعيدة عن اهتمامي في الكتابة، فأنا لا أكتب الرواية لغوياً، أو ذهنياً، بل تفرض وقائع معينة نفسها على وعيي وتفكيري، فأبدأ بنسجها فنياً كرواية. تشبعت بمدينة دمشق مكاناً وحباً، فكتبت (الراقصة)، وأرهقني الانتقال بين أوروبا والشرق، فكتبت (موطن الأسرار)، ومررت بتجربة روحية عميقة هي كيفية الوصول إلى الوعي الذاتي للجسد والروح، فكانت رواية (كتاب ياسمين)، وهكذا بالنسبة لروايتيّ (ليالي الكاكا) و(ألواح).

كاظم غيلان

شاعر وصحافي عراقي

موقع النور 2010

يعتقد البعض من الأدباء والكتاب وفي نظرة لا تخلو من الاجحاف بأن الثقافة الشعبية بمجمل مفرداتها ومكوناتها تنأى بعيداً عن الثقافة كمفهوم وجوهر، ومهما كانت هذه القناعات إلا أن الذي يتوفر على قدر عال من الفهم الموضوعي للثقافة يجد في الثقافة الشعبية أداة فاعلة ومؤثرة لها أهميتها التي تغذي مفاصل مجمل النتاج الثقافي ولربما سنجد في قناعات وآراء الروائي والاعلامي البارز شاكر الانباري ما يبرهن على ذلك عبر هذا الحوار:

- **يكتسب المبدع في أي من مجالات الابداع خزينه المعرفي الأول من البيئة، فما الذي اكتسبه شاكر الأنباري من بيئته؟**

000 شكلت لي بيئتي الريفية خزينا هائلا من الحكايات والقصص والأمثال والطقوس، أي كل ذلك البناء الروحي لقرية من القرى ظلت محتفظة بطابعها القروسطي رغم دخول الحضارة الحديثة. في الستينيات، وما بعد، كان رجال القرية يتجمعون في واحد من البيوت ليتسامروا ليلا، على فانوس معتم يكاد لا يضيء سوى الوجوه. أثناء تلك الاجتماعات، والمسامرات، تنثال الأساطير وحكايات الجان والخرافات، في ذات الوقت الذي يتم الحديث عن الزراعة، وفصولها، والمحصول من جت وبرسيم وقمح ودخن ولوبياء وتمور تقطف كل صيف من بساتين القرية الكثيرة. وكان النهر محورا مفصليا في حياة أبناء الريف، نهر الفرات الذي يتلون بألوان مختلفة حسب الفصول. مرة يجري بطيئا صافيا أزرق اللون، ومرة عاصفا يجري مثل ثيران هائجة بلون أصفر هو لون الغرين والطحالب وغبار الأراضي البعيدة. وللنهر فضاؤه هو الآخر كالبلم، والعابرون فيه من ضفة إلى أخرى والمفارقات التي تجري أثناء عبور الفرات سواء في الصيف أو الشتاء، وشخصية صاحب البلم التي عادة ما تكون حديث الفلاحين في الليالي المقمرة. هذا عدا عن بيئة المدرسة الجديدة على الفلاحين والمعلمين فيها ومعيشة البدو القادمين كل صيف إلى الضفاف والعلاقة اليومية الضئيلة التي تجري بين المدينة والريف عبر باص من الخشب. من كل تلك الحياة الهاربة نمت لدي فضيلة القص، ورواية الحكايات، وفضول المعرفة، إذ طوال هذه السنوات من حياتي ما زلت أرغب في معرفة الكنز الذي خبأه العفريت في بئر عتيق مهجور في صحراء نائية.

- **الشعبية كأداة نجدها مصدرا للأغنية ، المسرح، السينما، فهل يمكن أن تكون مصدرا للرواية؟**

000 الرواية يمكن أن تعتبر مصدراً لكل شيء في الحياة البشرية، حتى العلوم الفضائية والاكتشافات الجديدة وغرائب الجسم البشري المكتشفة حديثا. وهي بإمكانها أن تمتص حقول المعرفة الأخرى بدون أي اشكال. لذلك هناك روايات ذات فضاءات فلسفية، وأخرى شعرية وثالثة تشكيلية أو تاريخية أو مسرحية أو موسيقية، مثل رواية الكريات الزجاجية لهرمن هيسة التي تبنت الفضاء الفلسفي، وكذلك رواية الزمن الضائع لمارسيل بروست التي تبنت الفضاء الشعري الطفولي، ورواية شيفرة دافنشي ذات البعد البوليسي، وغيرها. لا يمكن لرواية أن تقوم على البلاغة، أو اللغة الخالصة، أو البيان الشعري فقط. لا بد لها من شخصيات لها أمثالها وأغانيها وطقوسها الشعبية في الدين والزواج والفرح والموت والحزن، وضمن مكان محدد مليء بالتاريخ والخرافة والأساطير. فلا يمكن فصل الثقافة الشعبية عن الانسان. سواء كان مثقفا أو من عامة الناس. هي روحه وضميره ودليله في رؤيته نحو وجوده ذاته. حتى في أكثر المجتمعات تطورا صناعيا تبقى الذاكرة الشعبية والأساطير والحكايات اليومية تلعب دورا فاعلا في مسيرة الفرد، حتى الفرد الذي أصبح شخصية في إحدى الروايات الناجحة.

- **في أي من أعمالك الروائية اقتفيت الاثر الشعبي؟**

000 هناك أكثر من رواية لي دخل فيها الروح الشعبي إلى الحدث، ومنها أول رواية لي ألا وهي الكلمات الساحرات التي طبعتها في دمشق عام 1994، وتتمحور الأحداث عن قراءة الطالع الذي تقوم به غجرية لأحد وجهاء القرية. كان اسمه الشيخ ضاري. حيث تتنبأ له، بين الجد والهزل، يين الخرافة والنبوءة، بقتل في السوق، الأمر الذي يتحقق لاحقا بعد سنة تقريبا. والغجر وقراءة الكف والحصى هي من العادات الشعبية التي تنتشر في العراق، وهي وإن بدأت تتناقص في مفاعيلها على الانسان إلا أنها ظلت في زاوية من زوايا ذاكرته، وهو ما نطلق عليه اسم القدرية. القدرية كانت محور تلك الرواية رغم أنني ربطتها بحراك المجتمع ذاك في بداية السبعينيات من القرن العشرين، أي بصعود حزب البعث، أو التحزب بشكل عام، وكيف بدأ المجتمع ينتقل إلى مفاهيم مغايرة للتي عرفها. وفدت العسكرة والتقارير الحزبية والوشايات وتسلط الحزبيين في الحياة العامة، وصارت قليلا قليلا تلوث ذلك العالم الساحر، المتناغم، الهادئ، حتى في تخلفه عن ركب الحضارة. ومن الروايات الأخرى التي كان للثقافة الشعبية دور في بنائها الفني هي روايتي الأخرى بلاد سعيدة، حيث أن التغيرات العاصفة التي حدثت بعد العام 2003

تمثلت بانهدام عالم قديم، وما رافقه من أشخاص مؤثرين في بيئتهم، وحكايات وأساطير ومفاهيم، وولادة عالم جديد لم تتميز معالمه بعد، رغم أن وجهه الظاهر للعيان هو العنف، والقسوة، والدم، والاختلال الاجتماعي المفاهيمي. إذ أن هذا المظهر، المؤقت، ما هو إلا عتبة لعالم جديد سيعيشه البلد مستقبلا.

- **ما هي برأيكم ابرز الأعمال الروائية التي شكلت الشعبية فضاءاتها؟**

000 لا يمكن إلا تذكر رواية عبد الرحمن منيف مدن الملح. فهي على صعيد الرواية العربية بنيت على الثقافة الشعبية بناء محكما، وتمثلت تلك الثقافة بالأمثال الشعبية التي كانت بعض الشخصيات تفسر كل جديد في الحياة على ضوئها، ما أبرز هذا الغنى الذي تمتلكه الذاكرة البدوية والصحراوية عموما. وكذلك الأغاني والقصائد الشعبية في الانتصارات والهزائم، في الأعراس وفي نقد الظاهرة الاجتماعية وفي نقد الحاكم أو شيخ القبيلة، ثم غير ذلك تأتي الأساطير الدينية والكرامات وتحولات الانسان بعد الموت، إذا كان صالحا أو سيئا. وكلها تجلت في شخصيات رواية مدن الملح في أغلب أجزائها، وهي قد صنعت بالنهاية الثقافة المكتوبة سواء تحليلات سياسية أو روايات أو قصائد نثر أو صحافة في عهدنا الحالي. وأعتقد أن الرواية هي محصلة ذكية، ذات بعد فني رفيع، لتغلغل الثقافة الشعبية في حياتنا المعاصرة.

حسين رشيد

قاص وصحافي عراقي

مجلة الأسبوعية 2010

كحال العديد من الأدباء، والمثقفين العراقيين، الذين فضلوا المنفى، والغربة على الوطن أيام الاحتراق والاحتراب والسجون والمعتقلات. تجول بين المنفي، حاملا هموم بلده وأبنائه، حيث رسمها، كلمات سردية مؤطرة، قصة تارة، وأخرى رواية، وثالثة مقالة، وهكذا. حتى حانت ساعة التغيير، ليكون من الأوائل، بالعودة والارتماء بأحضان الوطن، حيث شرع ببناء مشروعه الثقافي، إنه القاص والروائي شاكر الأنباري.

– تمر الثقافة العراقية بمحن متكررة ، محنة التهميش في العهد الماضي ، لتتعمق مع العهد الجديد، ما هو تصورك عن مشروعات النهوض بالواقع الثقافي؟

000 أنا لا أفصل تردي الثقافة العراقية عن تردي الواقع العراقي على كافة المستويات، والملاحظ أن هناك أمراضا بدأت تتغلغل في الجسد الثقافي كانعكاس لواقع مريض، مثل الشللية، والطائفية، والمناطقية، وفقدان التماسك الفكري، وتشوش مفهوم المواطنة والانتماء. وإذا اعتبرنا الثقافة هي مجموع الروافد القادمة من حقول متنوعة، كالسينما والمسرح والرواية والنقد والتشكيل والرقص والموسيقى، فنحن نلمس تهميش كل هذه الروافد خاصة في الداخل. تهميشها من قبل الحكومة ومؤسساتها أولا ، ومن قبل الفكر الديني الطاغي على الشارع، الأمر الذي حول الثقافة إلى مشاريع فردية وليس حركة اجتماعية يقوم بها مجتمع برمته. الثقافة في ظل النظام السابق لم تهمش بالمعنى الحرفي، بل وظفت لكي تغطي، أو تبرر، السياسات الرعناء المتبعة طوال عقود عدة، كالحروب والقمع ومصادرة الحريات وفرض الرأي الواحد والفكر المجوف. أما اليوم فالثقافة ليست موظفة إنما مهمشة ومحتقرة، وتظافرت العقلية الدينية والسلطوية في حذف الثقافة باعتبارها حاجة انسانية ضمن سيرورة المجتمع. لهذا فالحياة اليومية في العراق عرجاء، وفظة، وجافة، لا ترطبها رياح الفن والثقافة.

– طيب، والمؤسسات الثقافية المتمثلة بوزارة الثقافة واتحاد الأدباء والمنتديات والملتقيات والجمعيات الثقافية وطريقة عملها كيف ترى ذلك؟

000 مع وجود نشاطات لتلك المؤسسات إلا أنها لا ترتقي إلى مستوى الثقل التاريخي للثقافة العراقية ودورها المحوري في حياة الفرد. وتلك النشاطات عادة ما تكون نخبوية، يقيمها ويحضرها أصحاب المهنة وحدهم، وهي لا تتفاعل بشكل عضوي مع البيئة الواقعية، فالهم الانساني للفرد في واد وتلك

النشاطات في واد آخر، وهذا ما أعتبره خللا في مسيرة الثقافة. أين المسارح التي تفتح أبوابها بشكل يومي لجمهور المسرح، وأين حفلات الرقص والغناء، وأين المعارض التشكيلية التي تجمع فناني الوطن كلهم، وأين المهرجانات التي تعتني بالرواية والشعر والنقد والموسيقى؟ أين السينما؟ أين الكتاب ودور النشر؟ ذلك وغيره مفقود في حياتنا اليومية، كوننا بلدا غير مستقر، ملايين من أبنائه مهاجرون، ومدنه تدير الواحدة ظهرها للأخرى، وروح المواطنة صارت مشوهة، بعد أن ارتد الفرد إلى متكأ طائفي أو قومي. نحن نعيش في جزر منعزلة، وعمرها الجزر المنعزلة لا تنتج ثقافة مؤثرة، سواء في محيطها الوطني أو الاقليمي.

– الغربة داخل الوطن الغربة خارج الوطن، مفردات لا أعتقد أنها جديدة على المثقفين العراقيين ما مدى استيعابك لهذا المفردات في أعمالك؟

000 السؤال هو لماذا يعيش الانسان اغترابه الذاتي سواء وهو يعيش داخل الوطن أو خارجه؟ حين لا تلبى حاجات الفرد الطبيعية يعيش الانسان اغترابا عن محيطه، وحين يهمش الانسان من قبل قوى سياسية متنفذة، ومؤسسات مليئة بالفساد واللصوص، ويقف ذلك الانسان عاجزا أمامها لا بد أن يمتلئ بمشاعر العجز واليأس والاغتراب، وهذا حال الفرد العادي والمثقف على حد سواء. حين تفقد دورك في الحياة اليومية لا يمكن لك أن تعيش متوازنا، وهذا الأمر ينطبق على غربة الداخل وغربة الخارج، فالجميع يعيشون التهميش والاغتراب والانقطاع عن حركة الحياة. وهذا قدر العراقيين كلهم، فالذين يعيشون في الخارج، وبلغ عددهم ملايين ينامون ويفيقون على قناعة أنهم فقدوا أدوارهم في الحياة، ومرارة العيش في بلد آخر لا يحسها سوى من كابدها سنوات. القضية تتعلق بالوجود ذاته، فحين تنشئ أطفالك خارج العراق ينبغي أن تتقبل أنك ستفقدهم فهم نتاج ثقافة أخرى وبيئة مختلفة، وهذا ما ستتذكره يوميا، وبعد سنوات تشعر بأنك الوحيد الذي قلبه متعلق بالعراق. على صعيد الشخص العامل في مجال الثقافة والفن لا يبقى أمامه سوى مشاريعه الشخصية التي تعيد له بعض توازنه، لكنها لا تغنيه مطلقا عن الغربة المتجذرة في روحه. هي شيء من التعويض الروحي، وسيظل متعلقا بتلك المشاريع حتى لو لم تكن ذات جدوى ابداعية. وهذه هي الحالة المأساوية اليوم.

– الزمن، الفضاء، المكان، مفردات يتداولها النقد الحديث كثيرا ماذا تعني لك ضمن الانتاج الأدبي؟

000 في معظم نتاجي الروائي والقصصي يلعب المكان دورا مهما في تقديم الشخوص، وسرد الأحداث، وسبر غور الشخصيات. إذ أن العراقيين كحالة متناولة هم من تدور حولهم معظم نتاجاتي. هناك تشبع بالزمن العراقي والمكان أيضا، وذلك عبر السباحة في فضاء عقود من التجربة العراقية الماضية. الحروب، الهجرات، الاغتراب، الحنين، التحولات العميقة في الروح العراقية، تحولات المكان ذاته، وهي أمور لم أخترها بل فرضت نفسها عليّ كانسان أولا ثم ككاتب. أنا عاصرت الحدث العراقي المهم منذ الثمانينيات، وذلك هو الحرب، ثم الخروج من الوطن بسبب تلك الحرب، وهي تشتمل على أحداث عاشها معظم العراقيين وما زالوا يعيشونها حتى اللحظة. تلك الثيمات فرضت نفسها على مجمل السرد العراقي، في الرواية والقصة، وحتى الفنون الأخرى. إذ لا يمكن أن تتناول أي حدث دون اشتراك فضاءات الحرب، والنفي، والسجن، والغربة، والمنفى، والصراعات السياسية، وأخيرا الاحتلال، وانهيار المجتمع، وبروز العنف الطائفي، والارهاب. حتى إن أردت سرد مشهد حب، أو علاقة انسانية ما ، لا بد لك أن تأخذ ذلك الفضاء بالحسبان. وهذا ما يجعل السرد العراقي عموما يميل نحو توثيق الحدث أحيانا، فأنت لا تستطيع الهروب من فخاخ التاريخ.

– في رواية البلاد السعيدة اشتغلت على الأمكنة وعودة الذاكرة والحنين وظروف العراق بعد التغيير إذ يتداخل الوطن والمنفى، هل يمكن أن تكون رواية حدث وواقع؟

000 رواية بلاد سعيدة هي توليفة حكائية يشترك فيها الحدث الواقعي مع المتخيل، فيمكن أن تقرأ على أنها أحداث تدور في بلدة عراقية متخيلة تعيش بعد ألفين وثلاثة، أي سقوط النظام والاحتلال، وانحلال الدولة، وضياع البوصلة لدى الفرد، والناس أيضا. ويمكن أن تقرأ بقدر كبير من الواقعية، كون ما يجري هو واقع لا يقتصر على تلك البلدة التي تدور فيها أحداث الرواية، إنما عاشته معظم المدن العراقية. حين تغيب الدولة، كحافظة للأمن، وكقوة تفرض القانون، يتشبث البشر بتاريخهم وأماكنهم، وكأن ذلك التاريخ هو المنقذ من الضياع والفوضى، وهذا ما حاول شخوص الرواية التشبث به. لكن ذلك وهم أيضا، فتاريخ البلدة ذاته معرض للانقراض، لأن المجتمع أمام قوى إرهابية غاشمة غريبة عن ذلك التاريخ، وجيش احتلال هو أيضا لا يدرك أهمية المكان والتقاليد والحكايات القديمة لأبناء البلدة تلك. وهم يقفون عراة أمام قوة مجردة غير مفهومة. فما معنى أن ترفع رايات بيض حين تذهب لدفن واحد من أمواتك في

المقبرة؟ وما معنى أن يتحول الفرات من كائن يبعث الحياة، ويكتنز حكايات الطفولة وتاريخ البلدة منذ مئات السنين إلى مقبرة مائية؟ في رواية بلاد سعيدة هناك سوريالية تنبثق من عنف الحدث، هذه السوريالية سرعان ما تولّد أساطير جديدة لم تكن مألوفة سابقا، تشترك في صياغتها الذهنية الشعبية غير المعتادة على المتغيرات، وقوى الارهاب، والجيوش الأجنبية التي فاجأت الجميع، مع غياب تام للفعل الوطني المتمثل بالدولة ومؤسساتها.

– طيب، في روايتك الأخيرة نجمة البتاويين أخذت عنوان مكان مهم في بغداد، لكن أحداث وسير الرواية غيبت المكان واشتغلت على الشخوص أكثر، هل هي مصادفة أم متعمدة أم أن الظروف شاءت ذلك؟

000 المكان في الرواية لا يقتصر على محلة البتاويين، رغم أن الرواية أخذت عنوانها من المكان، بل هو بغداد، هذه المدينة النائمة على طبقات من الأزمان والتواريخ والأمكنة. شخصيات الرواية حين تتجول في شارع الرشيد تستعيد عشرات السنين من الأحداث التي مرت على الشارع، وكذلك منطقة البتاويين، والفضل، وشارع السعدون، وأبو نؤاس، وغير ذلك من الأمكنة. الرواية قدمت شخصيات تعيش ضمن بيئتها، وضمن الجو الزمني الذي نشأ بعد ألفين وثلاثة. التركيز على الشخصيات هو محاولة لسبر روح الفرد العراقي، ومعرفة التشوهات والفظائع التي تسللت إليه من تقلبات الواقع. انهيار القيم، السوداوية، العبثية، كلها صفات لتلك الحياة. الخوف من الليل هو العنوان، بعد أن أصبح فضاء للقتل والخطف وحياكة المخططات الرامية لتحويل المدينة إلى محيط طارد لأبنائها. أغلب الشخصيات كانت تفكر بالسفر إلى الخارج خلاصا من عنف تلك الحقبة، وهي وإن كانت تمارس حياتها اليومية في شقة النجمة الواقعة في حي البتاويين، إلا أنها أصبحت تشبه بلورات يرى من خلالها القارئ أعماق المجتمع. تنتهي الأحداث الواقعية بخطف واحد من شلة النجمة، وهو في نهاية الرواية يقص معاناته الكارثية على بطل الرواية، وكيف تخلص من الموت المحتم بعد أن دفع الفدية. وهي قصة من القصص التي تجري كل يوم، لذلك تقترح شخصية أخرى أن يجري استحداث دائرة وطنية لرواية القصص التي جرت في مدن الوطن، حيث تؤرشف لاحقا لتصبح كتابا مفتوحا يشبه كتاب ألف ليلة وليلة. لكل ذلك لم تغيب الرواية المكان، انما نسجت شكله عبر حكاياته، ومخاوفه، وظلاله، ومعاناة شخوصه السائرين نحو الهاوية.

– بكونك مررت بالتجربتين كيف ترى واقع الرواية العراقية التي تكتب في المنفى عن التي تكتب في الداخل وكيف تقيم التجربتين؟

000 هناك زخم كبير في انتاج الروايات، سواء في داخل العراق أو خارجه، وهذا يعود إلى قدرة الرواية على صياغة يوتوبيا بديلة عن الحياة الواقعية. يوتوبيا يمكن فيها قول ما لا يقال، ورسم ما لا يرسم، واقتراح حلول وصياغات لعالم بديل. هذه المسيرة يشترك فيها من يعيش في الداخل أو الخارج، فالأجواء بعض الأحيان تتشابه لدى الكتاب، والجميع تقريبا يشترك بأساسيات سردية تنتمي إلى المراحل التي عاشها العراق في العقود الأخيرة. الاختلاف ينتج في براعة الفن الروائي، وهذا يعتمد على قدرة الشخص ذاته، أي الكاتب، ولا يعني مكان الكتابة الشيء الكثير. ربما تتوفر للكاتب الذي يعيش خارج العراق امكانية أكبر للنشر، والاطلاع على ثقافات ولغات وأمكنة، وحرية أكبر لتناول الحدث وتحليل الشخصيات. لكن رغم هذا تظل القضية محصورة بالبراعة الشخصية، سعة الأفق، الثقافة، الخبرة، التجربة الحياتية، انتقاء المادة الأولية للرواية. لكن بالمحصلة ثمة زخم روائي كبير، لكنه غير معتنى به من قبل المؤسسات الوطنية، هو مشتت بين البلدان. الكتاب مشتتون، الكتب المطبوعة تنهال من مختلف البلدان، إلا أن ثمة غيابا في لملمة تلك الروافد الروائية، عبر مهرجان روائي مثلا، عبر تبني مطبوعات الكتّاب، عبر ربطهم بالوطن والتقريب فيما بينهم، عبر احتفاء سفارات البلد بالكتّاب في المنافي، عبر الجوائز، والترويج للنتاج العراقي في المعارض والمهرجانات العربية. الرواية العراقية تكتب اليوم التاريخ الحقيقي لما جرى في حقبة الخمسين سنة الأخيرة، وهي عادة ما تكذّب مذكرات الساسة، وأطروحاتهم، وتحليلاتهم للأحداث، كونها أكثر صدقا بملايين السنين الضوئية.

يوسف محسن

كاتب وصحافي عراقي

2018 جريدة الصباح/ ملحق بين نهرين

– برأيكم ما هي وظيفة الروائي، هل هي سرد التاريخ وخلق تاريخ مضاد للتاريخ المؤسساتي أو السياسي، أم تفكيك التاريخ وتصفية الحساب مع تجربة ذاتية أو تجربة مجتمعية خاضتها مجموعة من البشر ؟

000 الكتابة الجادة، بتصانيفها أجمع، هي رؤية متبلورة، واعية، تجاه الحياة وتفاصيلها، سواء ما كان منها الجوهري أم الثانوي، رؤية تحاكم، وتنتقد، وترى مجريات الأحداث بغض النظر عما هو طارئ أو متغير. ونحن هنا نشير إلى المتغيرات السياسية خاصة، وإلى التاريخ المكتوب، الرسمي، الذي تلعب في صياغاته عوامل كثيرة أبرزها المنافع الآنية لدى الأفراد، والجماعات، والطبقات، والمبدع يقف وحيدا في بلورة رؤية نقدية أو استشرافية حول ما يجري في بيئته أو مجتمعه. رؤية متواشجة مع الحلم والخيال والرسالة الانسانية، ضمن حقبة زمنية قدّر له أن يكون شاهدا عليها، لذلك لا يستغرب أن تجيء قراءته، أو قراءاته، لتفاصيل تلك الحياة مغايرة للرواية الرسمية، هذا ما يفترض أن نحسه في العمل الإبداعي الأصيل والصادق من شعر، ورواية، ومسرح، وفن تشكيلي وسينما، بل وحتى في الكتابات النقدية، وإلا لا يعدو العمل الإبداعي أن يكون تكرارا مملا، وببغاويا، وممسوخا، لواجهة الأحداث ووصفها النفعي والرسمي المفبرك. وضمن ذلك الفضاء، نعرف أن التجربة الشخصية لا تنفصل عن التجربة العامة لأي كاتب، فكلاهما مادة جديرة بالاشتغال عليها، فالتجربة الشخصية في العمق هي تكثيف لتجربة عامة، تنتمي إلى لغة ومجتمع وبلد ما بعينه، وإلى مداراته المعرفية، في تداخل يصعب أحيانا فك وشائجه وجدلها من جديد. والعمل الإبداعي قد يكون هو الوحيد القادر على ذلك. ففي كل عمل مبدع تجربة شخصية تم التعامل معها برؤية واضحة، ومسؤولة، وواعية.

– في نجمة البتاويين نكتشف أن بغداد لم تعد الحلم، أصبحت نتيجة للأوضاع السياسية التي مرت بها، جزرا ثقافية متعددة ومعزولة، فيها اختلال العلاقة بين المدينة والدين والطائفة والقومية، هل تعد هذا العمل مرثية لبغداد؟

000 بغداد تمتلك رمزية عالية لدى العراقيين أجمع بتلاوينهم القومية والطائفية والمناطقية، وكأنها تحولت إلى أيقونة للهوية المحلوم بها. وعلى صعيد الواقع هي كذلك، وسوف تفقد رمزيتها وجماليتها إذا ما أريد لها أن تكون بلون واحد أو نكهة مفردة. ورواية نجمة البتاويين تعاملت معها،

باعتبارها الإطار المكاني للأحداث، وشخصيات الرواية كانت تحبها وتخاف عليها بالقدر ذاته، فعكست بروح روائية، وعبر شخصياتها، بقع الرعب، والخوف من المجهول، والتمزقات المجتمعية، وتفكك الأمكنة التاريخية المعروفة، وتشوه الروح الجمعية، في مناشدة انسانية تكشف ما يجري في أزقتها وبيوتها وحاناتها، خوفا عليها من شحوب تلك الهوية ومن تلاشيها، خوفا مما يجيش في أحشائها من عنف وكراهية وضيق أفق. الجميع يحلم ببغداد أخرى غير تلك الموصوفة في الرواية. وفي جانب من جوانب الرواية ثمة رثاء لبغداد أخرى عظيمة، متحضرة، تجمع التلاوين كلها، ولكن في جانب آخر ثمة رفض ومقاومة وخشية على مصير تلك الأيقونة الحضارية، أيقونة الهوية الجامعة التي بانفراطها سينفرط وطن اسمه العراق، وفي العمق لا أحد يسعى للوصول إلى هذه النهاية المأساوية. عرض ما هو بشع احتجاجا على البشاعة، وصدمة للوعي، وعي القارئ أولا، كي يستحث لديه الخيال لإشادة المدينة الفاضلة.

- **في رواية 'مسامرات جسر بزبيز' يمتزج الخيالي بالواقعي، الشعري بالحلمي، بالمأساوي والموت، لترصد التحولات التاريخية لقرية تقع على نهر الفرات، خلال أكثر من نصف قرن. حكاياتها، وأساطيرها، وشخصياتها وبيئتها، ومآسيها، هل العملية إعادة كتابة تاريخ القرى التي اندثرت بفعل التغيرات العنيفة التي مرت بالعراق أم إنموذج لعراق صاخب ؟**

000 يبتدئ الحدث في رواية مسامرات جسر بزيبز حين يصل إلى الراوي خبر مقتل عمه رشيد، وهو شخصية أسطورية، متناقضة، يمتزج فيها الحس الشعبي مع الحكمة الفطرية، وشكلت في وعي الراوي حياة ماضية امتدت نصف قرن، ويستثير ذلك الحدث المأساوي ذاكرة الكاتب لاستعادة الشخصيات، والطقوس، وحكايات الحب، والأحلام المجهضة، في تداعيات حرة ابتدأت منذ الطفولة وحتى اللحظة الحاضرة، لحظة تقدم الوحوش باتجاه القرية، الأمر الذي دفع السكان إلى الهروب نحو المدينة، ثم لاحقا باتجاه بغداد طلبا للأمان، عبر جسر صغير على نهر الفرات يسمى جسر بزيبز. هذا الحدث الواقعي لا ينفصل عن مجمل الأجواء التي مر بها العراق في العقود الأخيرة من حروب، وتهجير، وتطرف ديني وقومي، ومحاولات دائبة لتفكيك بنية المجتمع تحت ذرائع شتى، كان أخطرها نزعات التكفير، والعنف، وتصنيف البشر إلى طوائف ومذاهب وأديان وقوميات، وتكريس ذلك في الروح العراقية. وهو نفق مظلم قاد إلى دمار حقبة كاملة بما فيها من حكايات وأمكنة وقيم انسانية، نفق يرفضه العقل المتوازن والمنطقي،

الباحث عن أفق أفضل. ومأساة تلك القرية كانت نموذجا مصغرا، ورمزا، لعراق الشتات، والهجرات، والاحترابات الأهلية، وتمزق الهوية الشاملة، وفتنة الإرهاب الأعمى، بعد أن تفجرت تناقضاتها المتراكمة عقب سقوط النظام السابق ووقوع الاحتلال. والشيء الأساس تلك المعاناة الانسانية التي لا تحتمل للفرد وهو يواجه مصيره وحيدا، وقد فقد البوصلة في التمييز بين الصواب والخطأ، تحت ضغط المتغيرات المتسارعة التي لم يعتدها، ولا يمتلك العدة الذهنية لفهمها، ومن هنا ربما يأتي دور الكاتب، في رصد ما لم يكتب أو يحكى، وفي صياغة مدونة أخرى للوقائع. إنها حكاية الماضي بعد أن رحل شخوصها وأمكنتها وطرائق تفكيرها وأحلامها، يستعيدها راو يعيش في مدينة بعيدة، فشل ذات يوم في دفن عمه في المقبرة، كما يليق بالأموات أن يدفنوا، وللأسف هذا ما يحصل لنا كعراقيين.

– اتساؤل عن المصائر التاريخية للثقافة العراقية ؟ أين موقع الثقافة الآن من عنف التحولات السياسية والملفات العقدية والهويات والصراعات وأنماط السلطة، والعلاقة بين المكونات السكانية؟

000 الثقافة العراقية هي ابنة هذا المجتمع، تساهم في صياغة هوية وطنية جامعة ومشتركات لا يمكن لوطن البقاء دونها، وتاريخيا تبنت الثقافة العراقية هذا الدور منذ نشوء الدولة وتثبيت خارطتها السياسية، وقد أفرزت رموزا كبيرة تجاوزت عقدة التقوقع ضمن إطار الهويات الفرعية، واستطاعت أن تكون منارة للجميع، وتلك الشخصيات برزت في معظم مناحي الحياة، سياسية وثقافية وفكرية ودينية وفنية. وفي الأزمات الحرجة، والمنعطفات المصيرية، ينثني الفرد مفتشا عن نماذج مثل تلك، سواء في الماضي أو في الحاضر، ولأن الثقافة هي ابنة المجتمع المنتج لها تعاني هي أيضا من تصدعات الواقع وصراعاته وعنف تحولاته، ولاحظنا في الحقبة الأخيرة أن الصراعات السائدة في نسيج المجتمع العراقي سرعان ما تسربت أيضا إلى المنتج الثقافي، وإن كان هذا أقل حدة وعنفا مما هو موجود في الواقع. فالثقافة لها اشتغالاتها وآلياتها، وتسفر الصراعات والانحيازات عن نفسها بوضوح، ولا يمكن التغطية عليها، أو المراوغة في خطابها، كما هو حاصل في الشأن السياسي أو في الخطاب الآيديولوجي، التلاعب بالألفاظ والكلمات لا يجدي في المنتج الإبداعي. والمعروف أن الثقافة الجادة، والعميقة، والمسؤولة، تنحاز غالبا إلى الإنسان، إلى العدل والتسامح وتقبّل المختلف، وتروّج للسلام المجتمعي والاستقرار والارتقاء

بالحياة نحو ضفاف التطور والمدنية، وكل ذلك يكشف ويعرّي، بسرعة خاطفة، ذلك التيار النافر من الثقافة المتغذّي على الكراهية، والتعصب، والهيمنة، والتدمير.

- **في روايته أنا ونامق سبنسر نجد أن شخصيات الرواية(جيل من المهاجرين العراقيين) تعيش النفي المركب، أتساءل ماهي الأسباب الكامنة ؟ هل هي الذكريات، أم أن المهاجرين لم يستطيعوا طرح أسئلة وجودية جديدة ؟**

000 المهجرون، والمغتربون، والمنفيون، واللاجئون في الداخل والخارج، كانوا، ومازالوا، جزءا من ذاكرة العراقيين، تعددت أسباب الهجرة خارج الوطن، وتنوعت المعاناة، وخلال عشرات السنين، منذ الحروب الظالمة والعبثية التي عاشها البلد، تشابكت حكايات المنفيين وهمومهم مع هموم البلد الأم ومعاناته في الترحال، والقمع السياسي، والسجن، والاقتلاع، والتمزقات الأسرية، والخراب، وكل هذا له تفاعلاته على صعيد الشخصية العراقية، وقد تناولت رواية أنا ونامق سبنسر تجربة العيش داخل البلد وخارجه لمنفيين لم يعودوا يستريحون إلى مكان بعينه. وهي صفة عامة لا يعيشها العراقيون فقط، بل هي ظاهرة تتسع يوما بعد يوم، وتضرب شعوبا في مختلف القارات، إذ حتى لو عاد المغترب إلى بلده لن يكون شخصا سويا مرة أخرى، بعد أن تضافرت في صياغة روحه وذاكرته مدن ولغات وعادات وأزمنة، وهذا ما حصل لبطل الرواية حين عاد إلى بلده. هناك دائما رياح بعيدة تداعب رأسه، وهناك دائما أشخاص يومئون له من بعيد، يشكل فقدانهم، رغم بعد المسافات، أزمة روحية ووجودية. ثمة أحيانا اغتراب للفرد حتى لمن يعيش داخل وطنه، حين تتقطع الوشائج بينه وبين البيئة التي يعيش وسطها، وينعدم التفاعل، وهو نمط آخر من الاغتراب المعاصر الذي تفشّى على هذه الأرض. من يعيش في أمكنة متعددة غالبا ما ينزلق إلى مفازات الانشطار الروحي الذي لا براء منه، لكن مصائر قاسية مثل تلك لم يخترها الشخص، إنما هي نتاج ظروف قاسية ومعروفة، الحروب خاصة، وافتقاد العدالة في البلد، وتدهور الحالة المعيشية، وضيق فسحة الحريات الشخصية، وتفجر المتناقضات المجتمعية أثناء لحظة الاصطدام بالحداثة والتكنولوجيا، صراع القديم مع الجديد يتجلى في أشد الوضوح في المجتمعات المتخلفة بالمفهوم المعاصر للتخلف.

- **تقول إن الرواية العراقية تعاني التشظي على عدة مستويات سواء كانت مكانية أو زمانية، والكثير من الروايات العراقية التي كتبت خارج العراق سلطت الضوء على شريحة العراقيين الذين**

تغربوا، أما الروايات الأخرى، روايات الداخل، فعبرت عن تغير الأماكن والإنسان ذاته نتيجة الهزات القوية التي تعرض لها المجتمع ، هل من الممكن أن هكذا ظروف تساهم في تشظي الرواية التي تعد الذاكرة الجمعية للمجتمعات ؟ والى أي مدى ؟

000 رسخت الرواية العراقية جذورها في الساحة الابداعية وصارت تمتلك تجارب مهمة، عربيا وشيئا ما عالميا عبر الترجمات القليلة، ولا يخفى أن تجارب الرواية العراقية في الخمسين سنة الأخيرة، ظلت قليلة، ومهتزة، إذا ما قورنت بالشعر، ويمكن استذكار تجربة عبد الملك نوري وذو النون أيوب ثم غائب طعمة فرمان وفؤاد التكرلي ومهدي عيسى الصقر، كجيل مؤسس، إما روايات حقبة الحرب العراقية الايرانية فلا يعتد بها في التجارب الحقيقية كونها ظلت وفية لآيديولوجيا السلطة آنذاك ولم تعر كبير اهتمام للصيغ الفنية أو الصدق في مقاربتها لما كان يجري في الواقع. مؤخرا، بدأت الرواية ترتاد حقولا لم تألفها سابقا، وبأساليب متنوعة ومبتكرة، فمادتها توزعت بين المدينة والريف، الحروب والهجرة، المعاصرة والتاريخ القريب للمجتمع، الاحتلال وما رافقه من أزمات مستجدة، الصراع بين الجماعات والارهاب، وبدأت تغوص أكثر فأكثر في البنية الروحية للفرد العراقي. ساهم في تفجر هذا الكم من الروايات، وتعدد أساليبها وموضوعاتها، الانفتاح الكبير الحاصل بعد انهيار النظام السابق ورفع الرقابة، وفتح الحدود، وتدفق الكتاب العربي والترجمات إلى الشارع، واتاحة السفر والتواصل مع العالم، وسهولة الوصول إلى المكتبات العربية والعالمية عبر أدوات التواصل الاجتماعي من انترنيت وفيسبوك وإيميل. هذا ما وضع الكاتب في بؤرة الحدث، المحلي والعربي والعالمي، سواء على صعيد النشر أم على صعيد قراءة الأحداث. كل ما سبق أوصل الرواية العراقية إلى موقع مختلف تماما عن الجو الروائي لدى الجيل المؤسس للرواية العراقية، ورسم خارطة غير منسجمة أحيانا للتجربة الروائية على صعيد طبيعة المادة الروائية المشتغل عليها، وكيفية صياغتها فنيا، واختفاء الحدود بين الأجيال، وضآلة احتكاك النص مع حاجاته المجتمعية، بعد طغيان الحدث السياسي على الظواهر الثقافية، واتجاه المجتمع إلى تبني الروح القدرية والثيولوجيا التي لم تعد تتناسب مع مجتمعات الحداثة في بقية العالم. ومن هنا نصل إلى حالة التشظي التي وصفنا بها الرواية، هي لم تعد محلية تماما لا في مادتها ولا شخوصها، وهي لم تعد ذات مشتركات أسلوبية تمنحها

خصوصية، بسبب الاختلاف الهائل بين التجارب الكتابية، ومردّه إلى عيش الكتاب في حمى ثقافات مختلفة، وحساسيات لغوية أخرى، واطلاعهم على نمط آخر من الحياة.

- **لم يحدث حتى الآن جرد حساب أولي للتاريخ الحقيقي لفئة المثقفين العراقيين في نقد الأوهام، والأساطير التي قامت هذه الفئة بصناعتها، وأدت إلى تزوير واختلاق وتحريف تشكيل الوعي التاريخي والاجتماعي والسياسي للمجتمع العراقي ؟**

000 لا يقتصر أمر عدم مراجعة التجربة الماضية، سواء منها حقبة الديكتاتورية أو الحقبة التي أعقبتها، على المثقفين فقط، بل شمل ذلك السياسيين والنقاد والمفكرين، إلا في حالات نادرة جدا، وكأن الجميع متفق على غض الطرف عما حدث سابقا وأوصلنا إلى المرحلة التي نحن فيها، في فضاء استقطابي ليس من أولوياته بناء الانسان والبلد عموما. وربما لهذا السبب حملت الرواية العراقية هذا العبء، فالرواية تستوعب فكرة النبش في الماضي، ومراجعة التاريخ، وتقييم أصغر الوحدات الفكرية في عقل الانسان، وصياغة رؤيتها المبدعة حول الأحداث. بالطبع ينبغي ألا يكون نقد الوهم ذريعة لإحلال وهم آخر بديلا عنه، كما يروج البعض، فنقد الوهم، والأسطورة، والاختلاق، والتضليل، يتطلب وعيا يشتغل في فضاء العقل والمنطق، وقد تكون الرواية، كفن واع، أقرب الفنون للعقلانية وسعة الأفق. وهو ما جعل منها اليوم حقلا رئيسيا من حقول الابداع في العراق. نفذت بطرائق مبتكرة إلى إدانة التعذيب، وانهيار المكان، والبحث في أسباب العنف، والحريات الشخصية، وتفكك الأسرة، والهجرة، والنماذج المنغلقة سلوكا، وقناعات.

- **نقد الجذور النظرية والمعرفية للكتابات ذات الأبعاد الفاشية التي تم إنتاجها داخل تمثيلات النظام الثقافي العراقي، طوال عقود، برأيكم لماذا لم تجر تلك العملية الكبرى حتى الآن؟ حيث نرى الآن إعادة انتاج الفكر الطائفي الفاشي في الثقافة العراقية ؟**

000 قد نقع على الإجابة في بنية السلطة ذاتها، فأي ثقافة تندمج بالسلطة لا يمكن لها القيام بهذا الدور، أي دور الناقد لجذور الفكر الفاشي وآلياته وتمثّلاته في مؤسسات المجتمع، ونحن نعلم أن جوهر السلطة يكاد يكون متشابها وإن اختلفت التسميات، هي تسعى إلى نمط من المثقفين يسوّغ لها

وسائل القمع، ويبرر لها ممارساتها الخاطئة، وشعاراتها ومفاهيمها، ويدلها على أنجع الوسائل للاختلاق، والاقناع، وتشويه الحقائق. تلك هي ثقافة التضليل. من هنا ظلت الثقافة المعارضة، في العهود السابقة، ثقافة ناقدة، تنحاز إلى جانب الإنسان، وتكتب بصدق، طوردت، وحجر عليها، واضطرت للهجرة بحثا عن فسحة للحرية، حرية الإبداع، أو قمعت وسجنت وأصمتت.

- **هل استطاع المثقفون العراقيون فحص السياسات، والبرامج، والمناهج الثقافية ، أو مراجعة النموذج الثقافي التداولي؟**

000 تسيّد السياسي في العقود الأخيرة على كل مرتكزات الدولة، وكان يمتلك أدوات الفعل دون غيره، مزيحا بذلك المثقفين إلى الهامش، فتحولت الثقافة إلى تابع، أو على الأقل ما فسح له في الظهور، بينما سببت التحولات الحادة في العقد الأخير، السياسية والاجتماعية والديموغرافية، إلى تهميش دور الثقافة ووظيفتها. ابتعدت الثقافة عن أن تكون غذاء روحيا للفرد. هناك محافظات عديدة لم تعد تحتوي على مكتبات ولا يصلها المطبوع، وتفتقد لأي فعالية ثقافية أو فكرية أو فنية، مع تفشّ غير مسبوق للأمية، التربوية والعلمية، وأصبح الإعلام سيدا على العقول، بما يحمل من متناقضات وانحيازات يساهم بعضها في تفتيت اللّحمة الوطنية، هذا عدا عن افتقاد المواطن لأبسط مقومات الحياة، حتى تحول هاجس الحفاظ على الحياة الفردية إلى قيمة أولى في سلم الممارسات اليومية للفرد. وكل ذلك جعل من المشاريع الثقافية، أو مراجعة النماذج التداولية، محصورة في فئة نخبوية، ولا تعني الكثير للمجموع. توفر الكهرباء، الأمان الشخصي، لقمة العيش للأسرة، وغير ذلك من ضرورات وجودية، تهم المواطن أكثر بكثير من قراءة كتاب ورؤية فيلم وحضور حفل موسيقي، وهذا على سبيل المثال ليس إلا.

- **لماذا لم يظهر المثقف العراقي مشروعاً، أو نسقاً ثقافياً، أو سياسياً، للخروج من هذه الأزمات الدورية للمجتمع العراقي، هل تعتقد أن المسألة مرتبطة بسيرورات تكوين فئة المثقفين العراقيين والمرتبطة بشكل ما بأزمة تكوين البنيات الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، وهشاشة الدولة العراقية ، وعدم تبلور الطبقات الاجتماعية، والبنى المؤسساتية؟**

000 قد يكون كل ذلك مجتمعا، رغم أننا لا يمكن إحالة هذا الدور الصعب، والشاق، للمثقف فقط، فإحداث تغيير بنيوي جاد، ومثمر، لا يقع عاتقه على المثقف وحده، بل ينبغي أن يشاركه الدور المؤسسات التربوية والتعليمية، الأحزاب، منظمات المجتمع المدني، البنى الدينية الفاعلة، الاتحادات والنقابات المهنية، في فضاء إيجابي يشترك فيه الجميع. لكن ما نراه هو هيمنة الصراعات الثانوية، والثأرية، والانفعال بمشاريع خارجية، وردّات الفعل المرتبكة على العقد والمعضلات. والتغيير المنشود ينبغي أن يركّز على بنية الدولة وكيفية إدارتها، ودور المثقف الحقيقي يكمن في ممارسة مهنته الإبداعية والفكرية بصدق، وهو يطرح الأسئلة، والهواجس، والأمراض البشرية، لكن من يجيب عليها هو المجتمع بكل مكوناته، وبناه المؤسساتية، وفاعلياته، وهذا ما نفتقده حقيقة.

زينب المشّاط

صحافية عراقية

2017 جريدة المدى

الغربة ، الوطن ، الهجرة والمنفى ، المغامرة والركود ، وانتقالاتٌ كثيرة في بحور حياتنا المضطربة قد تجبرهُ على اللجوء إلى الورق ليخلق مفاهيمه وعالمه وبيئته ، ليخلق أجواءه التي تمنحهُ المزيد من التعاسة ، ذلك أن لا كاتبا يستطيع خطّ حروفه إلا بتعاسة ، وليكن بين المحترفين بالتعامل مع الحروف ، والرقص على سطور الكلمات ، والإبداع بنحت اجساد الجُمل. انتقل في عالم الحرف من قاصٍ إلى روائي ، فانتقم من الواقع بخلق أبطاله الثائرين على التأريخ والحضارة ، محاولين إنقاذ المستقبل من تيار المجهول الجارف لكل شيء ، فبين قصص " ثمار البلوط" ورواية "نجمة البتاويين" نجدهُ قد تناول تأريخ العراق المعاصر في الخمسين عاماً الماضية ليحل ضيفاً على سطور صحيفتنا ، وفي حوارٍ أجرته " المدى" مع القاص والروائي شاكر الأنباري ، نجد أن أحبارهُ اختلطت بين كتابة الحروف ورسم وطن.

– رغم الكم الكبير من الروائيين العراقيين إلا أن الرواية العراقية ما تزال عاجزة عن الوصول إلى القارئ العربي وعاجزة عن التأثير ؟

000 في العقود الأخيرة شهد العالم ظاهرة غير مسبوقة على صعيد السرد، ألا وهي تصدّر الرواية وانتشارها في العالم كله، ولم يحدث الانتشار كميا فقط، بل تعدى ذلك إلى تنوع الأساليب الروائية، ومغامرة التجريب والبحث، حتى بات من الصعب إدراج ذلك تحت نمط معين طبقا للمواصفات القديمة التي أسسها أساطين الرواية الكلاسيكيين، إذ صارت الكتابة الروائية تستوعب الفنون جميعا، كالتشكيل والسينما والفلسفة والمقال والبيئة العلمية، مما أخرجها من بلاغتها القديمة القائمة على الحكاية، والعقدة، والشخصية، والسرد الخطي، لتصبح حقا أم الفنون جميعا. ومع انتشار مفهوم جديد للكتابة الروائية مثل ذاك، وسرعة الوصول إلى القارئ، عبر تطور لافت للاتصالات الحديثة، وغزارة الترجمة بين لغات العالم، بدا وكأن جميع شعوب الأرض تتجه إلى التعبير عن نفسها بواسطة الرواية، كما لو أنها حلت محل الآيديولوجيا، الإنسانية منها والدينية، لتتبوأ الخط الأول في التعبير عن هواجس الفرد اليومية، وهمومه ونظرته للكون والحياة، ومعنى وجوده على هذه الأرض. ولا يشذ الأمر عربيا وعراقيا، فمن روائيين كانوا يحصون على الأصابع قبل ثلاثة أو أربعة عقود، إلى مئات بل وآلاف الروائيين العرب والعراقيين. التنوع في نمط الكتابة، وسرعة الانتشار، أوحى لممارسي مهنة الكتابة هاجس سهولة الدخول إلى جنة الرواية، وهذا ما حصل لاحقا، فشهدنا انفجارا لافتا لنشر الرواية، وعلى صعيد العراق خرجت إلى النور مئات،

وآلاف الروايات في الحقبة الأخيرة، بعد أن أزيل عائق الرقابة، وتحول مزاج القراءة من الشعر نحو السرد. صار القارئ أمام روايات من مختلف الأنواع، الركيكة والمحكمة، البسيطة والمعقدة، الصادقة والكاذبة، السطحية والعميقة، المكتوبة عن مهنية ودراية بهذا الفن، والمكتوبة بجهل فاضح وواضح، ولهذه الظاهرة ربما علاقة بما يجري من تحولات على صعيد المجتمع وأفراده، وهمومه، وهي قد تأتي محلية الهوى فلا تلامس قارئا آخر سوى ابن البيئة تلك، أو تحمل المشترك الإنساني فتلمس تجاوبا كبيرا من قبل القارئ العربي البعيد. والعالمي ربما. وما تزال الرواية العراقية في بدء مشوارها، وهذا ما جعلها تحمل أمراض التأسيس من انغلاق، وانفعالية، ومباشرة، ومحلية خانقة، رغم أن عينات من الرواية العراقية كتب لها الانتشار في البيئة العربية، سواء عبر الجوائز أو المشاركة الكبيرة في معارض الكتب، كما ترجمت روايات عديدة إلى لغات أوربية وإن كان بشكل محدود. وهي في النهاية تحتاج إلى شيء من التأمل، والاسترخاء، وهذا سيأتي مع الوقت، ومع وصولها إلى القارئ، فالحاكم على نجاح الرواية هو الزمن وليس تقييم اللحظة الراهنة فقط.

– ألا ترى أن مواضيع الرواية العراقية مكررة وإن القارئ لا يريد الاطلاع على الخراب لأنه يعيشه، فلماذا تصر الرواية العراقية على أن تكون سياسية خطابية ؟

000 قد يكون هذا الحكم تعميما على النتاج الروائي العراقي، فهناك تجارب روائية لا تندرج في التصنيف ذاك، ولا تأتي جودة الرواية من مواضيع تناولها بل من كيفية بناء تلك المواضيع، ولا أظن أن هناك مواصفات محددة للرواية الناجحة، فنحن أمام حرية مطلقة لاختيار الثيمة وأسلوب صبها في نص روائي، ولا يمكن تجاهل الوشائج العميقة والمعقدة بين موضوع الرواية والواقع الذي يلدها. فالكاتب لا يكتب من الخيال فقط، ولا يصوغ الفراغ موضوعا لرواياته، وليست هناك رواية عالمية ناجحة، شرقا وغربا، لم تبن عوالمها من واقع محسوس، ولنأخذ أمثلة على ذلك، نجيب محفوظ، فؤاد التكرلي، دوستويفسكي، كونديرا، أورهان باموق، هوراكي موراكامي، ابراهيم الكوني، حنا مينه، بول أوستر، وغيرهم وغيرهم، كل هؤلاء بتعدد أنماطهم الروائية كانوا أبناء مجتمع وزمن محددين، وهذا أيضا ينطبق على الواقع العراقي. لدينا الإرهاب، الطائفية، التمزق الأسري والمجتمعي، الهجرات، الحروب، المقاومة للطغيان والفساد والديكتاتوريات، التظاهرات، التحولات الروحية للمرأة تحت عنف المجتمع وتدينه الكاذب، السجون، المعاناة

اليومية للفرد، وغير ذلك الكثير مما تزخر به البيئة العراقية، ويمكن أن يصبح مادة أولية لفن الرواية. وحين تصبح تلك المادة موضوع اشتغال للروائي، تأتي براعة الكاتب بعدها لكي تقتنص الجانب الإنساني، والحكمة، وبؤرة الصراع، والفضاء الروحي لصيغة فن يضيء تلك العتمات ويرتقي بروح القارئ نحو الفهم والمتعة والجمال. وهذه ربما رسالة الفن عموما، منذ النشأة الأولى وحتى اليوم. حين يضع الكاتب قارئه أمام نفسه في مرآة الفن الشاسعة، لا يعني أنه يعيد عليه الظروف البشعة ذاتها، إلا في الروايات الهابطة والمباشرة، بل يتواصل معه بنمط آخر من الوشائج، حاثا في روحه ملكة العقل والضمير والحكمة، بعملية معقدة، بطيئة، لن يتنبأ أحد بنتائجها، ورسالة الفن تختلف كليا عن رسالة السياسي أو رجل الدين، فهؤلاء حواة على مسرح الحياة.

- **في "نجمة البتاويين" تكلمتَ عن الشخصية المهمشة التي تسكن قاع المدينة هل ترى أن هذه الرواية استطاعت تمثيل وتجسيد الشخصية البغدادية ؟**

00 **لم يعد مفهوم الشخصية البغدادية قائما بعد التحولات الحادة والعاصفة في المجتمع العراقي، المدن تختلف لكن المعاناة متشابهة، وبيئة الرواية تتناول البشر الذين يعيشون في مكان محدد هو بغداد، لكنها لا تفترض وجود نسق مكاني وزماني واضح الملامح، بل هي ترصد المشتركات الجديدة بينهم، وكيفية عيش تلك المشتركات، كالرعب، الاختطاف، المرأة، العبث اليومي نتيجة فقدان الأمان، وفوضى الأحداث، غير المعقولة أحيانا، وهي ترصد الانهيارات في القيم الاجتماعية، والخلل، والتمزق في الشخصيات التي كتب عليها أن تعيش في حمأة زمن قاتل، وفي مكان متآكل ومخرب نتيجة الحروب والاحتلال والديكتاتورية والهيمنة الدينية والذكورية على الشارع، واقصاء شرائح المجتمع بعضها لبعض. الرواية حاولت على الأقل العبور على كل هذه الظواهر والمفاهيم والأفكار، والقارئ بالتأكيد هو من سيحكم على نجاح الرواية في ايصال رسالتها، وكانت الرواية تحاول تبني الواقع ذاك كمادة أولية لفضائها، للوصول إلى الرؤية الفنية، دون أن تنطلق من أحكام مسبقة. أي تصعيد الواقع إلى دائرة الفن، بعيدا عن الانشاء الوصفي، وقد يكون الانشاء واحدا من أمراض الرواية العراقية**

الحديثة، والعائق أمامها في الوصول إلى قارئ بعيد، لأن الانشاء استعادة، وتكرار لما سبق، أما الوضوح، والصلادة، والتحديد، فابتكار يحسب للكاتب، أي كاتب، وهو ما يعطيه الفرادة. حاولت رواية نجمة البتاويين تقديم الكارثة البغدادية، والعراقية عموما، على طبق من الألم والعبث واللاجدوى، إلى قارئ يتأمل في ما يجري حوله أو قريبا منه، لأن ما يجري لا يصدق، وفوق الاحتمال البشري.

- **عملتَ في الصحافة لفترة ، فماذا أضافت الصحافة لكتاباتك ؟**

000 عشت لأكثر من خمسة عشر عاما عن طريق الكتابة للصحافة، في دمشق وبيروت والعراق، سواء كاتبا في مجال النقد الثقافي أو موظفا في مؤسسات اعلامية وثقافية، وهي تجربة ممتعة كون الكاتب يظل على تماس يومي مع ما ينشر من كتب أو مقالات، وعلى تماس يومي مع النصوص، خاصة في مجال التحرير حيث يصبح الكاتب أكثر احتكاكا مع اللغة، مع المفردة والجملة وتسلسل الأفكار وعمقها وفرادتها، إضافة إلى اطلاعه على مطبخ التحرير، وهو الكواليس الخلفية للنشر، مع علاقة ومتابعة لصحف في بلدان متعددة، والاطلالة على كم كبير من الأساليب الكتابية، والوصفات الصحافية في التحقيق، والمقال، والحوار، والخبر، والمنوعات. وهذا يوسع من روح الكاتب في تقبل التنوع والاختلاف، وفي كيفية تحايل الكاتب على الرقابة الرسمية أو الاجتماعية، وكانت وما زالت ربما في عدد من البلدان العربية رقابة صارمة ترصد الكلمة والجملة وتفتش عما وراء السطور. وفي الصحافة يمكن رصد اللغة المقموعة بوضوح، المقموعة من قبل التابوات الدينية والاجتماعية والأخلاقية، أو من قبل السلطة السياسية مباشرة، وكون الصحافة تتعامل مع اليومي، عموما، تتوجه إلى مختلف مستويات القراءة، فالمعروف أن لغتها وطريقة بنائها للجملة والموضوع تميل إلى البساطة والوضوح والسلاسة، وهي مقومات من الضروري أن يعتاد عليها أي كاتب. فالروائي، والشاعر، والسارد، ينبغي أن لا يغيب عن ذهنه أنه يتجه إلى قارئ مجهول، قد يكون ساذجا أو ناقدا أو متوسط الوعي، فالاحتفاظ بوشائج مع واقع القراءة بتنوعه وتغيره ضروري للكاتب، حتى لو كان من النخبة التي تتعامل بالإبداع فقط. الاحتكاك مع اليومي، اللحظي، سريع الزوال، أفادني في مجمل نشاطي الابداعي، فاللغة بالنهاية هي من الناس وموجهة إلى الناس.

- **كتبتَ القصة القصيرة ولكنها لم ترسخك كقاص ، هل تحنّ إلى معاودة الكرّة ؟**

000 كتابة القصة كانت مرحلة من حياتي، لقد بدأت قاصا، وهو الحقل المرغوب والمنتشر في ساحة السرد العراقي للعقود الأخيرة من القرن الماضي، في حين لم تكن كتابة الرواية شائعة في العراق، لذلك كان كتاب الرواية معدودين، وتحولي إلى كتابة الرواية جاء بشكل طبيعي، بعد أن توصلت إلى أن القصة لم تعد كافية للتعبير عما أريد طرحه، من أفكار وتحليل وشخصيات، وأمكنة ولعب فني، واستيعاب للتحولات التي عشتها من هجرة، ومنفى، وحروب، وتشرد، ومغامرات. كتبت خمس مجاميع قصصية، أدخلتني إلى عالم الكتابة السردية، وعرفتني إلى فضاء الثقافة والمثقفين، ولا أفكر اليوم بموضوع لقصة، إذ أنني رحت أستوعب القصص التي تخطر في ذهني، أو أسمعها، أو أقرأها كخبر أو معايشة، في تضاعيف الرواية، الأمر الذي جعلني أشعر بحرية أكبر في ممارسة الكتابة. القصة تظل مقيدة ضمن سياقات محدودة، بينما الرواية خرجت من كافة الأطر والقيود والمواصفات، حتى وصلت إلى مفهوم الفضاء الروائي، أي عجن، ودمج الحكايات والأمكنة والأفكار والتداعيات في خلطة فنية ضمن فضاء روائي واحد، وهذا ما لا يتوافر للقصة في وقتنا الحاضر، علما أن القصة تراجعت في معظم دول العالم، وتمثلتها الفنون الأخرى وعلى رأسها الرواية .

- **أنت تنحدر من مكان مضطرب وما زال حتى هذه اللحظة ، هل انعكس ذلك فيما كتبت ؟**

000 من وجهة نظري فالعراق كله مضطرب، وهو جسد واحد لا يمكن إبقاؤه صحيحا معافى بوجود مناطق مضطربة أو إخفاقات بنيوية في مكان ما منه، طبعا إذا ما فكر المرء بروح الوطن، لا روح المنطقة أو الطائفة أو الدين أو القومية، فالخلل يشمل الجميع. وما وجود مناطق مضطربة إلا دليل على اضطراب الجسد العراقي كله، منذ سقوط النظام حتى هذه اللحظة، ولم يصل العراقيون إلى الحياة التي كانوا يحلمون بها، ومعظم رواياتي تناولت هذا الجانب من الواقع، وقد أنهيت رواية جديدة عن نزوح قرية بعد سيطرة الإرهاب عليها، وتستعيد شخصيات الرواية حياة ماضية زالت ولم تبق سوى ذكرى في رؤوس قاطنيها، الذين توزعوا مدن العراق هربا من الموت، والرواية تستعيد الأمكنة، والحكايات، والأحداث، طوال أكثر من نصف قرن، حتى الوصول إلى زمن الهجرة، وهو تاريخ مليء بالحروب والقتل والمواجهات والعذاب، وهو ما يحدث أول مرة في حياة القرية إذ لم يسبق لها، وتحت مختلف الظروف، مواجهة أزمة بنيوية مثل هذه.

والسؤال الكامن خلف الأحداث هو: من أوصلنا إلى مصير مثل هذا؟ الديكتاتورية، الاحتلال، الأحزاب الطائفية الدينية، الارهاب، أم كل ذلك مجتمعا؟ وقد يمتد السؤال ليشمل ما يجري في العراق كله، وربما المنطقة كذلك.

- **بين "ليالي الكاكا" و "نجمة البتاويين" هل تشعر أن هناك تطوراً في السرد أو في اختيار الفكرة ؟**

000 كتبت "ليالي الكاكا" قبل خمسة عشر عاما، وكانت الأحداث غير هذه التي تجري حولنا، رغم أن ثيمتها الأساسية هي الهجرة، والمنفى، وتشظي الشخصية العراقية في الأماكن والدول، بمواجهة حروب متعاقبة ونظام شمولي أوصل البلد إلى نقطة اللاعودة، وخلخل انسجامه الاجتماعي وأمانه. الحروب عادة تقضي على كل توق للاستقرار والمدنية، عدا عن تأثيراتها العميقة في البشر، وتناولت رواية ليالي الكاكا هذا الجانب من حياة العراقيين، فبطل الرواية يضيع بين الأمكنة والأزمنة، من أوربا إلى كردستان العراق إلى القرية التي نشأ فيها، والبطل خلال الرواية يحاول قراءة الأحداث بدقة للوصول إلى معنى ما لما يجري، حيث الأحداث تضرب في بحر اللاعقلانية والفوضى، وليس من السهل تنظيم كل ذلك ذهنيا لإعطائه قراءة ذات بعد معرفي وإنساني. الملابسات بعض الأحيان أكبر من قدرات البشر، وهذا ربما هو المشترك بين الروايتين، أي ليالي الكاكا ونجمة البتاويين، فالشخصيات تعيش اليومي من الأحداث لكي تصل إلى الفهم، والفهم يقود إلى التغيير، أي تغيير الأحداث والفعل بها، أو على الأقل تغيير البنية الداخلية للقارئ، رغم أن شخصيات رواية نجمة البتاويين أكثر تشاؤما، ويأسا، من شخصيات ليالي الكاكا، إذ انغلقت دائرة اليأس ولم يعد ثمة أمل، على الأقل للجيل الذي أنتمي إليه. وهي ليست دعوة للركون إلى الحاضر المؤلم، والأسود، إنما سباحة في بحره المضطرب، وعكسه في مرآة فنية لتلمس بشاعته، والوصول إلى رفضه وتجاوزه. أصبحت خلال هذه الفترة الزمنية بين الروايتين أكثر ملموسية في تعاملي مع الحدث والشخصيات والمكان، بعد تجربة المعايشة اليومية في المدن، بعد سقوط النظام وعودتي إلى البلد في العام ألفين وثلاثة.

عبد الجبار العتابي

صحافي عراقي

2019 جريدة الصباح

- عرّف لنا نفسك بكلمات ؟

000 ولدت في الرمادي، وأكملت دراسة الهندسة في جامعة السليمانية، واتجهت إلى التفرّغ للكتابة فأصدرت 11 رواية وخمس مجموعات قصصية، وعددا من الكتب الأخرى المتخصصة بالثقافة والترجمة، وتنقلت بين بلدان عديدة، وأعيش حاليا في كوبنهاغن مع أسرتي.

- ما السحر في الرواية لكي تستمر في كتابتها؟

000 تمنحني كتابة الرواية فسحة واسعة من الحرية الشخصية، وتتيح لي الفرصة لتأكيد وجودي الشخصي كذات فاعلة تراقب المشهد وتعطي رأيا جماليا وفكريا بما يجري، والرواية بارومتر يشير إلى تطور كاتبها الروحي والثقافي نتيجة احتكاك الكاتب مع القراء والمتخصصين.

- لماذا ابتعدت عن القصة القصيرة ؟

000 بعد أن كفت القصة القصيرة عن استيعاب ما أريد قوله وتجريبه من أساليب، انتقلت إلى الرواية بعوالمها المتعددة وشخصياتها المركبة وحواراتها ووصفها للأمكنة وخلقها لحياة موازية للواقع هي حياة الفن الخالد. ورغم أنّني هجرت كتابة القصة القصيرة لكنني أقرأ نماذجها الناجحة بشغف، ويمكنني أن اقول إنّ القصة هي ابنة الرواية المدلّلة .

- متى دخلت دائرة الشهرة لأول مرة ؟

000 الشهرة تأتي من تراكم المنجز، ومن نجاح وتقبل ما ينتجه الكاتب من قبل قرّائه، والشهرة لا تأتي من النتاج الإبداعي فقط بل من مجمل حضور المثقف سواء في الصحافة أو الحضور الاجتماعي أو التجربة المختلفة، وثبات المبدع في مواصلة منجزه، والزمن هو الذي يمنح في النهاية شهادة الشهرة لأي كاتب.

- كيف تنظر إلى شهرة الأديب العراقي ؟

000 المبدع العراقي حاضر بقوة في ساحة الإبداع الثقافي عربيا وعالميا، وذلك بسبب تنوع منجزه من شعر وقصة ورواية ونقد ومسرح، فضلا عن الفن التشكيلي والسينما، ولا ننسى أن خارطة المبدعين العراقيين توزعت الأرض كلها، والثقافة العراقية بمجملها تنطوي على روح انسانية خلقتها المعاناة المتواصلة طوال عقود من الحروب والهجرات والقمع والمنافي.

- ما جديدك من القصص أو الروايات ؟

000 لدي عمل روائي ضخم يشتغل على حياة العراقيين في دولة أوربية تقع في شمال الأرض، كيف دخلوا البلاد، والاحلام التي حملوها معهم وهم يتجهون إلى المنافي البعيدة هربا من الحروب، وذكرياتهم في البلد الأم. والرواية تتناول حقبة تنحصر بين ثمانينيات القرن السابق وبداية القرن الحالي، وتنتهي بلحظة سقوط النظام السابق واحتلال البلد .

- ما السر وراء ازدياد عدد الروائيين في العراق؟

000 هموم العراق ومعاناته خلال عقود لا يمكن أن يعبر عنها بشكل عميق وشامل إلا الرواية. وهي تستوعب التحليل والتجربة الذاتية والنظرة السياسية والاستفادة من التاريخ القريب، وكون الرواية لها أنماط وأساليب غير معدودة تحتمل المونولوج الشخصي والمذكرات والرسائل والسرد الواقعي، الخ، فصار من السهولة دخول حقلها من قبل الجميع. لكن كتابة رواية ناجحة تتطلب من الكاتب الصدق والتجربة والثقافة الشاملة والخبرة بأساليب الكتابة، وزيادة كتاب الرواية علامة صحية وإشارة إلى أهمية هذا النمط من الفن الكتابي .

- أي قلق يساورك مع مراحل كتابة الرواية ومتى تكون ذروته؟

000 الحقيقة أنّني لا أشعر بالقلق بل أشعر بالمتعة، وحين أنتهي من كتابة الرواية ينتابني الفراغ كما لو كنت افتقد شيئا من حريتي.

- ما الذي أعطته الصحافة لشاكر الأنباري الروائي وما الذي أخذته؟

000 أعطتني الصحافة السيولة اللغوية، واختصار الإنشاء في التعبير، والقرب من هموم البشر العاديين وقصصهم. ولم تأخذ شيئا مني.

- ما الذي رسمته الغربة على أوراق قلبك ؟

000 الهاجس الدائم لدى المغترب هو أنه ليس في بلده، والبلد هو اللغة والحياة اليومية والطفولة والمعارف والأقرباء ومقبرة الأجداد والذاكرة. لن يعيش أي مغترب حياة طبيعية ما أن يغادر وطنه.

- أي جسر تمدّه للوصول إلى الوطن وأنت تكتب رواياتك عنه؟

000 أنا لا أعتبر نفسي مغتربا فقد عشت في داخل الوطن حتى وقت قريب، ولديّ من التجارب الكثير، وكل تجربة تستحق أن توثق برواية أو تعتمد كمادة أولية لرواية، والوطن لم يغادرني يوما سواء كنت في داخل العراق أو خارجه، هو يتسع دائما في داخلي حتى وأنا في الغربة.

- ما الذي يهمّك في الجوائز والمسابقات الادبية؟

000 لا تهمّني على الإطلاق ولا أفكر فيها.

- كيف ترى العلاقة بين النقد والسرد؟

000 النقد العربي عموما يسقط نظرياته على النصوص، أي لا يقرؤها من الداخل، وهناك انحيازات في الأحكام لا علاقة لها بالنص تخص الشلليّة والمحاباة والمناطقية والنظرة الضيقة وعدم متابعة لما ينشر.

- ما أهم رأي قيل في تجربتك الروائيّة؟

000 تجربة حادّة، فيها من الواقع الكثير، ولا تقيم أهمية كبيرة لمواصفات الكتابة المتعارف عليها.

- متى شعرت أنّك لا تريد الكتابة؟

000 حين أنغمر في التجربة الحياتية .

- هل داهمك الملل ومزقت أوراق كتاباتك؟

000 لا، لم يحدث هذا، فحين يُصيبني الملل أغادر الكتابة وأتجه إلى القراءة، فالقراءة جنتي وتمنحني عمرا إضافيا.

- ما الذي يتأرجح في داخلك؟

000 الثنائيات هي التي تتصارع في داخلي، الثقافة والتجربة، الفوضى والالتزام، الخارج والداخل، الموت والحياة، الغياب والحضور، وأظن أنّ ذلك الصراع هو ما يديم حياة الفرد ويدفعه للإبداع.

- هل يهمك رأي قراء الفيسبوك في كتاباتك ؟

-بالتأكيد، رغم أن الفيسبوك لا يمتلك مساحة واسعة لإبداء رأي في المنتج الأدبي، ورأي أصدقائي يهمني

كثيرا.

محمد الحجيري

صحافي لبناني

2020 موقع المدن

– ما الذي يجعلك وغيرك تكتبون رواية، لماذا الكتابة؟

000 كتابة الرواية هي مقاربة شخصية للحظة الوجود، يمنحها الفرد رؤيته الفكرية والجمالية والسياسية للأحداث والشخوص، وترتكز بالأساس على وعي الكاتب، وفلسفته، وسعة أفقه، وتجربته، وثقافته الشخصية. وأنا أكتب الرواية لأسباب كثيرة منها الهروب من العبثية اليومية لوجودي الزائل كإنسان، وتلوين الضجر المتكرر كل يوم، والحفر في أعماق روحي. وهي تمنحني حرية شاسعة في خلق حياة بديلة، وشخصيات غريبة، أو استحضارها من الماضي بطريقتي الخاصة. الكتابة سفر في عالم الخيال، وعادة ما يمنحني الخيال عمرا إضافيا مما يجعلني أحس، بعض الأحيان، كما لو أن عمري يزيد على الألف سنة .

– ما الأسباب التي تجعلك لا تكتب رواية، وما السبب الذي يجعلك تكتبها، انطلاقاً من رأي كتبه ذات مرة خافيير مارياس...

000 كل ما يحيط بنا يدفع إلى توديع مهنة الكتابة، ومغادرة مسرحها العاج بالضجيج، من حروب، ومآس اجتماعية، وزيف عالمي، وتسليع للفكر الجاد والعمق الثقافي، وعدوانية. تُضاف إلى ذلك كله الروح النفعية والتجارية لأسواق النشر، وحسابات النقد والنقاد في التعامل مع المنتج الجديد. لكن في الوقت ذاته، فكل ما سبق يدفع الكاتب أيضاً إلى مواصلة احتجاجه، وتحديه للزمن، وصراخه بوجه البشاعة، وتقزيم البعد الانساني للتطور التكنولوجي، وتجبر المعارف البشرية التي تحتكرها قوى عظمى، وأنظمة كريهة تابعة تسعى لسحق الناس البسطاء. وليس هناك من أداة لرفع القفاز بوجه البشاعة سوى الكتابة، والرواية الجادة، والناجحة، تقوم بهذا الدور لحد كبير. كون الرواية تنشر الغسيل الوسخ للتاريخ الرسمي الملفق، وتنطق بلسان من لا يمتلكون الأداة للتعبير عن آلامهم وأحلامهم. وفي الأزمنة المأزومة لا يبقى سوى الكاتب الجاد، أما الكاتب الملفق فلا يتواءم إلا مع أزمنة الرخاء، لذا يصمت سريعا عند الأزمة، ويتوارى.

– بعض الكتّاب مثل بروست، كان الاستلقاء يجهز مخيلتهم وتركيزهم للكتابة، والبعض الآخر مثل همنغواي وفرجينيا وولف وفيليب روث، يكتبون رواياتهم أثناء وقوفهم في المكتب، بلزاك كان يسرف في

احتساء القهوة، فيكتور هوغو كانت لدية عادة غريبة، وهي الكتابة عارياً... شاكر الأنباري ما عادته الغريبة في الكتابة؟

000 تخطر لي فكرة مفاجئة بعض الأحيان، أفيق في منتصف الليل، لأفتح جهازي، وأمضي إلى صفحة بعينها من الرواية التي أنشغل بها. ثم أضيف تلك الفكرة لتوسيع مشهد، أو صياغة تتمة لحوار، أو لإضافة لغوية في جملة صغيرة، وأحس وكأن أحداث رواية من مئات الصفحات تسبح هناك في رأسي دائماً. ويحدث لي أن أرى لقطة يومية تستثيرها جملة، أو حوار عابر في الشارع، أو وصف لهيئة إنسان ما، فأسارع لتركيبها على فصل من فصول الرواية. بعض الأوقات أستثير خيالي بالخمرة، فأتحول إلى ممر لعبور اللغة والمشاهد والأفكار نحو الشاشة، فيخالطني شعور بأن الكاتب لا يعدو أن يكون ناقلاً لمشاريع وحكايات وقصص تدور هناك في السماء، وهي تستخدم حساسية الكاتب، وثقافته، وقاموسه اللغوي، ورؤيته للوجود، كي تتخلق، وتنمو، وتذاع بين البشر عبر الكتابة، وأسمي العملية كلها الموهبة، وهي بطريقة ما مثل السعادة، على قدر قامة الإنسان، كما يقول الفرنسي أندريه مارلو. ولا أمتلك طقوسا خاصة في الكتابة، وكثيرا ما دفعني الضجر، والفراغ، واليأس الواعي لذاته، إلى الجلوس وراء طاولة الكتابة مع فنجان قهوة، وسيجارة لا غير .

– ما النصائح التي تقدمها في كتابة الرواية، هل الاعتماد على الموهبة أم القراء أو الفكرة أم البوح؟

000 كتابة الرواية جهد شاق، يتطلب من المرء تكريس حياته كاملة لها. ما يسمع، ويقرأ، ويعمل، ويحلم، ويطمح. هو بحاجة إلى دراسة اللغة التي يكتب بها، ومعرفة مجتمعه الذي يعيش فيه، وينبغي عليه النزول إلى الشارع والساحات العامة والمقاهي لمعرفة الناس، وعليه أن يقرأ مئات، بل وآلاف التجارب الروائية، ثم نسيانها، على عادة شعرائنا القدامى. وله إلمام بالتجارب البارزة في الرواية، وقراءة مدارس النقد التي تخص تطور الأساليب والبنى الفنية في الكتابة، وله خبرة بتاريخ لغته وتراثها، وكل ما يوفر له العدة والوسيلة لكتابة رواية. لكنه رغم ذلك لن ينتج عملا مهما بالضرورة، حيث يبقى ثمة شيء ناقص في ذلك، ألا وهي الموهبة، رشة الملح على الطعام. وهذه لا تمنح جزافا، ولا تعطى لأي شخص، كل الأمر يعتمد على بنية الفرد عينه من توازنات روحية، وحساسيات جمالية، ونباهة في التمييز بين العادي

والمهم والأهم، وسعة أفق له صلة بسعة الحياة ذاتها، وقدرة على المجالدة والصبر وشجاعة البوح والإيمان الصلب بالذات، والعري أمام الجميع، أي القراء.

– عندما تنتهي من كتابة رواية، ماذا تفعل؟

000 أعود إلى القراءة، فعبر القراءة أستعيد مخزوني من الكلمات والخيال ولذة الخلق، وعادة ما تكون قراءات منوعة، تسد نقصي الثقافي في التاريخ، وفقه اللغة، والروايات، والفلسفة، وتطور العلوم، الفضائية منها على وجه الخصوص. فالعلوم تسحرني، وتشدني، وأعتبر العلم اليوم هو البديل الحقيقي عن الأديان، خاصة اكتشافات الفيزياء والأحياء والفضاء. وكنت محظوظا لأنني تخصصت بدراسة علمية هي الهندسة، مما هيأ لي قدرة على فهم الأسرار والاكتشافات تلك. ووفرت لي حيزا من الدقة. ما نفتقده في مجتمعاتنا العربية هي الدقة، في الصناعات، في كتابة الجملة، في كشف التلفيق والتضليل، وقد وصلت المجتمعات الحديثة، المتطورة، إلى مستواها الحضاري الحالي بسبب العلوم. والعلوم لا يمكن فهمها، وإتقانها، سوى بامتلاك العقل العلمي الدقيق، فهو يقف على النقيض من الخرافة، وهي السائدة في مجتمعاتنا الشرقية مع الأسف.

– كيف تصف علاقتك برواياتك بعد صدورها، هل تعيد مطالعتها، هل ندمت على كتابة بعضها؟

000 لا أقرأ رواياتي بعد طبعها، بل وأحسها غريبة عني، ويخالطني الخجل بعض الأحيان وأنا أقرأ مقالاً نقدياً عنها، فأمرّ على النقد بسرعة، ولا أعود له ثانية. لكني لا أندم على شيء أنجزته، كوني مقتنعاً بأن نتاجي كان ثمرة لقدرتي الفنية والأسلوبية والجمالية في مرحلة الكتابة. وأنا لا أؤمن بالرواية المتكاملة، فالإنجاز الروائي سيرورة متواصلة، حتى الروائيون العظام لم يبلغوا الذروة فجأة، أو برواية واحدة، ففي كل عمل مشهور، وشائع، هناك ثغرات، وضعف، وعثرات. وفي النهاية ما يحكم على العمل الفني ليس وجوده الآني، بل عبوره للزمن، وتعدد قراءاته، ومثل ذلك ألف ليلة وليلة، ودون كيشوت، وروايات ديستويفسكي وماركيز ونجيب محفوظ وعبد الرحمن منيف، وسواهم من المعلمين.

– أي روايات عالمية تتمنى لو أنت كاتبها، وأي كاتب تتمنى تقمص أسلوبه؟

000 في بداية مسيرتي الروائية كنت أقرأ ما يقع بين يدي من روايات، العالمية والعربية، في نهم متواصل لمعرفة أجواء الروايات وأساليبها، فقرأت لمعظم الأسماء المحترفة في فن الرواية. ووقعت تحت تأثير رواية أميركا اللاتينية، وعلى رأسها ماركيز وأرنستو زاباتو وماريو بارغاس يوسا، من دون أن أغفل القدرة الهائلة للكتّاب الروس في مقاربتهم للواقع وتياراته ومشاغله، فسُحرت بديستويفسكي وتشيخوف وتولستوي، إلا أنه من العسير تقليدهم، فمادتهم الروائية تختلف نوعياً عن المادة التي أعتمدها في رواياتي. نجيب محفوظ كان يلفت انتباهي هو الآخر، لما يمتلك من قدرة مذهلة لتطويع الواقع المصري، واللغة العربية، في بناء رواياته، ولا ننسى أن تطويع اللغة العربية السائدة، لكتابة رواية مهمة، حديثة نسبيا لحداثة الرواية كفن في ثقافتنا. ومن العراقيين فؤاد التكرلي، لأنه يستعيد بيئة بغدادية لم أعشها، وكذلك غائب طعمة فرمان في بعض من رواياته. وقد ساهمت الترجمة، في العقود الأخيرة، بقسط هائل في تقديم آخر التجارب الروائية العالمية، إسبانية وأميركية وإيطالية، ولم تعجبني الروايات اليابانية والصينية لسبب بسيط هو صعوبة تذكر أسماء شخوص الروايات، ذات الايقاع الغريب على أذني، رغم أنني قرأت تجربة هوراكي موراكامي وكواباتا. وفي فترات لاحقة ذهبت إلى القراءة المحترفة، أي قراءة تجربة روائية بشكل كامل، كافكا في كل رواياته على سبيل المثال، كونديرا، بول أوستر، تشيخوف، نايبول، ايزابيل الليندي، فرجينيا وولف، وسواهم. قرأتهم من أجل الوصول إلى أسرار البناء الروائي لديهم، وقد أفادتني بعض الأحيان في معالجة لمفاصل معينة في سرد رواياتي، أي استعارة أداة فنية بعينها لمتابعة السرد. لكنني من كل ذلك كنت أسعى للوصول إلى صوتي الخاص في الرواية، اعتمادا على البيئة المحلية، ونمط التفكير، والأحداث الواقعية التي عشتها، أو سمعت بها، لكي أصل إلى رواية بنكهة عراقية، روايتي أنا. فكرة تقليد أسلوب بعينه لم تعد تغريني، ورحت أفضل خبزي الخاص حتى وإن جاء بنكهة غريبة للقارئ العربي.

– كيف تعيش بين كتبك ومكتبتك، وكيف تصف بدايات علاقتك بالكتب وشرائها أو سرقتها أو إعارتها؟

000 كففت عن أن تكون لي مكتبة بيتية، منذ اقتناء الآيباد والتابليت، فالقراءة الألكترونية صارت توفر لي مكتبات العالم كلها، وعلى الرغم من أنني أسست أكثر من مكتبة خلال حياتي، في العراق وسورية والدنمارك، لكنني في النهاية كنت أتركها ورائي وأمشي. لقد تنقلت بين بلدان عديدة، ولم استقر فترة طويلة في بلد بعينه، كما لو كنت لعبة هشة بين أذرع الظروف القاسية والتحولات الكبرى المفاجئة، والعنف المتصاعد، والغربة الدائمة في عالم تحكمه الفوضى. كنت محكوماً بإحساس عميق بأن وجودي في أي بقعة من العالم هو وجود مؤقت، حتى حينما سكنت في بلدي العراق، ويخفي ذلك الاحساس ربما عمق العبث المتراكم في داخلي، والقناعة الفلسفية القائلة بمحدودية الإنسان، وسرعة زواله. لا احتفظ حتى بنسخ من كتبي ورواياتي، ولا أأسف كثيرا لعدم طباعتها ثانية، وأتمثل بالحكمة المعروفة: قل كلمتك وامض، وأكثر ما استطعت إيصاله في حياتي أنني قلت للزمن هامسا: أنا هنا، وهذا يكفي حسب ما أعتقد.

عامر القيسي

صحافي عراقي

2020 جريدة المدى

منذ خوضه في عالم الرواية السحري برواية "الكلمات الساحرات" 1994 التي صدرت في دمشق محطة المنفى الأولى حتى رواية "أقسى الشهور" التي صدرت عام 2019 في ميلانو بإيطاليا مروراً بتسع روايات أخرى ، صدرت جميعها في المنفى، يتعرض الانباري إلى عالم العنف والتهميش وبشاعات الديكتاتوريات التي طحنت المجتمع العراقي. يغوص الانباري في قاع المجتمع العراقي ، حيث الصعاليك والمهمشين والهاربين من سطوة الرصاص والحروب الى مدن لا يجدون فيها الأمل الذي فقدوه في وطنهم . وحين تحين فرصة العودة لوطن مفترض ماذا يجدون ، يقول الانباري ، كان القتل على الهوية مظهراً من مظاهرها العديدة، وهذا هو السبب الذي دفعني لمغادرة البلد والرجوع إلى المنفى. لم أكن على استعداد بالمشاركة في حفلة الذئاب، فأنا بعيد عن أي اصطفافات طائفية وقومية مثل تلك، فلا أملك سوى الهوية العراقية الشاملة.

- **عدت من منفاك الإجباري إلى الوطن بعد 2003 بعد زوال أسباب النفي، ثم ما لبثت أن عدت إلى المنفى نفسه ، وكتبت عن فترة البقاء رواية " نجمة البتاويين " ما الذي أعادك إلى المنفى، هل ضاق بك هذا العراق ؟ وما قصة رواية " نجمة البتاويين " ؟**

000 معظم المثقفين العراقيين الذين عادوا من منفاهم حملوا في رؤوسهم عراقا آخر ظلوا يحلمون به طوال سنوات المنفى، يتجسد في ديمقراطية بمواصفات معروفة عالمياً، وحكومة مسؤولة ترمم الخراب السابق، وكان في نية الجميع تقديم ما امتلكوا من خبرات حصلوا عليها في سنوات المنفى للمشاركة في ذلك البناء، إلا أن الحلم شيء والواقع شيء آخر، فثمة بلد محتل بمئات آلاف الجنود، وقوى سياسية مذهبية وقومية، وانقسام مجتمعي رهيب، وتمزق في الثقافة الوطنية ذاتها، الأمر الذي قاد بعد بضع سنوات إلى حرب أهلية رهيبة، كان القتل على الهوية مظهراً من مظاهرها العديدة، وهذا هو السبب الذي دفعني لمغادرة البلد والرجوع إلى المنفى. لم أكن على استعداد بالمشاركة في حفلة الذئاب، فأنا بعيد عن اصطفافات طائفية وقومية مثل تلك، فلا أملك سوى الهوية العراقية الشاملة. من هذا الواقع كتبت روايتي نجمة البتاويين وحاولت أن أرصد فيها ما كان يجري في تلك الفترة الملتبسة، فالشخصيات كلها كانت محكومة بعبث ما يجري ورافضة له. وما كان يجري هو اللامعقول حيث رصدته الرواية عبر مكان يقع في

محلة البتاويين الشهيرة وسط بغداد، وتتناول الرواية هواجس مجموعة متعلمة تقيم في تلك الشقة، وتمضي أيامها العبثية في رصد الرعب بشوارع بغداد موزعة بين الكلام، والخمرة، والخوف من المجهول.

- **عندما تكون الرواية " مقاربة شخصية للحظة الوجود " كيف يكون الضجر والفراغ واليأس الواعي لذاته والهروب من العبث اليومي دوافع للجلوس وراء الطاولة كما قلت في حوار سابق ؟**

00 إن ما يجري حولنا، سواء في العراق أو دول الجوار أو حتى في العالم، يدفع إلى اليأس والقلق، فهناك مظالم كثيرة في هذا العالم يدفع الشخص البسيط ثمنها، ويكون وقوداً للحروب والجهل والفقر والوهم والفوضى. والكاتب هو إنسان قبل أن يكون روائياً، ويفترض به أن يتحسس تلك المظالم أكثر من غيره. حساسية الكاتب لما يجري هي التي تجعل من التفاؤل والأمل والسعادة والرتابة عملة غير متداولة، لكن الضمير الحي للكاتب قد يتسامى على فراغه ويأسه فيجسد حلمه ورفضه لفظاظة المحيط بالكتابة، دون التذكير بعبثية الوجود البشري نفسه، فوجوده المحدود قد يدفع به معظم الأحيان إلى السأم اليومي والفراغ، فالموت في النهاية ينتظر الجميع وراء الباب.

- **كتبت جميع رواياتك وأنت في منفاك الإجباري ، لكنها كانت روايات عميقة المساس بتفاصيل الحدث الداخلي العراقي وتحولاته السياسية والاجتماعية والسيكولوجية، هل كانت لديك مصدّات قوية كي لا تترك بيئة المنفى المختلفة تأثيراتها على سردياتك بكل تفاصيلها ؟ هكذا أزعم !**

00 لعل واحدة من سمات المنفيين هي العيش في الماضي، عبر الذاكرة طبعاً، وهي في أحيان كثيرة تحد من تواصله مع بيئة المنفى، هناك منفيون تحولوا إلى مدمنين ومجانين ومعوقين نفسيين ففقدوا القدرة على تمثل الحاضر. الأمر مع الكاتب يختلف كثيراً، فهو يمتلك خزين الذاكرة لكي يستطيع الكتابة، والماضي عادة ما يكون منجزاً وهذا ما يسهل على الروائي خاصة استخدامه في نصه. رغم أنني كتبت عن المنفى في عدد من رواياتي بصيغة من الصيغ، لكنني كرست معظمها لأحداث تدور في العراق، وقد يختلف الأمر معي بعض الشيء عن الكتاب المنفيين الآخرين، كوني عشت ما يقرب عشر سنوات في العراق بعد 2003، مما أتاح لي عيش الواقع الجديد بوعي

غير منفي، مُحتك بالحاضر، وكنت منتمياً إليه وجزءاً منه، وأمتلك قدرة على مقارنته بواقع ثان خبرته يوما هو الآخر. الرواية هي خبرات معاشة وهذه البديهية تنطبق على معظم رواياتي.

- **ألم تقل ذات مرة إنني محكوم بإحساس عميق بأن وجودي في أي بقعة من العالم هو وجود مؤقت، حتى حينما سكنت في بلدي العراق، هذا الإحساس ما الذي فعله بسردياتك ؟**

000 في الحقيقة ما أن يغادر الشخص وطنه حتى يتحول كل وجود إلى وجود مؤقت، وحين يعود المهاجر ذات يوم إلى بلده سيجد أنه تغير بعمق، لا البشر فقط بل الأمكنة أيضاً، والظاهرة تكمن ليس في الوطن فقط بل لدى المهاجر كذلك. فهو قد طاله التغير بعمق، والعينان اللتان ينظر بهما إلى بلده لم تعد هما العينان ذاتهما اللتان غادرتا الوطن. خلال سني المنفى اكتسب ثقافات مغايرة، والتقى بأشخاص ينتمون إلى خلفيات حضارية أخرى، ورأى مشاهد بصرية مختلفة، وكل ذلك ترك بصماته على عقل الشخص وذائقته وحساسيته تجاه الحياة. أما من الناحية الوجودية فما أن ينضج الفرد في الحياة حتى يكتشف أنه محكوم مثل غيره بقانون الفناء الأبدي، وأن وجوده مؤقت على هذه الأرض، من هنا يوقن بأن كل شيء زائل وقبض ريح، وتلك حكمة البشرية من بلوغها مرحلة الوعي قبل آلاف السنين.

- **هل فسح لك عالم المنفى مساحات من الحرية للتوغل بعيداً في أفكارك التي أدنت فيها العنف والديكتاتورية والتهميش وانسحاق المواطن ، وبمعنى آخر هل كنت ستكتب نفس ماكتبته لو لم تغادر العراق؟**

00 بالتأكيد لا، لو لم أغادر العراق لما امتلكت حرية الكشف والإدانة والنقد، بل لما امتلكت حتى حياتي، ولكنت قضيت في واحدة من الحروب التي مرت على العراق وحصدت أرواح الملايين لهذا السبب أو ذاك. وفر لي المنفى حرية واسعة في النشر والنقد وإدانة الديكتاتوريات وبشاعة الحاضر، وأزعم أنني لم أكتب شيئا خارج قناعاتي سواء في

رواياتي وقصصي أو في مقالاتي، وهذا ما لا يتاح في بلدان الشرق البائسة المحكومة بالقمع، والتقاليد الاجتماعية، والموروث الديني، والروح القطيعية.

- **من هذه المنطلقات، هل هناك سمات محددة لروايات المنفى، هل تشكّل نوعاً من الروايات تختلف عن التي كتبت وتكتب من داخل البلاد ؟**

000 روايات الكتّاب المنفيين تحاول أن تعيد صياغة الماضي برؤية حرة، مع النجاح النسبي لبعضها، وتضع كل تفاصيله تحت المجهر، خاصة الأحداث السياسية منها، السجون، الحروب، تجارب الأنصار في الجبال، البيئات الجديدة للعراقيين في منافيهم، وتقدم تاريخاً مغايراً للتاريخ الرسمي المصاغ عبر عقود من الديكتاتورية وحكم الحزب الواحد، أي أنها تستجلب ما تم التكتم عليه وتغييبه من عذابات الشعب في حقبة القمع والسجن والهروب من السياج الحديدي الذي استمر أكثر من ثلاثة عقود. روايات ممهورة بالحنين لشخصيات قلقة، ممزقة، فقدت بوصلتها ولم تعد تمتلك أفقاً واضحاً، وبلورت مزاجاً غاضباً حاداً مباشراً بعض الأحيان في تناول المآسي المتلاحقة. وكما قلت وفّر المنفى للروائي حرية غير محدودة، والقدرة على استعادة الماضي دون كوابح، ووسع من أفقه المعرفي نتيجة احتكاكه بلغات وحضارات وبشر لهم رؤيتهم للحياة وكيفية مقاربتها، بقول آخر استطاع المنفى بلورة شخصية واضحة للكاتب، وكلها من ضرورات انتماء تلك الروايات إلى النسغ الثقافي العراقي العام.

- **ماتأثير دراستك للهندسة على نصك الروائي ، كبناء ولغة ودقة واكتشاف وكشف للتضليل والتلفيق ، بمعنى هل تعتمد على بناء هندسي للسرد أم تترك لجموح الخيال والتخيل أن يأخذ مساحته الكاملة؟ هل هناك تكامل أم تناقض بين نوعية السرديتين؟**

000 عادة ما أضع مخططاً عاماً للرواية، يتغير المخطط كلما واصلت الكتابة فإنجاز رواية ما يمر بمراحل عدة، يأتي في مقدمتها المخطط العام، ثم تفاصيل لاحقة تتوالد من تعاقب الفصول وتبلور الشخصيات حتى أصل النهاية، لتكتمل لدي الكتابة الأولى. وعلى ضوء النسخة الأولى أعيد المخطط بصورته الجديدة، ثم أتابع قراءته وأكتشف الثغرات والأماكن التي تتطلب إضافات أو سد ثغرات، توسيع مشهد أو اختصاره، تعميق شخصية ما أو تشذيبها، حتى أكمل الكتابة الثانية. بعد ذلك تأتي مرحلة الإنهاء، أي تأهيل النص للنسخة النهائية. كل ما سبق يعتمد على رؤية هندسية تعتني بالتناسب،

والتناظر، ومراكز الثقل في النص، والروابط الداخلية، والمسار العام للأحداث. وهذا يتطلب رؤية هندسية للنص، والهندسة كما هو معروف لا تقبل الاستفاضات والزوائد والترهلات خاصة في تناسب الجملة مع الفكرة، أو البناء الداخلي للجمل وحواملها الفكرية والجمالية. الهندسة نافعة حين تصل إلى تشذيب شطحات الخيال وانفلاته عن المنطق، حتى الخيال يحتاج إلى أن يكون مقنعاً في النهاية.

- **كتب عنك أحد النقاد، يعد الأنباري من الكتاب الذين غامروا في تجارب مختلفة في الكتابة، في "كتاب ياسمين"، و"أنا ونامق سبنسر" و"مسامرات جسر بزبير"، ما شكل ونوع المغامرة التي خضتها في هذه الأعمال..هل انتجت سرداً مغايراً لإعمالك السابقة ؟**

00 الكاتب لا يمكنه تقييم نتاجه بدقة، فالقارئ هو الحكم في النهاية، والزمن عادة ما يكون الناقد الوحيد في آخر المطاف، فهناك روايات ظلت حية بعد قرون وعبرت حدود اللغات والثقافات، والهاجس الذي يراودني دائماً في كل عمل جديد هو البحث عن صيغة مبتكرة في تقديم الأحداث، والشخصيات، أتجاوز فيها رواياتي السابقة، وهذا ما له علاقة بتنامي الخبرة، وسعة الاطلاع على تجارب عالمية وعربية وعراقية، ونضج التجربة الحياتية، لذلك أستطيع أن أصف نفسي بأنني كاتب تجريبي، أحاول الوصول إلى نص روائي مثقل بالتجربة، والمعرفة، ويتسم برؤية تأملية للأحداث. طبعاً ليس بمقدوري الحكم على مدى نجاحي في تصوراتي هذه، فالنص السردي ملك للقارئ في النهاية.

- في روايتك " بلاد سعيدة "رصدت متغيرات ما بعد 2003، واعتبرت ما رافق هذا التغيير في البنية السياسية والاجتماعية والنفسية العراقية عتبة لعالم جديد سيعيشه البلد مستقبلاً..الحاضر الآن هو المستقبل الذي تحدثت به؟ هل كانت رؤية تنبؤية للواقع الحالي أم تشوشاً في رؤية شكل " المستقبل"؟

000 واقع ما بعد سقوط النظام واقع صادم، أسفرت الأحداث عن الخلل الهائل في المجتمع بعد رحلة طويلة من تزوير الواقع، وكبت الحقيقة، والجهل، مارسها أعتى نظام دموي عرفته البشرية، لكن ما استجد بعد تلك المرحلة كان مفارقاً ومختلفاً عن أحلامنا في عراق جديد، واكتشفنا أننا كنا نعيش في وهم كبير، وهم الغريق الذي يشبث بأي قشة تنجيه من الغرق، وذلك الحاضر الذي كتبت عنه رواية بلاد

سعيدة كان مرعباً، وفائراً، وملتبساً، وقاسياً. ولا يمكن لواقع له مواصفات مثل تلك أن ينتج مستقبلاً مزدهراً، وهذا ما نشاهده اليوم من الحصيلة المرّة وتمثلت بانهيار شامل للبلد، ومواجهات دموية هي في الحقيقة مواجهات مع أوهامنا الماضية. رواية بلاد سعيدة حاولت أن تلخص اقتلاع ذاكرة الفرد العراقي كي يتخلى عن هويته الوطنية وينحشر في معارك جانبية تخص الدين والمذهب والحلال والحرام، كي يفقد البوصلة نحو غد مشرق آمن.

أحمد الجمّال

صحافي مصري

2020 جريدة الجريدة الكويتية

تنقّل الأديب العراقي شاكر الأنباري بين العديد من عواصم العالم، إلى أن استقرت به الحال في العاصمة الدنماركية كوبنهاغن، مما منح قلمه مساحة من الحرية في السرد على مستوى القصة أو الرواية، لكن الحنين إلى الماضي، حيث البلد الأم وسنوات الطفولة، ترك بصمته في العديد من أعماله الروائية. وفي حوار أجرته معه "الجريدة" من القاهرة، قال صاحب "بلاد سعيدة" و"نجمة البتاويين" و"مسامرات جسر بزيبز"، إنه كرّس نفسه للرواية، لأن القصة لم تعد تستوعب رؤيته للحياة، لافتاً إلى أن القراءة المتنوعة تجنب الكاتب تكرار نفسه، لكنه يضع كل ما قرأه وراء ظهره حين يعيش مشروعاً روائياً جديداً... وفيما يلي نص الحوار:

- **كل بداية تترك أثراً عميقاً، فماذا عن سنوات حياتك الأولى، وكيف انعكس أثرها على رؤاك وأفكارك ككاتب لاحقاً؟**

000 وُلدت وترعرعت في قرية تقع على ضفاف نهر الفرات، تبعد عن المدينة عشرات الكيلومترات. هذا الواقع جعلني في تماسّ مباشر مع الأشجار والنباتات والسمك والطيور. كنت أعرف اسم كل نبتة في محيطي وصوت كل طائر يعبر الأفق، وتقضي القرية لياليها في رواية الحكايات والأساطير ونوادر ما يجري بين الفلاحين. من هنا نشأ لديّ حُب القصص والروايات، وأنا من الجيل الثاني المتعلم في العائلة، وبسبب جفاف الأيام، وتكرارها الثقيل، اتجهت إلى الكتاب، والقصص خاصة، فهي تنقلني إلى عالم آخر خصب الخيال، ممتلئ بالمدن الضاجّة بالمغامرات والنساء والأحداث، وأسهم كل ذلك في توجهي نحو الكتابة.

- **تترك الغربة بصمة، ولو كانت خافية، في نصوص الأديب المهاجر، كيف تأثرت أعمالك بحياتك في الدنمارك والبلدان التي عشت فيها؟**

000 نصوص الكتّاب الذين عاشوا في الغربة، سواء كانت قصصاً أو روايات أو شعراً، عادة ما تحكمها روح الحنين إلى الطفولة والبلد الأم، صحيح أنها تستفيد من الحرية الممنوحة في البلدان الأوروبية والتفرغ للعمل الأدبي، إلا أن آثار الماضي، وثقل الذاكرة، وذلك الحنين الشجي، تبقى بارزة في طريقة كتابته مثل الاهتمام بالتفاصيل، والالتفات إلى الخلف، وتصفية الحساب مع المكان الأول الذي دفع

به نحو الاغتراب. يظل المرء يفتقد شيئا ما، ويصيبه خلل ما في روحه، وقد يصبح ذلك دافعاً قوياً لتأسيس وطن من كلمات، وقصص، ورؤى تسامر عمره الممتد.

- **ما الذي يستفز قلمك لتكتب عنه وتناقشه في عمل روائي؟**

000 انشغلت معظم قصصي ورواياتي بأوضاع العراق والشرق عموماً، خاصة أنني عدتُ في عام 2003 إلى العراق، وبعد غربة امتدت أكثر من 20 سنة، وعشت التحولات الرهيبة في الواقع الاجتماعي، وتواصلت ثانية مع روح المكان والأحداث غير المعقولة التي كانت تجري. كتبت عدداً من الروايات تستلهم تلك التحولات مثل: بلاد سعيدة، ونجمة البتاويين، وأنا ونامق سبنسر، ومسامرات جسر بزيبز، وأقسى الشهور. كلها تدور جزئياً أو كلياً في البيئة العراقية، وجاءت جميعها ناضحة بالمرارة والخراب والتمزق العميق للبشر. كتابة الرواية بالنسبة إليّ هي تقديم شهادة إبداعية على ما عشته في فترة زمنية كُتب لي أن أسبح في أحداثها السياسية والاجتماعية، مع وضع الخيال كرافعة لكل ذلك.

- **برأيك، الروائي الجيد يقرأ أم يكتب أكثر؟!**

000 تجربتي الشخصية تنصحني دائماً بالقراءة، إن أراد الكاتب ألا يكرر نفسه وأساليبه وأفكاره، فعليه بالقراءة المتنوعة. وأنا أمتلك اهتمامات غير الأدب، كاهتمامي بالتاريخ والفلسفة وعلوم الفضاء والسينما، وأحب مشاهدة اللوحات التشكيلية وقراءة السِير الشخصية، مما نوّع مفرداتي الكتابية وأسهم في اتساع خيالي ورؤيتي للحياة وقاموسي اللغوي، ولي لغتان عدا العربية أقرأ بهما أحياناً، هما الإنكليزية والدنماركية، لكن معظم قراءاتي الجادة باللغة العربية، قديمها وحديثها، ويمكن رصد عمق الكاتب وثقافته وسعة أفقه من خلال نصه، فالمعرفة والاتساع والعمق لا تخفي نفسها.

- **من "ثمار البلوط" إلى "أقسى الشهور"، كيف يمكن أن تصف لنا تطور ملامح مشروعك الروائي في محطات؟**

000 لديّ سمة بارزة في مسيرتي الإبداعية هي التجريب، سواء في القصة أو الرواية، محكومة بقناعتي الصلدة، وهي أنني أكتب عمّا لم يعشه أو يختبره أحد سواي، وربما هذا ما يمنح نصوصي تجريبيتها، وأطمح دائماً إلى كتابة تمثّلني أنا فقط، حتى لو جاءت غريبة عن المواصفات المتعارف عليها

في كتابة القصة والرواية. صحيح أنني اطلعت، إلى حد ما، على أنماط الكتابة الإبداعية، وقرأت النقد حول ذلك، لكنني أضع كل ما قرأته وراء ظهري حين أعيش مشروعاً روائياً جديداً.

- **أيهما تنشغل به أكثر: اللغة أم تقنية الكتابة؟**

000 عندما أشتغل على مشروع روائي استنفر كل ما أمتلك من طاقة، سواء كانت لغوية أو فنية، فربما تعمل كلمة واحدة على نحت مسار جديد في التقنية، وقد يفضي مشهد ما إلى الكتابة بلغة أعمق، لغة تشريحية أو وصفية أو فلسفية، فأنا لا أفصل اللغة على التقنية، ولا المضمون على الأسلوب، فالنص الناجح هو ما يتوّحد فيه كل ما سبق، اللغة، والتجربة، والثقافة، والرؤية الفلسفية، والموهبة، والأخيرة تأتي وشاحاً يخرج النص كي يكون فنياً ينتمي إلى هذا النمط من الكتابة.

- **إنتاجك الإبداعي يتركز في الرواية أكثر من القصة القصيرة، ما الذي تحققه لك الرواية ولا تقدر على استيعابه القصة؟**

000 أصدرت خمس مجموعات قصصية، ثم كرست نفسي للرواية تماماً، بعد أن وجدت أن القصة لم تعد تستوعب رؤيتي للحياة، وأصبحت ضيقة على تجربتي الحياتية المتشعبة التي مرت بانتقالات مكانية عديدة. عشت في سورية والدنمارك ولبنان وإنكلترا والبرازيل والعراق، ورسيت أخيراً في كوبنهاغن، وكل هذه التنقلات المكانية صاحبها نضوج في الثقافة، والحساسية الجمالية، والاحتكاك مع مجتمعات تختلف في اللغة والثقافة. ووجدت أن الرواية وحدها تستوعب تلك التحولات بأساليبها في التذكر والاسترجاع والاختلاف في الرؤى بين الشخصيات، وثقل التاريخ المضغوط في حياة واحدة. والرواية تلهم الكاتب حرية واسعة في التناول، وتقليب الأفكار، والحكمة المستمدة من الأيام. قوانين القصة تغاير قوانين الرواية، ومن كتب النوعين يدرك ذلك.

- **قلت من قبل إنك لا تهتم بالجوائز ولا تفكر فيها، أليست الجائزة تقديراً معنوياً ومادياً، وكلاهما مهم للأديب؟**

000 حين أكتب عملاً روائياً لا أضع في ذهني أية جائزة أو مكافأة، بمعنى أنني لا أكتب حسب متطلبات وشروط الجوائز والبيئة المحيطة بها، وعادة ما يهمني إنجاز العمل بالشروط الفنية التي أقتنع

بها فقط، أما نجاح العمل فيحكم عليه الزمن لا لجان الجوائز، والزمن ممتد في المستقبل البعيد ولا يخضع لشروط الحاضر. لكنني لست ضد الجوائز فهي تحفز الأجيال الشابة على نيل الشهرة والمال، وهذا ليس بالأمر السيئ.

- **أخيراً، ما جديد مشروعاتك الأدبية؟**

000 أنجزت رواية تتناول حياة المغتربين في دولة اسكندنافية، كيف هربوا من بلدانهم وكيف اندمجوا في حياتهم الجديدة "البيئة الأوروبية"، وكيف انتهى بهم المطاف إلى مقبرة، أرواحاً تهيم فوق الشجر والبنايات والطرق. يقضون لياليهم في رواية الحكايات عن سنواتهم الماضية قبل أن يموتوا في تربة البلد الباردة، واستغرق زمن الرواية نحو ثلاثة عقود.

الصحافي والفنان أمير الخطيب

جريدة المستقل العراقية 2021

00 في منتصف تسعينيات القرن الماضي حضرت أمسية في البيت العراقي في كوبنهاجن، وفيها قدمت القاص والروائي جنان جاسم حلاوي، وأتذكر عبارة اتفقتما عليها وهي أن الرواية هي ذاكرة المكان والزمان، إذا كانت الرواية ذاكرة فأين يكمن المتخيل، وَكيف لنا كقراء أن نميزه عن المعاش؟

يكمن المتخيل في صياغة الأحداث الواردة في أية رواية، ويتمثل بالربط الفني بين مشاهد، وأفكار، وأمكنة، وشخصيات تلعب دورها ضمن حيز مكاني وزماني، لتنتج رؤية معينة عن الحياة، أو جانبا منها على الأقل. فكل رواية هي رؤية متفردة للكاتب، وهي رسالته الخاصة كشاهد لزمنه ذاته. ونحن نعرف أن أية رواية ناجحة لا بد لها من إعادة خلق لفترة زمنية معروفة، بأجوائها وفضائها الفكري والسلوكي في مكان ما من هذا العالم. يستطيع القارئ تمييز الخيال في الرواية بنمط الحبكة، ورسالة النص، وعمق السرد وسلاسته في الآن نفسه. وخيال الكاتب غير المحدود هو ما يصبغ الرواية ببصمة خاصة، وهوية فارقة. الواقع هو الوقود في النص، والخيال هو المحرك الذي يطير بالقارئ نحو أفق آخر يستشرف عبره معنى الحكاية. كل رواية هي سيرة لبشر من لحم ودم عاشوا ذات يوم، وتكمن البراعة في التقاط المشترك الإنساني على هذه الأرض.

00 بصفتك روائيا واقعيا، ما هي أهم ميزات الرواية الواقعية؟

لا أعرف إن كنت روائيا واقعيا إم لا، فأنا أنظر إلى الكتابة الروائية بطريقة أخرى. هناك رواية مقنعة، عميقة، تستولي على وعي القارئ، دون معرفة السبب، وهل يكمن الأمر بالأحداث أم التسلسل والوصف الجميل والحوار والغرابة؟ أم بأسلوب صياغة النص، أم بالموهبة غير المدركة المنتمية إلى الكاتب ذاته وروحه وتوازناته الداخلية كفرد، ونمط علاقته مع زمنه؟ والرواية الناجحة تقفز في كثير من الأحيان خارج التصنيفات، وإلا أين نضع روايات نجيب محفوظ الشهيرة مثل أولاد حارتنا، وروايات دوستويفسكي، وأعمال كافكا وهمنغواي وعبد الرحمن منيف وغيرهم. وأهم روايات تولستوي ومنها الحرب والسلام لا يمكن تصنيفها إن كانت ملحمية أم واقعية أم تاريخ أم سياسة. كما لا يمكن تصنيف عمل مهم ولا يتكرر مثل مدن الملح لعبد الرحمن منيف ويروي فيها نشوء مدن وتحولاتها خلال ما يقرب القرن، هل

هو حكايات مجتمعة على الورق أم فولكلور وأمثال وحكم وتعاقب شخصيات على مسرح التاريخ غير المدوّن. أنا أكتب فقط، مزاوجا بين التجربة والثقافة الخاصة، وأسعى للوصول إلى رواية تمثلني وتعجب القارئ، أما التصنيف فيأتي من القارئ والناقد لاحقا .

00 أعرفك منذ ثمانينات القرن الماضي وأنت منشغل في الكتابة، وأعتقد أنك كاتب مقل مقارنة بالفترة الطويلة المكرسة للأدب، هل تتفق معي؟

بالعكس أعتبر نفسي نشطا في مجال النشر، لأنني أنتجت لحد الآن إحدى عشرة رواية مطبوعة، ومخطوطة رواية جاهزة، وخمس مجموعات قصص، وترجمت قصصا عن الانكليزية، ولي ثلاث كتب مقالات وكتاب في السيرة. وكنت محظوظا كوني أنجزت خلال ظروفي الصعبة المتمثلة بالاغتراب عن البلد، والترحال من مكان إلى آخر، وفوضى العالم المعاصر واهتزازاته المثيرة، هذا الكم من الكتب. وما زلت نشطا في الكتابة الصحافية حتى هذه اللحظة. كل ما أنجزته جاء نتيجة لمتعتي في العمل الابداعي وليس مفروضا من جهة أو نتيجة ظروف طارئة. وأعتبر الكتابة مهنة، لا بد أن يكرس لها الشخص كل وقته، وقراءاته، وتفاصيل يومياته، وخياله اللحظي. وهي مهنة ممتعة رغم أنها متعبة، ولعل ذروة تلك المتعة هي الخلق، حين يصبح الكاتب خالقا لأفكار، وحكايات، وشخصيات، من العدم، ستظل خالدة حتى نهاية الأرض.

00 لديك تجربة غنية في الصحافة العراقية، ماذا أخذت منك وماذا أضافت لك هذه التجربة؟

يمكن القول إن اللغة هي مشترك أساسي بين الرواية والصحافة، رغم أن آليات اشتغال لغة الرواية لها متطلبات خاصة تتعلق بالفن الروائي وما يفرضه على الكاتب من إتقان مستويات الوصف والحوار والتحليل، الإيحاء والتنبؤ، ثم الاستقراء لشخصيات تصنع الحدث وتتباين فيما بينها بالعمق، والسلوك، والدوافع الباطنية. ممارسة الصحافة، إذا ما أتيحت، ضرورية لأي كاتب، كونها تضفي شيئا من السلاسة على اللغة الروائية، وتقرب من هموم الشارع ومعاناة شرائحه المهمشة، وتدفع بالانتماء إلى الحاضر بدلا من العيش بين الورق. مارست الصحافة عملا وكتابة ما يقرب عشر سنوات داخل العراق بعد 2003 وهي تجربة جعلتني بتماس مباشر مع ما يحدث في المجتمع. استفدت منها كثيرا في مجال

الرواية. لكن رغم كل ذلك، فالإبداع الروائي يفرض على الكاتب وعيا آخر، يستند إلى التنوع الثقافي، والخبرة الحياتية والإدراك لفن الرواية. ودخول صحفيين إلى عالم الرواية يعود إلى شيوع ظاهرة استسهال الكتابة الروائية، وانفتاح مجال النشر حيث تنعدم الرقابة الفنية، والنقدية، على ما يصدر، فصار كل من يمتلك نقودا يمكنه إصدار رواية، تتكئ غالبا على تجربة شخصية شاحبة، مع خفوت صوت النقد الحقيقي، وشيوع ظاهرة المجاملة للمنتج وكاتبه. بالمحصلة فالرواية تخصص رفيع، وتكريس كتابي يلتهم عمر الفرد كله، فلا يكفي امتلاك اللغة الصحافية لإنتاج رواية ناجحة، كما يتوهم البعض .

00هناك روائيون كثر من جيل الشباب، من من الجيل الجديد من الروائيين العراقيين على الطريق الصحيح؟

النشر المدفوع أشاع سهولة إصدار الروايات في العراق. بعض الاصدارات لم يتم الاعتناء بها لغويا وتحريريا من قبل الناشرين، لأن المهم لدى هؤلاء هو النقود، لذلك قد نجد مصححا في الدار لكن لا نجد محررا للنص، رغم ذلك هناك روائيون شباب واعدون، نشروا روايات مهمة فنيا، كرسوا للمحلية العراقية مساحة كانت بحاجة لها. وتكمن أهميتهم في قربهم من الحدث الذي يكتبون عنه، وانفتاحهم على التجارب العالمية والعربية بعد أن أتاحت السوشيلميديا والإنترنيت الوصول إلى الروايات المنشورة إلكترونيا على الغوغل. وقد قدمت هذه الخدمة فرصا هائلة للقراءة بكل حقول المعرفة، كما فتحت بابا شاسعا لوصول نص الكاتب إلى أوسع شريحة تقرأ العربية. هنا يمكن القول بوجود ظاهرة شائعة في الروايات العراقية الشبابية يشكل عام، وهي استعارة أشكال روائية من بيئة أخرى. ونحن نعرف أن الأحداث المحلية هي التي تخلق أشكالها وأساليبها في نسج الرواية، وهذا المنزلق يمكن ملاحظته حتى في الروايات العربية الحديثة. إضافة إلى الإنشائية في صياغة الحدث، وهو إرث يعود إلى البلاغة العربية، صبغ معظم كتب التراث من سيرة وشعر وحكايات ومقامات، خاصة في عهود الانحطاط الحضاري. كيف تكون جملتك محددة، على قدر الفكرة ذاتها، وكيف تلتقط الروح العراقية بصدق، هذا هو السؤال .

00 كيف تنظر إلى الاختلافات السردية بين أبناء جيلكم وأبناء الجيل الحالي؟

الجيل الجديد من الروائيين يواجهون مادة مختلفة تماما، فهم إزاء انفجار مجتمعي هائل، تتصارع فيه الحداثة مع التكلّس، الهويات الفرعية مع الهوية الوطنية، التجارب الفردية مع الأفق الاجتماعي، كالهجرات والحروب الأهلية والاحتلال والقمع المجتمعي والتطرف الديني والاحتكاك الحضاري للمهاجرين مع بيئات ثانية مختلفة، ووجود الفرد المهمل وسط عالم يصطرع ويتقاتل ويتطور بقفزات ضوئية، الانغلاق والانفتاح. كل تلك المواضيع يعيشها الكاتب الشاب وعليه فهمها واستخلاص الرسالة النصية منها. يعيش الكاتب المحلي ذلك الصراع بشكل لحظي وبشكل عنيف غير مسبوق، عدا الفسحة الضيقة التي ينبغي على الكاتب الشاب التكيف مع استحقاقاتها وضروراتها، أي مصدر العيش وهموم الأسرة. الأجيال السابقة من الروائيين عاشت وكتبت في ظروف أقل فظاظة، ولها سمة الاستقرار بعض الشيء، لذلك جاءت نصوصهم مستقرة، تقليدية في بنائها، رسالتها نبوئية بعض الشيء وملتزمة ومصطبغة بالأحلام، عكس ما هو موجود اليوم. إذ نقع على السوداوية والشيزوفرينيا على صعيد الفرد والقتل والدمار الروحي والمادي، وعلى صعيد المجتمع. وأفضل ما مثل هذا الواقع رواية أحمد سعداوي فرانكشتاين في بغداد. وهي رواية تتطابق مع الجحيم حيث يعيش الانسان وسط مشرحة بشرية بكل ما تعنيه المشرحة من واقع ملموس.

أشرف الحساني

صحافي مغربي

شبكة الجزيرة 2021/10/2

للكاتب العراقي شاكر الأنباري مكانة هامة داخل الأدب العراقي المعاصر، لكونه من الأدباء العراقيين الذين راكموا متنا متعددا بين القصة والرواية والترجمة والكتابة المفتوحة ذات البعد السردي واليومي.

وفعل الكتابة الأدبية لدى الأنباري "لا يستقيم إلا بتصحيح تخلفنا التاريخي" وهو مفهوم قائم بالأساس على نظرة تاريخانية إلى الواقع بوصفه مختبرا لتعاقب الأحداث. وهذا الأمر ينعكس بشكل نوعي على كتاباته الأدبية المعنية أكثر بوصف الأحداث والشخوص والأماكن.

لكن في كتابه "مثل برقٍ خبا" يطالعنا الأنباري بصيغة أخرى من الكتابة، حيث نجدها مفتوحة على التجريب وعلى تكسير حدة السرد وخطية الحكي من خلال علاقته بالهجرة والترحال والمنفى والألم والكتب والمدن والشخصيات التي رافقت مساره الأدبي طيلة 40 سنة من الكتابة. ففي هذا الكتاب السيري يبلور الأنباري كتابة مغايرة لمؤلفاته الأخرى، فهو يروم هنا التوثيق والتأريخ لمحطات هامة من حياته الشخصية. كما يبرز مكانة الكاتب المنفي في تغيير أنماط الكتابة الأدبية العربية وتكسير جميع الحدود التاريخية والثقافية والجمالية التي تعيق تقدم مفهوم الكتابة داخل العالم العربي. وترتكز كتابة الأنباري على مفهوم الشغف، فكتاباته لا تنصاع إلى الجانب الأدبي الإعلامي، بل يجعلها تتجذر أكثر في ذاته ومنه تتفجر الرؤى والأفكار والأحلام أدبيا. عن مشروعه الثقافي في الأدب والترجمة، التقت الجزيرة نت الكاتب العراقي، وكان هذا الحوار:

1. هل تعتقد أن الكتابة الأدبية اليوم قادرة على تخليص الكائن من شقائه وحزنه وألمه داخل أوطاننا المنكوبة؟

– شعوبنا تدفع ثمن تخلفها التاريخي، والتخلف التاريخي لا ينفع معه الأدب لتجاوزه كونه نتيجة لانحدار حضاري طويل في الفكر، والتقاليد، والمعتقدات، والرؤية إلى الحياة. منطق العالم اليوم منطق علمي، والمنطق العلمي يتطلب الدراسة، والتثقيف، والتعليم، والاكتشاف، والتجريب. نحن نمتلك عقلية قدرية تتنافى مع منطق الحضارة المعاصرة، لكن الأدب عموما يفتح كوى في العقل الخرافي، ويصل الفرد بالخيال والمنجز القادم لنا من بعيد، وهو على العموم متحرر من الغيبيات والخرافات. ويمكن للثقافة أن تخلق تواصلا حضاريا مع الشعوب المتقدمة، وهو ما نحن بحاجة إليه، فالأدب يوسّع التجربة، ويشحذ

خيال الحلم نحو مستقبل أفضل. ليست هناك ثورة على واقع بائس دون ثقافة وتعليم وتمرد وأفق حر، ودون التحديق في واقع البؤس والبشاعة. ويعتبر الفن، والثقافة، والعمل الفكري العميق، وسائل لمعرفة الذات، ومعرفة حجم بلداننا، وتاريخنا، ومصادر قوتنا في تلمس موضع ثابت لنا في هذا العالم.

2. ككاتب عراقي عاش لسنوات مآسي الحرب والدمار والتهميش. ما الصورة التي ترسمها ثقافيا للعراق؟ وإلى أي حد استطاعت مظاهر الحرب رسم ملامح أفق ثقافي جديد قادر على التأثير في خصوصيات المنجز الأدبي العربي؟

-العراق يعيش في فترة مخاض عسير لاسترداد شخصيته الحضارية وخصوصيته، بعد أربعة عقود من حروب دمرت البنية التحتية، وأتلفت الروح الفردية الأصيلة والذكية والحالمة. لقد وجد الشعب نفسه فجأة في عالم متطور، ومتغير بسرعة، وبدأت الثقافة تعي ذلك وتبحث لها عن مسار يعيد الشخصية العراقية كشخصية مبدعة، متسائلة، لا تستكين إلى الظلم والرؤية المتكلسة للواقع. يكفي للثقافة العراقية ريادة وإبداعا على الصعيد العربي أنها استطاعت تكثيف، ورصد، ومعالجة ما عاشه البلد من تهميش، وانغلاق، ومآس يومية، واستخلاص الدرس والحكمة منها لكي تقدم مقاربات جديدة. هناك الصراع بين العلمانية والتدين، الصراع بين الهويات الفرعية، العلاقة مع الحداثة، الهوية الوطنية، رسم ملامح واضحة للدولة، الهجرات، القمع المجتمعي، التطرف الخارج من كل عقلانية ومنطق، وغير ذلك الكثير مما يشترك فيه العراق مع محيطه العربي. والثقافة العراقية بكل تخصصاتها تسعى لمقاربة كل تلك المعضلات، إبداعا، ونقدا، وفنا.

3- صدر لك ترجمة كتاب "المريخ جنة" للكاتب الأميركي ري برادبري. أولا ما الذي تقوله لنا عن هذا الكتاب؟ وما الدافع إلى ترجمة كتاب يصنف أدبيا ضمن الخيال العلمي؟

-قبل سنوات بعيدة، كنت أتجول في إحدى مكتبات كوبنهاغن، متطلعا إلى عناوين الكتب الجديدة الصادرة عن دور النشر الدانماركية والأوربية، فوقع بصري على الأعمال الكاملة للكاتب الأميركي (ري برادبري)، مطبوعة في دار بنغوين. وكان هذا الاسم راسخا في ذاكرتي، لم أكن قرأت لهذا الكاتب الذي يعتبر من مبدعي الخيال العلمي، وبعض رواياته حولت إلى أفلام سينمائية، فاقتنيت الكتاب وقرأته. يمتلك

ري برادبري خيالاً هائلاً، وذاكرة فذة، يستعيد عبرهما شريط حياته منذ الطفولة، ثم يستل من ذلك الشريط أفكار قصصه ورواياته غير المألوفة، فهي تستقرئ الجوانب الخفية من العابر واليومي، وتنفذ إلى أغوار الذهن بما تحتشد به من أساطير ومخاوف وأوهام، تتحكم في حياة البشر العادية في غفلة عنهم ودون تفسير أحياناً. كما يرتفع برادبري بخياله إلى السماء، فينحت قصصاً تدور في الأغوار البعيدة للكون، مع تفهم لمصطلحات الفضاء والآلات العلمية ودراسات المجرات التي وصل إليها تطور العلوم الحديثة. ومن الضرورة أن يطلع القارئ العربي على هكذا نمط من السرد لأنه جديد على ساحتنا الثقافية، ومرتبط بالتطور التكنولوجي لعلوم الفضاء الذي ازدهر في أميركا مع قدرة العقل البشري للوصول إلى القمر، ومن ثم اختراق الفضاء في مجموعتنا الشمسية.

4- هل تعتقد أن القارئ العربي مستعد إلى تلقي عوالم أدب الخيال العلمي، علما أننا لم نحقق بعد شروط الحداثة الثقافية، ما يجعل هذا اللون الأدبي يعيش ضربا من التهميش؟

-من يكتب في الخيال العلمي عليه أن يلم بتفاصيل المكوكات الفضائية والكواكب والتقنيات الذرية والفيزياء الكونية. وهي بيئة نفتقدها في ظلال تخلفنا الحضاري. فالحدث في قصص وروايات الخيال العلمي هو ما يحرك اللغة، واللغة تصف الحدث فقط ولا تستطيل في شرحه وتسويغه ورسم دلالاته النفسية أو الروحية. لذلك يمكن القول إن الروايات العربية والقصص التي تقترب من هذا النمط لا يمكن تسميتها بأدب خيال علمي، كونها تمتلئ أحيانا بالتحليل والسرد الانشائي وبلاغة اللغة العربية، وتفتقر لما يمكن تسميته بـ(المعرفة)، أي أنها أدب لمجتمع غير تكنولوجي. الروح العلمية هاربة، وثمة وفرة للخرافة واللا يقينية واللاتحديد. ومع وجود قارئ معتاد على البلاغة والاسهاب والقدرية والثقافة القطيعية، يصعب ابتكار لغة علمية في الكتابة، كما يصعب ابتكار جو فضائي خاصة في مجتمع مغلق كالمجتمع الشرقي عموما .

5. ليست المرة الأولى التي تترجم أعمال ري برادبري إلى العربية، مع أن القليل من القراء يعرفونه داخل العالم العربي. ما السمات الفنية والملامح الجمالية التي تميز هذا الأديب عن باقي الأدباء الأميركيين المعروفين ضمن الآداب العالمية؟

-غموض الفضاء وأسراره المستعصية على العقل البشري، رغم بلوغه درجة من النضج والتطور لا يستهان بهما، هيأ لبرادبري مادة غنية يجرب عليها خياله الفذ. كتب عن الشمس وحرارتها، عن مارس المتوهج بالحمرة في ليالي الأرض، عن ساتورن ذي الدوائر المتحجرة الشبيهة بعيون كونية ترقب المجهول، عن المجرات البعيدة التي استخدم في السفر اليها، ورواية ما يدور فيها من أحداث، مستندا إلى معرفة واسعة بالرحلات الفضائية، والدراسات العلمية، والفرضيات التي يتفتق عنها ذهن الباحثين الفضائيين. برادبري يختلف عن معاصريه من الكتاب الأميركيين لأن هؤلاء كتبوا عن الواقع، عن معضلة المجتمع الأميركي وصراعاته كما رأيناها لدى بول أوستر وفيليب روث وساندرز وغيرهم، بينما ارتفع ري برادبري إلى الفضاء. ونحن في الثقافة العربية لا نمتلك هكذا خلفية تؤهل الكتّاب للمغامرات الذهنية، والخيال العلمي. ثمة جهل فضائي هائل حتى لدى الكتاب والمفكرين والعلماء .

6. صدر لك كتاب "مثل برقٍ خبا: سيرة ثقافية لكاتب جوّال" ضمن منشورات دار تأويل وتتناول فيه سيرتك الأدبية في علاقتها بالكتب والناس والمدن التي أثرت في مخيالك الأدبي ككاتب مغترب. هل تتفق معي بوجود خصوصية أدبية لامعة وقيمة معرفية مضافة بالنسبة للكتّاب الذين عاشوا النفي والتهميش؟

-هذا الكتاب يلخّص، إلى حد ما، تجربتي في الكتابة، وما رافقها من انتقالات حياتية في الزمان والمكان، وما أنتجت تلك التجربة من روايات، وقصص، ومقالات، وعمل تحريري وإعلامي، ووجهات نظر في الأحداث التي عاصرتها، أو كنت شاهدا عليها، أو مشاركا فيها على امتداد أربعين سنة تقريبا. وهو سيرة مثقف عراقي جوّال عاش في أكثر من بلد، وتمثّل أكثر من لغة وثقافة، وظل الكتاب رفيقا دائما في تلك الرحلة الشاقة، رحلة الحياة، قراءة وتأليفا ونقدا وترجمة. يجد القارئ، من خلال تلك الخلطة السردية الحرة، رؤية عامة حكمتني وتبعتها في مسيرتي الإبداعية خاصة، حتى بلغت خمس مجموعات قصصية، وإحدى عشرة رواية منشورة. قصص، وحكايات، ومتون، وهوامش، وآراء، وشروحات، وكل ما يصوغ الجوهر الروحي للفرد منذ ولادته وحتى مماته. وأعتقد من جانبي، أن هذه السيرة تهمّ الأجيال الجديدة في العراق، وربما العرب، وهي لم تعش تجربة مماثلة، ولن تعيش، لأن التاريخ لا يكرر نفسه. أدب المنفى

يعتبر حقلا جديدا على ذائقتنا العربية، بينما أصبح ظاهرة شائعة في العقود الأخيرة بسبب هجرة كثير من المثقفين العرب إلى أوربا وأميركا، نتيجة لظروف العالم العربي التي تتمثل بالفوضى، والحروب، والرفض لما هو مختلف.

7. يمثل الأدب العراقي ركيزة أساسية في صناعة الحداثة الأدبية شعرا ورواية وقصة داخل البلاد العربية مقارنة ببلدان أخرى تبلورت حداثتها بشكل متأخر لأسباب تاريخية بامتياز. كيف في نظرك استثمر العراق مشروعه النهضوي في اجتراح أفق ثقافي يوازي بين عمق الحضارة وفتنة الحداثة والمعاصرة؟

-أستطيع القول إن المشروع النهضوي العراقي توقف تقريبا منذ بداية الحرب العراقية الايرانية في عام 1980 ، إذ دخلت البلاد في عقود طويلة من الحروب المتعاقبة توجت بحرب شبه أهلية واصطفافات طائفية ومناطقية قادت إلى تهميش المنجز الحضاري السابق. وأصبحت فيه الثقافة سلعة زائدة في المجتمع، وهنا نتحدث عن سنوات من تهديم المدن وقطع الطرقات والأسوار الطائفية والتفجيرات الارهابية والبطالة، بعد تعطل المعامل والزراعة وانعدام الكهرباء وخراب الطرق وتهالك المؤسسات التعليمية والصحية. انشغل المثقف، مثلما المواطن البسيط، بلقمة العيش في جو غير مستقر لا يدفع للتأمل والكتابة. والكتابة عموما بحاجة لفسحة من الاستقرار لكي تنمو. وثمة فوضى عارمة غير مسبوقة على الصعد كافة، تشمل الحداثة وما بعد الحداثة، والتراث وإعادة قراءة التاريخ، والتسامح والتعصب، والقديم والجديد، إذ يمكن للفرد أن يجدها في روحه متجاورة، مثلما يجدها في الشارع والمدينة والبلد، وهي فوضى عجيبة لم تقع على وصلتها لحد الآن .

8. ما مدى تأثير الاجتياح الأميركي على العراق ومنجزه الأدبي؟ وكيف تقيم طبيعة الكتابات النقدية والأدبية التي تصدت له بالدرس والتخييل بالاستناد على التجربة الإبداعية؟

-أحدث الاجتياح الأميركي زلزالا هائلا في بنية المجتمع العراقي، وأطلق بركان الشرور كلها. تفجرت المكبوتات الطائفية والقومية في ظل انفلات هائل بعد انهيار الدولة التام. وأصبح السلاح عنوانا لمرحلة سوداء من تاريخ العراق الحديث. ومثلما خلخل البنية الاجتماعية بأبشع ممارسة، جرى الأمر ذاته

على النشاطات الأدبية والفنية والثقافية، لأن الحياة باتت مشلولة، ولم يعد هناك سينما ومسرح ومهرجانات وفعالات مدنية طبيعية. ورافق ذلك صعود التطرف والقتل على الهوية وعنف الاحتلال. لقد سبب عنف الاحتلال إلى قتل أحد عشر فردا من عائلتي بصاروخين أميركيين استهدفا بيت عمي، وكان من بين القتلى أبي وعمي واثنين من أبناء أخويّ وسبعة من أبناء عمومتي بينهم أطفال أصغرهم لا يتجاوز عمره السنتين. تلك التجربة الخاصة مع الاحتلال وعنفه، حولتها إلى رواية عنوانها "بلاد سعيدة" وصدرت عن دار التكوين في عام 2008. على صعيد الثقافة لا يذكر المواطن العراقي أي فعل ثقافي قدمه الاحتلال، كان حاضرا عبر البندقية والعنجهية الاستعمارية فقط. كان السلاح وعلى امتداد الحقبة الماضية هو الحاكم الفعلي في الشارع. لكن من جانب آخر حدثت تحولات أخرى يمكن اعتبارها تحولات ايجابية، فبعد انهيار سلطة الحزب الواحد تم الغاء الرقابة الرسمية وصدرت صحف عديدة تمثل مختلف التيارات السياسية، وبدأت المطابع الأهلية تؤسس لحركة نشر خارج الرقابة والحكومة، وتمتع قطاع النشر بشيء من الحرية. شهدنا فورة في الإصدارات الروائية، والشعرية، والنقدية، لم تكن بعيدة عن هموم الحقبة الجديدة، واتجهت بمعظمها نحو إعادة قراءة للواقع العراقي، بما في ذلك واقع الاحتلال ومفرزاته من تطرف ديني، وتبعية، وخلخلة للهوية الوطنية، وشيوع النبرة الطائفية في الإعلام .

أشرف الحساني

زوم على المغرب: الروائي العراقي شاكر الأنباري لـ:LE360

الثقافة المغربية حاضرة في اهتمامات المثقف العراقي

24/05/2022-

في هذه الزاوية الأسبوعية الجديدة، يلتقيle360 ، بجملة من كبار الكتاب والشعراء والفنّانين والمخرجين من العالم العربيّ، ممن أُتيحت لهم الفرصة لزيارة للقراءة عن المغرب أو الإقامة فيه أو حتّى المرور عبره إلى أمكنةٍ أخرى، من أجل تقديم صورة جماليّة بانورامية خارجية عن البلد وعُمق عاداته وروعة تقاليده...

على مدار سنواتٍ طويلة، شكّل المغرب بعُمقه التاريخي وتنوّعه الثقافي وزخمه الفنّي، محطّة سياحية للعديد من الكتاب والشعراء والفنّانين والفوتوغرافيين والمخرجين، الذين زاروا المغرب وتمتّعوا بخيراته وعاينوا ذاكرته وجماله، من خلال عددٍ من المُدن التاريخيّة، التي أقاموا فيها من أجل إقامة نوعٍ من الطباق البصريّ بين الواقع والخيال.

إنّ الزاوية ليست مجرّد سفرٍ في الأمكنة والفضاءات والجغرافيا عموماً، وإنّما سفرٌ عميقٌ في سراديب الجسد وأحراش الذاكرة. سفرٌ ضاربٌ في عمق الثقافة والفنّ ودهشة السؤال. هنا يتحرّر العقل من صرامته الوجودية القهرية ويُطلق الجسد العنان أكثر لمُتخيّله ومشاعره وأحاسيسه في التعرّف على ثقافة الآخر وفنونه، حتّى يتمرّدان على صبغة العقل المنطقية ويُقدّمان معاً صورة ثقافيّة نوسطالجية عن أواصر الصداقة والحب التي انتسجت منذ منتصف القرن الـ 20 بين المغرب والمشرق.

الحلقة الثانية من هذه الزاوية الأسبوعية، مع الروائي شاكر الأنباري، وهو كاتب وروائي وقاص من العراق، بحيث لا تستقيم مقاربة السرد العراقي المعاصر، بمنأى الحديث عن كتابات شاكر الأنباري، لكونه من أبرز المثقّفين العراقيين، الذين راكموا متناً أدبياً مختلفاً في السنوات الأخيرة وطوّعوا ذائقتهم الإبداعية، صوب قوالب فنّية مُتباينة وأجناسٍ أدبيّة مُختلفة تتّصل بالقصة والرواية.

00 بداية، ما الأسباب الوجدانية والمعرفية، التي ساهمت في سيرة وتشكيل وعيكم وسفركم صوب المغرب؟

===في البدء كانت الأسماء، طنجة، ومراكش، والدار البيضاء، وسبتة ومليلة، وكنا ندرس ذلك في جغرافيا البلدان، وقبلها ممالك المرابطين والموحدين وكل ذلك التاريخ الحافل المرتبط بالأندلس، ومضيق جبل طارق بن زياد. وفي النضوج الثقافي جاءت أسماء قرأناها وعشنا مع شعرها ونثرها، الطاهر بن

جلون ومحمد شكري وعبد الفتاح كليطو وياسين عدنان برائعته هوت ماروك وشعره. عبدالله العروي ومحمد بنيس ومئات الكتاب والفنانين والمسرحيين المغاربة، إضافة إلى ما كتبه الإسباني خوان غويتسولو عن ساحة الفنا، وقد قرأت كتابته تلك منذ ثلاثين سنة عن مراكش .

00 هل يُمكن أنْ نستلهم هنا عبارة محمود درويش المُدهشة: الطريق إلى البيت أجمل من الوصول إ ليه. كيف كان طريقكم إلى المغرب؟

===ربما، وربما ليل مراكش المضيء: المدينة بسمائها الزرقاء القريبة جدا وسنونوها الراقص تدخل القلب بنعومة، وهي من المدن التي أحببتها وخاصة ساحة الفنا: حواة الأفاعي والقرود والنساء البارعات بالنقش على الجسد وموسيقى جبال الأطلس القريبة، مدينة تجمع الثقافة الأفريقية والشرقية والأوربية، بطعامها وأزيائها ومشروباتها وسمات وجوهها، شوارعها الفسيحة تهيء المرء للتسكع بدون هدف، وأزقتها القديمة تدفع العين للتوقف عند كل منظر وتفصيل وحائط، وحين جلست في حدائق جامع الكتبية شعرت بنفسي أعود إلى الأندلس وموشحاتها وطرز بنائها وسواقيها، حيث يحتلك التاريخ دفعة واحدة.

00 ما الرؤى والأحلام والاستيهامات، التي اجتاحت مُخيّلتكم ورافقت رحلتكم صوب المغرب؟

===التاريخ وثقله في ذاكرتي، وكأنني أعود إلى ألف سنة ماضية حيث الجوامع العتيقة، والمدارس التراثية، واللهجة المنوعة بين العربية والفرنسية والبربرية، واستخدام الفصحى في التعامل، وخليط الأجناس كون المغرب ذات فرن خاص يجمع أفريقيا وآسيا وأوربا، إذا نظرنا إلى هجرة القبائل االعربية منذ تغريبة بني هلال. في ذهني كانت هناك الأطعمة المختلفة، وفنون السحر المغربي كما جاء في ألف ليلة وليلة، ومفازات الصحاري وبدوها، والدروب الضيقة التي تخبئ خلفها النساء، والمكتبات القديمة المكتظة بالمخطوطات .

00 شكّل المغرب حلقة هامّة ضمن مسار تحديث الثقافة العربيّة المعاصرة، لما ظلّ يلعبه من دورٍ فعّال في تقوية أواصر السؤال والصداقة والفكر مع المشرق العربي. من موقعكم البحثي/ الأدبي/ الفنّي، كيف ترون وتُقيّمون راهن الثقافة والفنون في مغرب اليوم؟

===المغرب حاضر دائما لدى المثقف العربي المشرقي سواء في النقد والرواية والشعر، أو الفنون البصرية والترجمة. وفي سنوات ماضية كنا نتتبع بشغف ما تنشره دار توبقال من تراجم ومؤلفات مغربية وعربية، ولا يمكن نسيان دور المثقف المغربي في الترجمة عن الفرنسية، حيث وصلتنا آخر مصطلحات المدارس النقدية، ورغم المسافة البعيدة بين العراق والمغرب إلا أن الثقافة المغربية حاضرة في اهتمامات المثقف العراقي، وحين يمشي المرء في شارع المتنبي وسط بغداد، وهو شارع للثقافة والاصدارات الجديدة، يقع على نسخ متعددة من كتاب محمد شكري الخبز الحافي كما لو كان منتجا عراقيا.

000هل شعرتم يوماً بأنّ الثقافة المغربيّة، تُعدّ امتداداً عميقاً لباقي الثقافات الأخرى المُنتَجة بالعالم العربي، بحكم ذلك التمازج المُتوهّج الذي رافقها منذ سبعينيات القرن الـ 20؟

===بالتأكيد فكتب عبد الفتاح كليطو ومحمد عابد الجابري ومسرح الطيب الصديقي وشعر محمد بنيس وكان لي شرف اللقاء به في دمشق منتصف التسعينيات حين كنت أعمل في مجلة المدى وزارنا في مقر دار المدى، ومن ثم ياسين عدنان الذي كتبت عن واحد من دواوينه الشعرية في جريدة الحياة، ثم التقيته في بغداد بعد سنوات، ولا ننسى مقاربات محمد عابد الجابري حول العقل العربي وقد شاع كثيرا بين القراء العراقيين،

000ما مدى تأثير الإنتاج المغربيّ على خصوصيات ثقافتكم، فكراً وأدباً وفناً؟ وهل تعتقدون أنّ ملامح هذا التأثير، تبدو بارزة وبشكلٍ قويّ داخل ثقافتكم وفنونكم في الحقبة المعاصرة؟

=بالمجمل كان هناك استيعاب فكري ثقافي لما يصل من ثقافة المغرب، مما أنتج تلاقحا شكّل بوابة لانفتاح الثقافة العراقية خاصة في ما يخص المدارس النقدية كالتفكيكية، والبنيوية، والسيميائية، وغيرها من مدارس عادة ما كانت تصل عبر المترجمين المغاربة، أو النقاد، سواء في الفكر أو الأدب، وتصل نتاجات الكتاب المغاربة اليوم عبر معارض الكتب التي تقام سنويا في بغداد.

000لكنْ، حين تسمعون المغرب، ما أوّل شيء يتبادر إلى أذهانكم؟

==التمازج الثقافي الاثني واللغوي حيث تجد الأشخاص من أصل عربي وبربري وإفريقي، عدا بقايا المستوطنين الأجانب، وظلت توقا لنا لزيارتها سياحيا، فمدن مثل طنجة ومراكش والرباط والدار البيضاء

وغيرها، شكلت توقا لنا ولقاء مع التاريخ، والحداثة الممتزجة بالفولكلور والتقاليد القديمة. أما أكلة الكسكس والطاجين والسمك المشوي على الطريقة المغربية فهي حاضرة في الذهن لدى كل من يروم زيارة المغرب.

000هل تعتقدون أنّ الصُوَر والرؤى والأحلام والتمثّلات، التي نُكوّنها عن بلد ما، تكون صادقة لحظة الاصطدام بالواقع الحقيقي وعاداته وتقاليده وثقافته وفنونه؟

===عدا عن الصورة الزاهية للمجتمع المغربي كمجتمع سياحي يتلقف الحداثة بتوق شديد، يفاجأ الزائر بالمحلية الزائدة حين يبتعد عن الواجهات في الأزقة، والساحات، والأطراف، وهي ظاهرة تعيد الزائر إلى فكرة المدن غير المكتملة في معظم الدول العربية، حيث تتعايش البنى الفكرية والدينية ومنتجات التصنيع والعلم في الآن ذاته، ويلمسها الزائر ما أن يغوص في متاهات المناطق القديمة. هذا ما لمسته في مراكش حين توغلت عبر ساحة الفنا في الأسواق المسقوفة والمناطق السكنية.

000ما المُدن والفضاءات التي قُمتم بزيارتها أو عشتم داخلها في المغرب لسنواتٍ، لكنّها ساهمت في تغذية ذواتكم وتفكيركم ومُتخيّلكم في سنواتٍ أخرى لاحقة؟

===عادة ما تحضرني مشاهد ساحة الفنا رغم أنني زرت مراكش قبل بضع سنوات، وأتذكر دائما الفنون الشعبية، والحواة، والأكلات الشعبية، والأزياء المحلية، وعربات النقل التي تجرها الخيول، ونمط العمارة في المكتبات القديمة والجوامع، وهناك منظر للسماء في فترات الأصيل لم أره في بلدان أخرى. أما تعابير الناس العاديين فتقول الكثير من خلال سماتها المتعبة والتائقة إلى واقع آخر أكثر سعادة .

000بعد كلّ هذه السنوات، ما الذي تبقّى في جسدكم من المغرب، ثقافياً وفنياً وفكريا؟

=== اقتنصت جزءا صغيرا من المغرب عبر زيارتي إلى مراكش وامتدت عشرة أيام فقط، ولأن المغرب متنوع في كل شيء لذلك أطمح إلى زيارة مدن أخرى كالدار البيضاء والرباط وطنجة، وهي مشاريع مؤجلة، فالمغرب ثقافة وفنونا ونشاطات، أشبه بالتكوينات الجيولوجية المتراكمة الطبقات يصعب الالمام بها عبر زيارة مدينة واحدة. وهي في النهاية، وعلى الصعيد الشخصي، نافذة أخرى لتوسيع التجربة، ومقاربة ضرورية للإلمام بالثقافة العربية عموما.

علي السومري

مجلة الشبكة العراقية 2022 حزيران

قاصٌ وروائيٌ وصحفي، ولد في محافظة الأنبار عام 1957، حاصل على شهادة البكالوريوس في الهندسة المدنية من جامعة السليمانية العراقية عام 1979، كتب في صحف عربية وعراقية عديدة، وتولى مواقع وظيفية في الصحافة الثقافية في بغداد، منها رئيس تحرير مجلة (تواصل) المهتمة بالإعلام.

إنه شاكر الأنباري، الكاتب والروائي الذي يرى أن الثقافة في العراق لعبت دوراً محورياً في تشكيل الهوية الوطنية، وأن الكتابة السردية تسير في طريقها الصحيح.

هو عضو اتحاد الكتّاب العرب، واتحاد الأدباء والكتّاب العراقيين، ونقابة الصحافيين العراقيين. يقيم اليوم في كوبنهاغن عاصمة مملكة الدانمارك التي وصلها عام 1985، عاش في سورية من عام 1995 حتى عام 2003، ليعود إلى بلاده بعد سقوط الديكتاتورية وبقي فيها ما يقارب العشر سنوات، عاد بعدها إلى الدانمارك مرة أخرى، لكن زياراته إلى الوطن لم تنقطع.

لـ (الأنباري) أكثر من عشرين كتاباً ما بين القصة والرواية والترجمة والتأليف، إذ أصدر مجاميع قصصية عدة هي: (ثمار البلوط)، و(شجرة العائلة)، و(أنا والمجنون)، و(تشكيل شامي)، (أهواء غامضة). أما في الرواية فأصدر أكثر من عشر روايات: (الكلمات الساحرات)، و(ألواح)، و(موطن الأسرار)، و(كتاب ياسمين)، و(ليالي الكاكا)، و(الراقصة)، و(بلاد سعيدة)، و(نجمة البتاويين)، و(أنا ونامق سبنسر)، و(مسامرات جسر بزيبز)، و(أقسى الشهور).

كما ترجم إلى العربية كتاب (المريخ جنّة)، وهو مجموعة قصص للكاتب الأميركي ري براد بري، إضافة لتأليفه عدداً من الكتب مثل: (ثقافة ضد العنف)، و(دولة على مفترق، العراق بين عام 2003 وعام 2006)، و(أسوار أوروك)، و(تلخيص كتاب الديمقراطية التوافقية)، و(مثل برق خبا- سيرة ثقافية لكاتب جوال).

ولتسليط الضوء على تجربته الإبداعية ومشروعه السردي، كان لنا معه هذا الحوار:

+++لماذا اخترت السرد دون كل الفنون للتعبير عن ذاتك وآلامها؟

---لأنني نشأت في قرية فراتية لم تكن فيها كهرباء، وتمتهن الفلاحة وقليلة التواصل مع المدينة، تشيع فيها الحكايات الشفاهية والمرويات الخرافية للتسلية وقضاء الليالي الطويلة. لقد تشبعت منذ الطفولة بفن سرد الحكايات وما يرافقها من خيال مجنح وسحر القول، ومغامرات العقل البشري المحكوم بالعزلة قادتني إلى محبة فن السرد، قصة ورواية، وكأنني استرجع بذلك طفولة مفقودة، وبراءة وجودية، وأمكنة زال بعضها منذ سنين طوال. خاصة وأن السرد هو رديف للعزلة ومغامرة الخيال للسفر إلى عوالم خارج الزمان والمكان.

+++هل أنت مع من يقول بأن هذا الزمن زمن الرواية لا الشعر؟

---أعتقد أن الفنون جميعا باقية كونها حاجة بشرية سواء كانت شعرية، أو سردية، أو بصرية كالتشكيل والسينما والمسرح، لكننا في العراق مررنا بتحولات دراماتيكية خلال العقود الأخيرة على صعيد المجتمع، وبنى الأمكنة، والهزات الفكرية والجمالية، وتشظي روح الفرد المرادف لكل ذلك. وهذا ما يعجز الشعر عن التعبير عنه ومقاربته، عكس الرواية. فهي تمتلك إضاءة أوسع، ونفاذا أكثر جرأة للتعبير عن تحولات ضخمة مثل تلك. الرواية في رأيي تعبير جماعي عن إشكالات مجتمعية وجودية، في حين يظل الشعر أقرب إلى الهواجس الفردية. ومن هنا سادت الرواية في العقود الأخيرة داخل العراق خاصة، لأن هناك الكثير الذي ينبغي أن يقال .

+++ما الذي منحته الغربة لك؟ وما الذي سلبته منم؟

---منحتي الغربة الاحتكاك مع ثقافات أجنبية، ولغات فتحت لي نوافذ إضافية للإطلالة على عالم متغير ومتصارع، وشحنت نصي بحرية شبه كاملة ابتعدت كثيرا عن الرقيب الداخلي والمفاهيم الجمعية التي تخنق الفرد. كما وسّعت من أفق الخيال عندي لأن الغربة تنوع مكاني، وقبول بالآخر المختلف، وضبط العدسة بصفاء أكثر كونها توفر للكاتب مسافة كافية كي يرى بوضوح، ويتتبع خيوط الأحداث، ويسترجع الشوارع، والمدن، والطبيعة، وملامح البشر الذين يكتب عنهم. في حين يشعر الكاتب المغترب بأنه غير مستقر وغير منتم بعمق إلى أي من الأمكنة التي يستقر فيها، ويبقى الوطن الأم معلقا على ظهره حتى وفاته. ويصعب عليه الكف عن الاستدارة إلى الوراء، مكانا وزمانا، عدا عن الحنين الأبدي

لأماكن الطفولة والشباب والصداقات القديمة ولهجة المكان ونمط الحوارات المحلية اليومية. والاحتكاك بالبشر والأحداث من الضرورات الهامة لتجربة أي كاتب مهما كان الفن الابداعي الذي يمارسه. شخصيا أعتبر نفسي نصف مغترب ونصف مقيم لأنني عايشت أهم التحولات في العراق بعد عام 2003 حيث عدت إلى الوطن وعملت وسكنت في بغداد، واندمجت بنسبة ما مع الوسط الثقافي والاعلامي طوال حوالي عشر سنوات. وهذا ما جعلني أقرب إلى تفاصيل الوطن اليومية من مثقفي الاغتراب غيري.

+++كيف تقيّم السردية العراقية اليوم، وهل يمكن القول بأنها وصلت للعالمية؟

---الثقافة في العراق لعبت دورا محوريا في تشكيل الهوية الوطنية، والعراق دون تنوع تلك الثقافة ينتهي ليكون جزرا منعزلة دينيا ومذهبيا وقوميا. ونعني بالثقافة هنا الشعر، والقصة، والرواية، والغناء، والشعر الشعبي، والمسرح، والسينما، والفولكلور، وغير ذلك من حقول، هي بمجموعها منحت العراق هويته وخصوصيته الحضارية، وقد شهدت الساحة الثقافية في الآونة الأخيرة انفجارا هائلا في الكتابة السردية تعبيرا عن حاجة المثقف إلى قول كل شيء عن الأحداث الت مر بها وطنه في العقود الماضية. وهي أحداث ضخمة صاعقة اشتملت على حروب واحتلال وصراعات دينية وقومية ومذهبة جاءت نتيجة انزياح القامع الديكتاتور عن حقيقة الواقع وتناقضاته وصراعاته، لذلك جاءت الرواية ضرورة لتجسيد كل ذلك فنيا. والتجسيد الفني حمل للقارئ تنوعات وتباينات في التعبير والأساليب والرؤى، وهو أمر طبيعي بعد أن امتلك الكاتب حرية الخوض في كل شيء. كان هناك كتاب استطاعوا انجاز نصوص عالمية في رؤاها، وصدقها، وسعة أفقها، ونمذجتها للهم الانساني مما جعلها تشيع خارج المحلية، وتصبح مؤثرة عربيا وعالميا. والزمن كما نعرف كفيل بغربلة ما هو أصيل عما هو سائد، ومفتعل، وشكلي، ومقلد، لكن الكتابة السردية تسير في طريقها الصحيح وتحقق كل يوم انجازات لا يمكن تجاهلها.

+++دائماً ما يلام النقاد بأنهم عاجزون عن اللحاق بما ينتج سرداً وشعراً، ما رأيك؟

---الابداع دائما يتقدم على النقد في كل ثقافات العالم، لأن النقد الأدبي يرتكز على المبدع بكافة تلاوينه، والانفجار الابداعي العراقي في الشعر والرواية لا يخرج عن هذا الاطار، علما أن هناك سهولة في النشر، وبوجود دور نشر تتبنى الطباعة على نفقة الكاتب يمكن لأي شخص أن يدفع بنتاجه إلى السوق.

ونحن لحد الآن لا نمتلك مؤسسات نقدية تراقب هذه الظاهرة، وتلاحق النصوص الجديدة، والتجارب المكتملة أو التي في طريقها إلى الاكتمال، لأن النقد الرصين والجاد بحاجة إلى فضاء أكاديمي ومؤسساتي مستقر، وهذا غير متحقق لدينا كوننا نمر بحالة فوضى، لا على صعيد الأدب فقط بل في كل حياتنا. لحد الآن لا تمثل الثقافة العراقية سوى هامش بسيط من حاجات المجتمع، والفرد عموما منشغل بمشاكله اليومية والمعيشية أكثر مما هو منشغل بغذائه الروحي، وهكذا واقع لا ينتج نقدا رصينا يواكب الحاجة الروحية للأدب والفن.

+++كيف تقيّم موقف المثقفين من الاحتجاجات، هل كان موقفهم مؤثراً أم هامشياً؟

---شخصيا شكلت لي ثورة الشباب في تشرين، وكل الاحتجاجات السابقة، روحا حية لشعب لا يريد الاستكانة لخزعبلات السياسيين المنشغلين بمصالحهم الفئوية والشخصية، فروح الثورة التشرينية هي تعبير جلي عن روح العراق الواحد المعافى ذي البعد الحضاري بتنوعاته. العراق الذي صنع مدنية، وحضارات، ولغات، وملاحم، طوال آلاف السنين، والثقافة الوطنية التي تسير في هذا الاتجاه لا يمكنها أن تبتعد عن روح التمرد الشبابي وتوقه لخلق واقع بديل يحترم كرامة الانسان مهما كان دينه وقوميته وانتماءاته. لقد كسرت الثورية التشرينية كل الحواجز النفسية، والمعتقدات الخرافية، وتقاليد القطيع، لأنها جاءا معمدة بدم أبنائها، وستتجسد مستقبلا في كل الحقول الثقافية بلا أدنى شك. وهذا أمر يحتاج إلى وقت، فالتحولات الكبرى لا تجري بتوقيتات سريعة.

+++ما جديد شاكر الأنباري؟

---قريبا ستصدر لي رواية ضخمة تعالج تجربة العراقيين المنفيين في أول احتكاكهم بالبيئة الجديدة، وهي هنا أوربا، وتمتد أحداثها على مدار عقود عبر شخصيات ميتة وحية عاشت تحولات أرواحها سنة بعد سنة، لكن أبرز ملامحها هي بقاؤها منشدة نحو تلك الخارطة البعيدة، خارطة بلاد الرافدين. وأعتبرها رواية ترسم جزءا يسيرا من الملحمة العراقية التي عاشها مجتمعنا في الأربعين سنة الأخيرة، أي ملحمة الهجرات، والحروب، والأمراض الروحية، والتحولات الفكرية، ومطاردة الحلم الوجودي في وطن يبتعد كل يوم لكنه موجود لا يمكن تغييبه. سميتها في النهاية "تشيدنا الحزين."

علاء المفرجي

صحافي عراقي

جريدة المدى

2022 10 24

شاكر الأنباري كاتب روائي عراقي، أسمه الكامل شاكر حسين حميد ولد في عام 1957 في الرمادي مركز محافظة الأنبار العراقية. حاصل على شهادة البكلوريوس في الهندسة المدنية من جامعة السليمانية العراقية عام 1979، كتب في صحف عربية وعراقية عديدة، غادر العراق عام 1982 حاملاً مخطوطات رواياته، ولم تصدر الأولى منها "شجرة العائلة" إلا في عام 1994في دمشق وهي منطقة منفاه الأولى، لتتوالى بعدها: "ليالي الكاكا"، "الكلمات الساحرات"، "بلاد سعيدة"، "الراقصة"، "نجمة البتاوين". وروايات أخرى في سورية والدنمارك ولبنان وإنكلترا والبرازيل والعراق، واستقر أخيراً في كوبنهاغن عاصمة مملكة الدانمارك وهو مقيم فيها حاليا. دمر صاروخ أمريكي منزل أسرته تماما وقتل معه أحد عشر شخصا، وأصاب نحو ثلاثين آخرين، وفقد شاكر الانباري، والده الشيخ حسين حميد الانباري ووالدته واثنين من إخوانه واثنين من أبنائهم وعددا من أبناء أعمامه وأقربائه. عاد إلى العراق عام 2003 قبل أن يعود مرة أخرى عام 2007 إلى الدنمارك. عمل سكرتير تحرير في دار المدى في 1996 /دمشق، كما عمل في جريدة المدى / بغداد، ومسؤولا للقسم الثقافي في جريدة الصباح العراقية/ 2004، ومسؤولا للقسم الثقافي في جريدة الصباح الجديد العراقية عام 2005. كتب في جريدة الحياة/ السفير/ المدى/ الصباح/ المستقبل اللبنانية/ موقع المدن، وغيرها من الصحف. تنوع نتاجه الأدبي بين التأليف والترجمة وكتابة القصص والروايات.

حدثنا عن مكان النشأة الأولى وأبعاده الاجتماعية والنفسية؟ وما المصادر والمراجع في الطفولة التي دفعتك لاختيار الكتابة؟

– ولدت ونشأت في قرية عراقية تقع على نهر الفرات قرب مدينة الرمادي، أي في بيئة فلاحية أقرب إلى البداوة، كونها محاطة بالصحراء من جهة الشمال، والفرات من الجنوب. ويمتهن الجميع تقريبا حرفة الزراعة، وتمتلك خزينا هائلا من القصص والأساطير والخرافات. وتقضي لياليها عادة بالكلام، عن أخبار القرية والقرى المجاورة، ونادرا ما تهتم بالسياسة. وليالي السهر تلك، من دون كهرباء، تنصرم ببطء على وقع رواية القصص والحكايات. ويلعب فيها الخيال والمبالغات والقفز على الزمن دورا هائلا، ومن هنا جاء اهتمامي بفن السرد. منذ حداثتي اعتدت على قراءة ألف ليلة وليلة، وغزوات الأمام علي، وتغريبة بني هلال، وقصص عنترة بن شداد، ثم أخذتني تلك القصص إلى محمد عبد الحليم عبد الله والمنفلوطي

وجبران خليل جبران وذو النون أيوب والكتّاب العراقيين، وهي كما أراها اليوم هروب من واقع القرية الجاف، والكئيب، ونافذة للاطلاع على مجتمعات أخرى، وقصص حب، ومغامرات، وقصائد شعر. ذلك الولد القادم من قرية عتيقة، ومن شوارع مغبرة، سرعان ما وجد نفسه في دهاليز هذا العالم المكتنز بالتناقضات، والظلال، والمدن الباهرة. المكتبة الصغيرة التي أسستها في البيت دفنتها في الحديقة عندما شنت السلطة، آنذاك، هجمتها على الفكر التقدمي، نهاية السبعينيات. وما زالت مدفونة هناك بورقها وكلماتها وأفكارها. أتذكر مشهد الدفن دائما.

غادرت باكرا العراق لأسباب سياسية، هل كان الأدب بشكل خاص الدافع الذي جعلك تخوض هذه التجربة؟

– ليست السياسة فقط هي ما دفعني لمغادرة البلد، إنما هي ظروف مركبة ومعقدة. كنت ببساطة ضد الحرب ولم أفكر بالموت لأجلها. الجو العام في تلك السنوات مشحون بالتعبئة والكذب والاضطهاد لأي صوت معارض، وكان جوا اجتماعيا خانقا، جوا بوليسيا تهبّ منه رائحة الموت في الجبهات والسجون والشوارع. مع توق خاف لاقتحام المغامرة والبحث عن الفردوس المفقود. نساء وخمور ومدن وبحار وسفن تقلع من ميناء إلى آخر. كل ذلك دفعني لمغادرة ذلك التابوت، والنجاة بعقلي وجسدي. خرجت إلى فضاء آخر استعدت فيه روحي التائقة للحرية، والثقافة النظيفة، والتعبير عن الرأي. وفي ذلك الفضاء الحر، في جبال كردستان وسورية والدانمارك أحسست أن العالم أصبح تحت أصابعي من جهة القراءة، والسفر، وتعلم لغات أخرى، والاسترخاء الروحي، ثم التفرغ لمهنة الكتابة. لست نادما على تجربتي الحياتية، مع ما فيها من أثمان باهظة، لكنها تجربة تستحق الخسائر، وكانت مثمرة ابداعيا.

بلاد الشام هي أولى المحطات التي استقررت بها بعد مغادرتك بغداد بداية الثمانينيات، وقد مارس هذا المكان تأثيره عليك في كل شيء، ابتداء من تفاصيل حياتك اليومية، وليس انتهاء بالتأثير في عملك الروائي. ما تعليقك؟

– لقد أضافت لي تجربة العيش في سورية أبعادا ثقافية أثرت نتاجي الابداعي، خاصة بعد أن عدت إليها من الدانمارك بعد عشر سنوات من مغادرتي إياها في العام 1985، وعملت في دار المدى.

عبر تلك الفترة استطعت التواصل مع المثقفين السوريين، واللبنانيين، وإلى حد ما المثقفين العرب، وكان عملي في مجلة المدى، ومجلة النهج، ثم في نشر كتب الدار، له الدور الكبير في الاطلال على الجو الثقافي والفكري بشكل عام. قرأت، وكتبت، وحاورت، وهذا ما لم يكن سهلا في بلدان الاغتراب. كما استطعت المقارنة بين بيئتين هما البيئة الأوربية، وعشت فيها عشر سنوات، والبيئة الشرقية، مما وسع من مداركي الحضارية، مدارك شخص خبر، إلى حد ما، بيئة الغرب وبيئة الشرق. ووفرت لي تلك الفترة الدمشقية فرصة ممارسة الصحافة الأدبية، والتواصل مع مختلف الصحف العربية، والاحتكاك مع الواقع اليومي للإنسان العربي في الأسواق، والمقاهي، والمعارض التشكيلية، والندوات. حتى المكان بدا لعينيّ مختلفا، مما دفعني لكتابة نصوص سردية متعاشقة مع جماليات المقرنصات، والشبابيك المزخرفة، والأقواس، والقباب، والزخارف. سميت الكتاب "تشكيل شامي"، وقد أفسحت مساحة فيه لقراءة اللوحات التشكيلية. وكل ذلك شكّل لي قفزة إضافية في مجال الثقافة عموما، وكتبت عنه رواية تتناول الحياة الدمشقية عبر أشخاص يعيشون التفاصيل اليومية، وإيقاع المدينة الليلي، والنهارات القادمة من الغوطة وجبال قاسيون ونهر بردى، بعيني غريب يعيش في مدينة يحبها. تلك هي رواية "الراقصة" التي صدرت عن دار المدى في العام 2003، وتحولت إلى مسلسل سوري باسم "شارع شيكاغو.«

أرى أن روايتيك (نجمة البتاويين، ومسامرات جسر بزيبز) هما الأكثر تعبيرا عن المأساة التي عاشها شعبنا ووطننا خلال فترة تاريخية معينة.. حدثنا عن هاتين الروايتين؟

– المفارقة أن الأحداث في الروايتين يفصل بينهما ما يقرب العقد من السنين. تناولت "نجمة البتاويين" الحياة البغدادية أثناء فترة الاحتلال الأميركي، وسقوط النظام السابق، وانفلاش المجتمع، وقلق البشر في واقع لم يعد مفهوما. ونقلت الرواية هموم شخصيات تعيش ذلك القلق، بل الرعب المستولي على شوارع العاصمة وقد استبيحت من العصابات، وجيش الاحتلال، والميليشيات، والفاسدين، وكاد أن يختفي ضوء الأمل، في سنوات لن تتكرر، ربما، على مدى قرون. كان الرهان مع نفسي هو كيفية اقتناص الواقع اليومي في رواية، دون السقوط في المباشرة، والتسجيل السطحي للأحداث. أما رواية "مسامرات جسر بزيبز" فهي تروي هجوم التطرف والارهاب والتكفير على المدن العراقية، والهجرات المليونية لقاطني تلك المدن، وضياع الذاكرة الجمعية لشعب غادر الراحة والسعادة، والأمل بمستقبل واعد.

وكل ذلك بدا محاولة لتسجيل تلك اللحظات السوريالية في حياة الشعب العراقي. وكلا الروايتين مناورة فنية تتخذ السرد الحكائي أداة لها لاستقراء الحس الشعبي بالأحداث، وتسجيل لمحات من التشوهات الروحية داخل الشخصيات، والزوال المستمر للأمكنة، والتقاليد، والأفكار. نحت جو سردي أكثر من تصنيع شخصيات عامة هو ما دفعني لإنجاز هذين العملين، وفيهما أصداء عالية من التجربة الشخصية.

اخترت الرواية مجالا لانشغالاتك. هل ترى أن الرواية، وبشكل خاص، قد أزاحت الشعر عن عرشه.. أم أنك ضد هذا الرأي؟

– الشعر بشكل عام تعبير فردي عن الوجود في النهاية، وهو محكوم بالصورة والخيال والمفارقة والرؤية الفلسفية، وله في تراثنا العربي أساسات صلدة ومدارس وأغراض تغوص في عمق القرون. أما الرواية فلصيقة بالواقع والتحولات المفصلية في حياة شعب من الشعوب، وتقدم إيقاعات جماعية عن مرحلة من المراحل الزمنية في بقعة مكانية ذات ملامح واضحة. وهي مصنع للأفكار، والتحليلات، والشطحات الفلسفية، والمعرفية، والحوارات الحرة بين أشخاص يفترض أنهم يمتلكون تقييمات متباينة للأحداث. وأعتقد أن ما تمر به مجتمعاتنا من خضّات سياسية وفكرية وهجرات جماعية وانفجارات في النسيج الاجتماعي ومآس غريبة، يناسبها التعبير عن كل ما سبق بالرواية، فقد أصبحت اللسان الجمعي، والمرآة الشاسعة، مكانيا وزمانيا، عما جرى ويجري من كوارث في العقود الأخيرة. لا على صعيد العراق فقط، بل في معظم البلدان العربية. الشعر حقل محروث منذ آلاف السنين، بينما الرواية أرض جديدة على الذائقة المحلية. والرواية مؤشر على خروج الذهنية العربية من شرنقة الخرافة، والعقل الأسطوري إلى جحيم الواقع، بعد أن هجرت اللغة الجديدة مساحات الانشاء والضبابية والمراوغة. أصبحت لغة الرواية محددة، قاطعة، منحازة بشدة إلى الفكرة الواضحة والموقف الانساني مما يجري. تنسج خيوطا متينة مع ثقافة العالم عبر الترجمة، وتهضم كل ما وصلته العلوم الحديثة والابتكارات العلمية والاجتماعية. غادرت الرمز والضبابية والمطّ اللغوي والتقعر اللفظي، وفي النهاية جاءت الرواية لتكون قطيعة مع إرث الماضي بكل منظوماته، جماليا وبنائيا، وقداسة، وركودا، عكس الشعر.

كتاب "مثل برقٍ خبا": وهو سيرة ثقافية تناولت مختلف شؤون حياتك، هل تجد أن سيرة الروائيين تتضمن درسا للمتلقي أحيانا؟

– كتب السيرة سواء كانت سياسية، أو فكرية، أو أدبية، تعطي القارئ تجربة مكثفة وخبرة على صعيد الحياة والقراءة والابداع. وهي إطلالة صادقة، كما يفترض، على الخلفية الثقافية والمكونات الأساسية لكاتب السيرة، تضيء الكثير بالتأكيد منتجه في فن من الفنون، أو في حقل من حقول الممارسة الواعية. كتب السيرة أشبه بالاعترافات المكتوبة على الورق. وجاء كتابي "مثل برق خبا" ليزوّد القارئ المهتم برواياتي، وقصصي، وتكويني الأدبي، بملخص عن الحياة التي انتجت تلك النصوص، والقراءات ذات الصلة بممارسة الكتابة، ونمط التجارب الحياتية. وهي كلها تساهم في إضاءة المساحة التي تحرك الكاتب ضمنها. والسيرة في الوقت ذاته شهادة على فترة زمنية بعينها، ورؤية وجودية تعكس قناعات ومواقف الكاتب، فضلا عن تطوره الفني، والفكري، والفلسفي. كل تجربة فنية ناضجة هي تجربة متفردة، والزمن هو الذي يحكم على صدق الشهادة أو عدمها. وأنصح كل مبدع بتدوين سيرته الذاتية، وهي شكل من أشكال التعبير عن الرأي دون وجل. وأعتقد من جانبي، أن هذه السيرة تهمّ الأجيال الجديدة في العراق، وربما العرب، وهي لم تعش تجربة مماثلة، ولن تعيش، لأن التاريخ لا يكرر نفسه. أدب المنفى يعتبر حقلا جديدا على ذائقتنا العربية، بينما أصبح ظاهرة شائعة في العقود الأخيرة بسبب هجرة كثير من المثقفين العرب إلى أوربا وأميركا، نتيجة لظروف العالم العربي التي تتمثل بالفوضى، والحروب، والرفض لما هو مختلف.

ما الذي يمتلكه الكاتب الأميركي "ري برادبري" حتى تخلص إلى ترجمة مختارات من أعماله القصصية، رغم أنك غير مكثر في هذا الجانب، أعني مجال الترجمة.. بمعنى ما الذي جعلك تلجأ إلى برادبري؟

– الخيال العلمي نادر في ثقافتنا العربية، نحن مجتمع غير صناعي، نستهلك الصناعة مثلما نستهلك الأدب والنظريات الفكرية والجمالية، و"ري برادبري" ابتكر عوالم غريبة تدور في فضاء الروح، وفي الفضاء الخارجي، وهو يلغي المسافة بين الواقع والخيال، أو الحلم. من هنا فقد جذبتني قصصه المكتوبة عن هذا الحيز من المغامرة البشرية. تساوقت القصص مع تكويني العلمي ذاته. وهو، أي براد بري خلاصة لمجتمع علمي هو الحضارة الغربية، أو الحضارة العالمية التي ترتكز على العقل، والمنطق، والاكتشافات العلمية في المادة، والكون، والطب، والروح البشرية. وكلها حقول غير شائعة في مجتمعاتنا مع الأسف،

كونها مجتمعات ما زالت تؤمن بالخرافات والأساطير والمقدسات العتيقة التي لم تعد تتناسب مع الحضارة المعاصرة. ومن النادر جداً ايجاد جامعة عربية تترجم، أو تشتغل على آخر ما استجد في العلوم النظرية كالفيزياء، والكيمياء، وتكنولوجيا النانو، ونظريات الفضاء، والسبب ببساطة هو تخلف تلك الجامعات سواء في العلوم النظرية أو التطبيقية. يضاف لذلك هيمنة الوضع السياسي المرتبك، والمتفجر، في دول عربية كثيرة على الواقع العلمي للجامعات.

□ انتفاضة تشرين حركت الساكن في المشهد الثقافي العراقي .. ما الذي كانت تعنيه لك؟

– العراقيون بحاجة ماسة لاستعادة الهوية الوطنية، أي تجاوز الهويات الفرعية، دينية وطائفية وقومية. ودون وجود مجتمع مدني، لا ديني، يستحيل بناء تلك الهوية. ومن هذا الجانب وقفت بكل قوة مع المنتفضين وهم يطرحون شعاراتهم التي تتساوق مع حقيقة الهوية الوطنية العراقية. إذ التحم في تلك الانتفاضة معظم شرائح المجتمع، بهذا الشكل أو ذاك. وكان للشباب الحصة الأكبر في تلك الاحتجاجات والمطالب، وخاصة المرأة. فمن دون تثوير المرأة ومشاركتها في تأسيس مجتمع مدني يفسح المجال لحرية التعبير، وحرية الاختيار، والأمن للأسرة والطفل، لا يمكن لأية انتفاضة أن تنجح. وهو درس على المنتفضين التمسك به دائما. كما أن الابتعاد عن أية شعارات دينية، ومذهبية، وقومية، يقرب العراقيين من تحقيق أحلامهم. نالت تشرين تأييد غالبية المتعلمين والمثقفين إلا القلة المعتاشة على فضائح السلطة، وفتاتها، ومنافعها. والثقافة العراقية الجادة، والمبدعة، لا يمكن لها أن تكون خندقا لرؤية طائفية أو قومية متعصبة. لطالما اصطفت مع هموم الشعب منذ انبثاق الدولة العراقية. وهي ثقافة انسانية لها مشتركات مع عموم البشر على هذا الكوكب. وأي رؤية تنبو عن ثقافة التشرينيين، ومطالبهم المشروعة، ستقف عارية أمام الجميع، وستكون مرفوضة داخل المجتمع وليست جديرة بالاحترام.

□ أصدرت رواية جديدة هذا العام بعنوان "نشيدنا الحزين" كيف يمكن تلخيصها للقارئ؟

– صدمة الثقافة، الاغتراب في بيئة جديدة، الحنين إلى الوطن رغم قساوة الحروب والقمع وظروف العيش. البحث عن هوية جديدة، ثم الاندماج مع الغرب. طرق الهروب من الوطن، وتحولات البشر أثناء الكوارث، والحروب، والفتن. هذا كله عاشه أشخاص متباينو العقول والعواطف والرؤى، تناولتهم الرواية

عبر يومياتهم، وقصص حبهم، ومعاركهم الفكرية والنفسية. أشخاص عراقيون عاشوا في أوربا عشرات السنين ونسيهم البلد، ثم تحولوا إلى حكايات متواترة ينبغي تدوينها، وسردها قبل أن تختفي. شخصيات ظلت تجلس معي عبر الزمن، أو تبتسم لي حتى في المنام، أو توشوش في أذنيّ ثلاث سنين طباقا. شخصيات بعضها عراقي وبعضها دانماركي وبعضها سوري، دوّنت ثرثراتها، وموبقاتها، وأوهامها في ليل صيفي، أو تحت وابل الثلج وصياح النوارس. وعشت مع بعضها عذاب السفينة المتأرجحة وهي تعبر بحر الشمال نحو بريطانيا، أو مشيت مع البعض الآخر في دروب جبال كردستان، أو زقاق "كوجه مروي" الطهراني، أو تأملتها في مقهى البرازيل الدمشقي مع كمال الشاعر وهو يجلس مستمعا لرزان تروي حكاية صديقتها دارين الحمصية، أو عند نهر خريسان البعقوبي وحاناته المعتمة أيام الحرب العراقية الإيرانية. لقد اجتمعت الحروف في تلك الشاشة وتكونت كلماتها، وجملها، وأفكارها، بعد أن نقشتها أصابعي ليلة بعد أخرى، ونهارا بعد ثان، حتى اكتملت وانغلقت حوادثها. هي جزء مهم من تاريخ العراق المعاصر في الخمسين سنة الأخيرة. شخصيات بعيدة لكنها تفصيل بعيد ضمن الذاكرة الجمعية. تلك هي روايتي التي أصدرتها مؤخرا باسم "نشيدنا الحزين«"

ما الذي تراه في المشهد الروائي العراقي الآن؟

– في البدء ينبغي التأكيد على حقيقة أن ليس هناك معايير ثابتة في كتابة الرواية، وفي حالة النشر وسهولته في العراق، نجد تنوعا كبيرا في الأساليب الفنية، تكاد أن تتحول إلى فوضى عارمة، يغيب عنها النقد الجاد والمسؤول، مع تجاهل واضح من قبل المؤسسات الأكاديمية في مناقشة ظاهرة الانفجار الروائي. شاهدنا اليوم موجة روائية عارمة، بأساليب ومضامين هائلة التنوع. حملت معها ما يرزح تحته الفرد، أو الشخصية المتخيلة، من تأثيرات الحروب والنزاعات الأهلية والأزمات الاجتماعية من تنافر ديني، ومذهبي، وعنف موجّه مقصود ومبرمج، وهجرات نحو قارات أخرى أكثر هدوءا، وتصورات مغايرة لما تخططه الجهات الحاكمة أو المهيمنة دينيا، وسياسيا، وثقافيا. لكن ما زالت الرواية العراقية نخبوية قليلا، ولم تشكل مصدرا معرفيا للذائقة الشعبية. طبعا لا يمكن تحميل هذا القصور للرواية فقط، بل للظروف القاسية التي عزلت، أو كادت، المجتمع عن الثقافة بشكل عام. وربما ينطبق الأمر على معظم الفنون الكتابية، والبصرية، والفكرية. فالنخبة الحاكمة لا تكترث للثقافة، كون الثقافة معولا لإزاحتها عن التحكم

في الثروة، والسلاح، والاعلام. هناك وفرة في دور النشر والاصدارات الجديدة والكتابات الشابة تظهر كل يوم، يختلط الضعيف بالناجح فنيا، الساذج مع المحترف، وذلك يتطلب حركة نقدية فاعلة للتمييز بين الرواية الناجحة والرواية التي تفتقر للحرفة وسعة الأفق. حرية النشر النسبية صنعت الجناح لطيران الرواية العراقية في العشرين سنة الأخيرة، والزمن سيكون أصدق النقاد لغربلة هذا الكم الهائل من الابداع.

کتابات

ملامح الرواية العربية في الألفية الثالثة

اتجهت الرواية العربية، في العقود الأخيرة، إلى تناول إشكاليات الفرد ضمن مجتمع محدد زمانيا ومكانيا. مبتعدة بوضوح عن الشعارات الكبرى، والبلاغة الإنشائية، والافتعال. روايات الألفية الجديدة، والقرن الحادي والعشرين، انفجرت مثل بركان في أغلب الدول العربية. قل جاءت على هيئة موجة غير مسبوقة تجاوزت كل ما كتب سابقا في هذا الفن. طبعا سبب ذلك يعود إلى الانفتاح الثقافي للبلدان العربية، وتطور التكنولوجيا الرقمية، والترجمة من مختلف اللغات الحية، وتحطم القناعات الراسخة، الميتة، في وعي الشعوب العربية التي خرجت من شرنقة التابو الاجتماعي، والديني، والسياسي. بهذا المعنى استطاعت أن ترفع ما يجري في الواقع اليومي من حوارات، وهموم، وآلام، وكوارث حتى، إلى برزخ اللغة غير المتعالية، بل والمرتبكة بعض الأحيان. مما انعكس ايجابا على توسّع الآفاق المعرفية، والاجتماعية، والسياسية، في النص المكتوب روائيا. بهذا تجذّرت البيئة المحلية، والوعي الفردي، وانعكاسات الأحداث الكبيرة، في آلية تواشج الأفراد مع ما يجري حولهم ضمن المساحة الزمانية الممنوحة لهم .

روايات سورية، ومصرية، وعراقية، وسعودية، ومغربية، وجزائرية، ولبنانية، وبلدان عربية أخرى، قرأت أحداث واقعها بهوس غير مسبوق، مستفيدة من روافد الروايات العالمية التي صارت تصب في اللغة العربية، إذ فتحت سبلا روائية مبتكرة، ومقاربات تتواءم مع الحدث المحلي. تأسست هذه النقلة الأسلوبية في النثر الروائي المنقطع عن قرون من البلاغة العربية على يد نجيب محفوظ المصري، في مجمل رواياته وعلى رأسها الثلاثية. وعبد الرحمن منيف السعودي في ملحمته الروائية مدن الملح. وعدد آخر من الروائيين العرب مثل غائب طعمة فرمان، وفؤاد التكرلي، وحنا مينة، والطاهر وطار، وابراهيم الكوني، والطيب صالح، للمثال لا الحصر. هم الذين شكلوا قاعدة انطلاق لبركان الرواية في الألفية الثالثة، وقد كتبوا عن مجتمعات تملك ملامح واضحة وشبه مستقرة، عكس ما يمر به الواقع العربي اليوم. كون التجارب المؤسسة تلك نجحت في ربط هموم الشخصيات، وأنماطهم، بالحدث العام، أي التاريخ وكيف يظهر في سلوك الأفراد، وأفكارهم، وحركتهم ضمن حيز مكاني محدد .

شاهدنا اليوم موجة روائية عارمة، بأساليب ومضامين هائلة التنوع. حملت معها ما يرزح تحته الفرد، أو الشخصية المتخيلة، من تأثيرات الحروب والنزاعات الأهلية والأزمات الاجتماعية من تنافر ديني،

ومذهبي، وعنف موجّه مقصود ومبرمج، وهجرات نحو قارات أخرى أكثر هدوءا، وتصورات مغايرة لما تخططه الجهات الحاكمة أو المهيمنة دينيا، وسياسيا، وثقافيا. أي أن الروايات الخارجة من رحم المجتمعات العربية في السنوات الأخيرة، راحت تسجّل تاريخا حقيقيا للأحداث، تاريخا تفصيليا تهمله، أو تتغافله المدونات الرسمية للمرويات الحديثة .

والتاريخ الرسمي عادة ما يغفل، أو يزوّغ، اضطهاد المرأة المعتّق، الفج، والتطرف الأصولي المتوحش، وعذابات السجون والزنازين وكان القصد منها تحويل الكائن البشري إلى حيوان، وطرق الهجرات القاتلة عبر الجبال والبحار والحدود. وكانت مغامرات غير مسبوقة في الوعي البشري .

نحن أمام رواية وقائع لا رواية أفكار إذن. وقائع اشتغلت عليها الصنعة المحترفة لفن يعتبر جديدا نسبيا على الذائقة القارئة. رواية الأفكار والانشاء السردي سادت منذ ولادة هذا الجنس في الثقافة العربية بدايات القرن العشرين. رواية الألفية الثالثة مرتبكة، قلقة، وكأن التاريخ بتقلباته المفاجئة، والحادة، يرسل إليها ذبذباته عالية الرنين. وهنا بان القاع المجتمعي، المسكوت عنه سابقا، في المتن الروائي، وأسفر عن تلافيف خشنة فاقعة، ساخنة وصادمة أغلب الأحيان. وهذا ما يعتبر تطورا هائلا في نمط الكتابة الروائية في العالم العربي. الابتعاد عن القضايا الكبرى ذات المانشيتات العريضة المتصدّرة في المدونات التاريخية، والبحث عن قصص وحكايات الضحايا والمهمشين، صنّاع التاريخ الحقيقيين، جعل للرواية العربية نكهة وهوية، ووظيفة معرفية هائلة .

لقد غادر الكتّاب معطف الكائن الفرد، وهنا هو التاريخ الخطّي، وتغلغلوا في اللحم الحي. فعن طريق قراءة تلك اللوحات الشاملة من شخوص وأحداث وتداعيات جوّانية وأحلام محبطة، يستطيع أي ناقد، أو باحث اجتماعي، أو مبرمج لمستقبل بلد ما، الوقوع بسهولة على حقيقة ما يمور، ويتفاعل، خارج تلك المانشيتات البرّاقة. ربما لهذه الأسباب نادرا ما تقرأ الفئات الحاكمة في العالم العربي الرواية الجديدة، لأنها تعكس، مثل مرآة، الصورة القبيحة للحاكم، القروسطي الوعي، وبشاعة مؤسسات القمع، ومستعمرات العذاب المنصوبة في أغلب مجتمعاتنا بدوافع دينية ومذهبية، ونهب مبرمج يقوم به المتنفذون، وسرقات للمال والأحلام والمستقبل. وبالتالي فكل ذلك يصنع تاريخا حقيقيا لمرحلة ما، قرئ زورا من آخر بعيد، أو من سلطة مهيمنة محلية بأنواعها .

إن معظم الروايات الخالدة في الوعي البشري، تغذت على هذه الرؤية في الكتابة .

تولستوي على سبيل المثال في روايته الحرب والسلام. كان مدركا لربط التاريخ بالشخصيات، فقد قارب الحرب التي شنها نابليون على شمال أوربا، وروسيا لاحقا، عن طريق شخصيات روسية شاركت في تلك الحرب. ولاحق تلك الشخصيات حتى في المدن الكبرى والبلدات الصغيرة. عرض الهزائم والانتصارات، والبؤس البشري، والشجاعة والظلم، ومعادن البشر وهم يعيشون أزمة وجودية ماحقة وضعتهم الحرب في أتونها .

إن ضغط ما هو ملموس وواقعي في الحياة اليومية، وتنامي العقلية العلمية المنافية للأساطير والغيبيات والمسلّمات العتيقة، هو ما دفع بالكتّاب الحقيقين، والمبدعين الجادين، إلى تجاهل التاريخ الرسمي السلطوي ومروياته المهيمنة لتدوين تاريخ الفرد البسيط، والحالم. الفرد الساعي إلى شروط حياتية عادلة وجميلة، حضارية لا تغفل الجانب الإنساني في أي حياة. جرى الأمر في تناغم جليّ مع ما وصلته البشرية من تطور في العلوم، والبحوث الاجتماعية، والفلسفية والجمالية، وحقوق الانسان. إلا أن هذه المسيرة في تحولات الكتابة، لا يمكن لها أن ترسّخ أقدامها في البيئة الكتابية العربية دون تلك الموهبة الخلاقة للمبدع. ذلك الخيال المحلّق باحثا عن فسحة الجمال المتمثلة بالنص الروائي الناجح، والمؤثر على القارئ، الملامس لوجدانه بعمق.

إن الصدق هو وحده ما ينقذ السرد الروائي من الواقعية الفجة. بالتالي فالعرض المجاني للأحداث دون تسجيل رؤية عما يجري، سيفرغ النص من قوة الموقف، حيث من البديهي أن الرؤية تتطلب الانحياز، سواء من الكاتب أو شخصياته.

رواية جميلة عن التعاسة

من الغريب القول إن رواية "التعساء" للكاتب البلجيكي "ديميتري فيرهولست" رواية ممتعة وجميلة، فليس هناك أي جمال في كلمة التعاسة. لكن الفن العظيم، والموهبة الأدبية، والذكاء، يمكنها تحويل التعاسة كشعور بشري، إلى جمال أخاذ. قصص الناس الغارقة في البؤس، والتعاسة، والضياع الروحي، سرعان ما تتحول على يد صانع ماهر إلى دروس بليغة تجتاز محليتها، حاملة رؤاها الفلسفية، وحكمتها الحياتية، ومواقفها الشاعرية رغم حدتها وبشاعتها إلى القارئ أينما يعيش. وتلك مفارقة كل فن رفيع .

لا تروي عن حياة الطبقة الوسطى الأوربية بعد الحرب العالمية الثانية، أو الطبقة المرفّهة التي عادة ما يراها المشاهد في المسلسلات التلفزيونية، والأفلام التجارية، وقد أصبحت تلك الحياة مثار حسد لأبناء الأمم الفقيرة، الواقعة على هامش الحياة الحديثة، بل تتصادى في متونها العميقة مع رواية "البؤساء" للفرنسي "فيكتور هيغو"، لتقديم المهمشين في القاع البشري. ومؤلف رواية التعساء "ديميتري فيرهولست" كاتب بلجيكي شاب، نسبيا، فهو من مواليد عام 1972 وينحدر من عائلة فيلمنكية تتكلم اللغة الهولندية. وتشتهر تلك المنطقة ببيئتها الفلاحية المحافظة، ومصابة بلعنة الهوية، فهي ضائعة بين الألمان، والهولنديين، والفرنسيين. لا تتكلم الفرنسية مثل قسم "الوالاو" المجاور لفرنسا، ولا تنطق الهولندية باللهجة الهولندية المتعارف عليها، واللغة الألمانية مجاورة لها بأقرب ما يكون .

يكتب ديميتري فيرهولست عن عائلته بضمير المتكلم، كمن يتذكر تلك الأحداث بعد زمن طويل، لكنه يتقمص دور الفرد الأصغر من العائلة ويحمل الاسم ذاته في الرواية. وكأنه يستعيد طفولته التي قضاها في بلدة صغيرة منسية في الريف الفلامنكي اسمها "آرسينديجيم"، تشتهر بحاناتها، وكنائسها، وفقرائها الذين يقضون جل وقتهم في عالم الخمر المكتظ بالأحلام والغناء البذيء. عائلة فيرهولست مشهورة في المنطقة باحتساء البيرة، بإفراط، والغناء في الحانات، والبحث عن النساء. يعيشون جماعيا في بيت واحد متهالك هو بيت الجدة "ماريا"، ويعتمدون في معيشتهم على إعانات الدولة، وكأن الكاتب يريد اخبار القارئ أنه خرج من تلك البيئة الوضيعة كما يخرج محكوم بالإعدام فجأة إلى الحرية، ليصبح كاتبا مهتما ببيئة التعاسة التي نشأ فيها. وحين يعمد الكاتب إلى رسم صورة بانورامية عن البلدة، والريف الفلامنكي

عموما، ينتقل في تضاعيف سرده الى الضمير الجمعي "نحن" أغلب الأحيان، بنقلات ملحمية عن المجتمع البلجيكي قبل أن تصبح العاصمة "بروكسل" قلب الاتحاد الأوربي .

وتأتي تلك السيرة الجماعية تكثيفا واسع الزاوية لرؤية مجموعة معينة من البشر، كأن تكون مجموعة مهاجرة توحّدها روابط خاصة، أو صورة تراها تلك المجموعة لنفسها مكونة من أوهام، وتقولات، وإشاعات، وحوارات سريّة، ومشاعر مضخمة لقناعات مشتركة لتلك المجموعة. وهذا ما يفضله الكاتب في سرد قصة العائلة "فيرهورست" البلجيكية المنتمية إلى القسم الفلامنكي من بلجيكيا .

لقد تم رصد تاريخ العائلة منذ السبعينيات وحتى الألفين تقريبا. الجيل الأكبر تمثل بالجدة "ماريا" وتنتهي رحلتها بدار للمسنين بعد أن أصيبت بالزهايمر. وتعتبر انتباهة سردية ذات رمزية عالية إلى أنها فقدت الارتباط بالواقع وقد جرت فيه تغيرات هائلة، لا على صعيد بلجيكا فقط، بل العالم كله. ثم أبناؤها الأربعة، وأحدهما هو والد الراوي، وكانوا آخر جيل من تعساء الريف المسحوقين بالإدمان، والقيم المحلية التي قفز عليه الزمن بخطوات شاسعة .

حياة الفقراء الذين يمكن تسميتهم بالطبقة العاملة الهامشية تنحصر بين الحانات، مثل حانة "واحة الكذابين"، "بلو بايو" و"ستيشن"، والمواخير، والألعاب المحلية، والتطلعات الضيقة. حياة الريف في بلدة تعتمد على الحانات والكنائس والتمزقات الأسرية وبيوت العجزة، وهي تحصّن نفسها عما يجري في العالم بالعزلة البليدة. يضعنا ديميتري فيرهولست في قسم الفلامو من بلجيكيا، وهو يحاذي ألمانيا وهولندا، وفيخمّن القارئ أنه في "هالست" أو "خنك" أو "لوفان"، وربما في بلدة من بلدات "أنتويرب"، لكن الكاتب استطاع تقديم شخصيات طريفة لذلك البؤس، كشخصية الأعمام المدمنين، والجدة الخرفة، وصاحبة الحانة ذات التوأم القزم وهي تمارس الدعارة في أوقات فراغها. ولا يمكن إغفال شخصية العمة "روزي" وابنتها "سيلفي" العائدتين إلى البلدة من بروكسل بعد زيجة فاشلة. ثم نلتقي أيضا، وإن بشكل عابر، بعائلة إيرانية مهاجرة تعيش بجوار الأسرة، أسرة فيرهولست، "ساواش" اسم المهاجر الايراني وزوجته "مهتي"، وهما يتكلمان الهولندية الرسمية كونهم بعيدين عن اللهجة المحلية. لكن الروائي لم يتوغل في حياة الأسرة اليومية، لأن الهجرة في ذلك الوقت لم تكن ظاهرة فاقعة في المجتمع البلجيكي.

جاء التغير الهائل في المجتمع البلجيكي في بدايات القرن الحالي، وصار للمهاجرين واللاجئين وجود محسوس في الحياة اليومية، عقب نفاذهم إلى الأرياف والمدن بطعامهم وأغانيهم وملامحهم، مما رسم ملامح جديدة للمدن الأوربية أجمع. والمعروف أن قسما من الكتاب العرب القادمين من لبنان، والعراق، وتونس، والمغرب، وسورية، تناولوا حياة المهاجرين في السنوات الأخيرة في بلدان مثل باريس وكوبنهاغن وبرلين وستوكهولم ولندن ومدريد وروما، وغيرها من العواصم، تأسيسا على رواية الكاتب السوداني الطيب صالح، موسم الهجرة الى الشمال. وهي من أوائل الروايات العربية في رصدها لحياة المغتربين في أوربا، وعلاقتهم القلقة ببلدانهم، وتحولاتهم الداخلية بعد لحظة الاصطدام مع الحضارة الغربية .

واليوم، مع وجود هذا الكم من الكتاب العرب المغتربين، يفترض أن يرى القارئ العربي روايات تغوص في تلك التجربة الجديدة نسبيا. تجربة الجاليات العربية وهي تندمج في المجتمعات الغربية وتقدم نماذج روائية عن تلك التجربة الفريدة، والجديدة في الوقت ذاته، على حقل اشتغال الرواية العربية. ينبغي الكتابة عن تقلبات عالم جديد، متلاطم الأحداث، مندمج الثقافات، ذاكرته تمتد على كامل الكوكب، عكس ما استفاضت به رواية "التعساء" وهي تحكي عن "طقوس دفن" لعالم قديم.

العم "يوسف إدريس":

لقاء بعد أربعين سنة

أنت تعود إلى مكان مألوف، أو حيّز غادرته قبل عقود، وكنت رأيت مدنا وبلدانا وقارات، وقرأت كتبا في حقول مختلفة، وشاهدت أفلاما وسمعت موسيقى صاخبة وهادئة، وفي نهاية الرحلة عدت إلى ذلك المكان الحيز الذي ظل ثابتا طوال تلك السنين. والنصوص، كما نعرف، تصل كمالها ما أن تخرج من المطبعة. ذلك المكان الهلامي، الحيز ذي السمات والبصمات، هو قصص وروايات الكاتب المصري يوسف إدريس .

أربعة عقود بالضبط منذ أن حدث اللقاء بيننا. تغيرت أنا كثيرا بعد آخر قراءة لي لعوالم يوسف إدريس. فماذا وجدت في ذلك الحيز الشاسع من القصص والروايات بعد أربعين سنة من البعاد؟ أو اللقاء؟ هناك بلا شك تيار من القراء والنقاد يصر دائما على الاستهانة بالمنجز السردي العربي، ولنقل وضعه دائما بموضع المقارنة والدونية مع المنجز العالمي. وهي ظاهرة فاشية لدى عدد لا يستهان به من الهواة، والمتخصصين الواقعين تحت سلطة النص المترجم، الغرائبي بأحداثه، أو الذي ينقل بيئة مغايرة للبيئة العربية مما يجعله جديدا على ذائقتنا المحلية. عادة ما تضع تلك الرؤية المتعالية النص السردي العربي بمواجهة موجات متلاحقة من الكتابة الوافدة: موجة ماركيز، موجة كارلوس زافون، ديستويفسكي، تشيخوف، كونديرا، موجة بورخس وساباتو الأرجنتينيين، غيوم ميسو الفرنسي، ساراماغو البرتغالي، إضافة إلى أمواج مترادفة تصلنا كل سنة عبر الترجمات التي أصبحت هي الممول الأهم لدور النشر العربية وهي تسطو، دون حقوق، على تلك المؤلفات. وبعضها يطبع دون مراجعة لغوية أو تحقق من مصداقية الترجمة، ودون الاهتمام بوجود ترجمات سابقة. وحين يتحول القارئ إلى مستهلك فقط يصل به هاجس "الاستهلاك" إلى النظر بنفور للمنتج المحلي، طبعا ليس في حقل الأدب وحده. في كل شيء تقريبا .

ولقراءة الكاتب المصري يوسف إدريس ينبغي على الفرد الابتعاد عن المقارنة مع نصوص أجنبية، أي تكريس الذهن للنص ذاته، شخوصه وأحداثه وبناء خارطة الأحداث وربط كل ذلك بميزة الابداع الأولى: تمثل النص لواقعه وتقديمه بصورة فنية مقنعة، وذات بعد معرفي يلقي ضوء ساطعا على بنية ذلك المجتمع. هذا ما يوصل القارئ والمجتمع على حد سواء إلى نقطة الوعي للذات. معرفتها. والمعرفة قوة.

مهنة الطب التي مارسها تركت بصمتها على فن السرد لديه. وجاءت القرية ميدانا أثيرا له، وأعتقد أن طفولته في تلك القرى وتنقلاته المكانية بينها لم تفارق مخيلته، حيث تشبع بهندسة بيوتها، ورائحة ترعها، وأضواء مغيب شمسها وشروقها. عرف ما يعيشه الفلاح المصري من يوميات، وكيف تقضي النساء لياليها أمام البيوت الطينية، ما هي البطولة وما هي الهزيمة، ما هو العيب وما هو الشرف، وهي ميزة كاتب صادق مع نصه ومجتمعه. يطل على ذلك المجتمع عبر عدّة معرفية يختلط فيها الفلسفي، والفكري، والنفسي. من هنا امتلك حرية شاسعة في التعامل مع الأحداث، تارة فلسفيا وتارة نفسيا، لكاتب عاش الحاضر كما هو، دون اسقاطات المثقفين العائشين في أبراج عاجية .

النص الذكي كلمة تشير من بعيد إلى فكرة ما داخل الحدث، أو جملة ذات خلاصة مكثفة جدا تفتح ثغرة جديدة في الكتلة السردية. تفتح أفقا جديدا في القصة أو الرواية. ليست هناك مجانية للكلمات أو الجمل، بل يظل الوعي الفني حاضرا متيقظا. كاتب يستطيع تطويع الزمن لينسجم مع نمو الحدث في قصص لا تقل عالمية عن الكتاب المعروفين في هذا المجال. هي تسعى لمتعة الحكاية ورقصها، وحركتها، متضمنة تلك الرسالة الأخلاقية خلف الكلمات وعبر الحفر المعرفي في الذاكرة الشعبية. إنه يرصد النبض الانساني في واقع ديني، ومتخلف تاريخيا، وهي سمة البشر في كل زمان ومكان. ومن هنا اقترابها، قصصه ورواياته، من العالمية التي أدهشتنا في نصوص كتاب بارزين ترجموا في المائة سنة الأخيرة إلى العربية. وقد استخدام يوسف إدريس اللهجة المحلية بأقل قدر ممكن، رغم أن شخصيات قصصه ورواياته تستل من واقع مصري، وهي، بصورة ما، غير متعلمة، إلا أن إدريس امتلك الحنكة الابداعية في تقديمها إلى القارئ بأقل قدر من محلية اللهجة. ذلك أن معظم القصص والروايات القصيرة تعتمد على قدرة الراوي في الكشف عن هواجسها، ومعتقداتها، وميولها، وأحلامها. حكاياته تكشف روح الشعب المصري، ويمكن تعميمها على روح المجتمعات العربية والاسلامية: نحن إزاء مجتمعات محكومة بالظلال الدينية، والتقاليد الراسخة على مر قرون من العزلة، بعيدة عن بؤرة الحداثة في التنظيم والعلم والتميز الفردي. مجتمعات راسخة في الخرافة والأساطير والثقافة القطيعية، وهي سمات تكاد تتشابه في مجتمعاتنا العربية، والشرقية عموما.

ومن المدرك، والبديهي، أن الكاتب العالمي هو الذي يضع أسئلة مثل: من أنا، ما هي قريتي، كيف تعيش مدينتي، ما هي أحلام قاطنيها، كيف يأكلون، وما هي كوابيسهم، ولم حدثت تلك الحكاية وأين، وكيف تبدو الأمكنة على الخارطة، وما هو نمط حوارات البشر في المدن والقرى، لم يقتلون ويسرقون ويكذبون ويخافون ويتألمون ويسافرون، وما إلى ذلك من تساؤلات تصل بالكاتب والقارئ إلى وعي الذات، ووعي المجتمع لذاته. من هنا تأتي خصوصية السرد. ومعظم تلك التساؤلات يجدها قارئ إدريس في سرده. هو يستل شخصياته من شرائح مختلفة ، فنقع على الطفل كبطل للقصة. ونقع على المرأة، والشيخ، والقاتل، والمراهق، والمجنون، والشرطي. كل ذلك عبر لغة مشغولة بدقة ابتعدت عن الحشو والانشاء الفاقع المتفشي في نصوص كثيرة لدينا. لغة قصصية طازجة تحمل الواقع بين مفرداتها وجملها، بعضها شاعري ينبني على شاعرية الطبيعة ذاتها، وعلى الواقع رغم رثاثته، أي اكتشاف جماليات المكان وحركة البشر في ثناياه. وتجربة يوسف إدريس واحدة من تجارب عربية سردية في أكثر من بلد عربي لا تقل فنية، ولذة قراءة، من تجارب عالمية وافدة، اكتسبت الشهرة والشعبية، إن كان ذلك في القصة أو الرواية .

بارع في القصة القصيرة، وبارع في ذات الوقت بالرواية القصيرة، وكلاهما يرتكز على حدث قد يأتي مثل ومضة أو يستغرق أياما وأسابيع وشهور. يمتلك البراعة على ملء طيات الزمن بالأحداث والاستقراءات والتحليل، رجوعا بالزمن إلى ماضي الشخصية، أو عبر تيار وعي لا يفارق الحاضر، حيث تتطوع اللغة بسلاسة لإيصال ملامح الذهنية الشعبية بشكل واضح. شعبيته لا تنال من فنية نصه. وسهولة تتبعه للحدث لا تخل بعمقه التحليلي، أو غوصه في كوامن الأشخاص وسرائرهم. نادرا ما يقع يوسف إدريس في الترميز، فقاموس الشعب المكون للقصص والروايات رموزه واضحة وأمثاله حاضرة، وجذوره الحضارية ممتدة عبر القرون في كل تفاصيل المجتمع المصري. وهذا ما يريده، ويسعى إليه الأبداع بحق.

منامات نيوجيرسي

الحريق السوري المستعر خلف النص

المغترب، وهو هنا شاعرنا أكرم قطريب كاتب النص، لا يعود إنسانا سويا بل هو تلخيص للتجربة البشرية المغتربة سواء أكانت سورية أو غيرها. علما أن هناك اليوم في العالم المتوحش هذا مئات الملايين ممن تركوا بلدانهم وقاراتهم لهذا السبب أو ذاك. يوميات، واستذكارات، ومقاطع، تتجسد فنيا بلغة شعرية، يسميها الشاعر منامات، حدثت في مدينة نيوجرسي الأميركية، كون كل ما مر في حياته قد تحول إلى أحلام يقظة وتهيؤات يعيشها كل من غطس في فرن الغربة والنفي عن بلده الأم .

فحين يعيش الفرد في مجتمع ثان غريب عنه لغة، ولونا، وتقاليد، لن يعود هو ذاته قبل أن يلج في التجربة، في تلك العملية القيصرية لمنفى الروح والجسد. وهي أيضا، بتوصيف مرادف، قصائد ناعمة تسرد سيرة مغترب طوال عقود، التفت كي يتعلم حكمتها في عمره المتأخر. من ثم ليصل إلى حكمة توراتية قديمة تقول: باطل الأباطيل، كل شيء باطل وقبض ريح .

وأكرم هو ابن خالدية حمص، ودمشق، كان صديق التسكع والكتابة ومقهى الروضة في عقد التسعينيات، ومن رافق أكرم في تلك الأيام يدرك مفاتيح نصوصه، كونه درس المحاماة في جامعة دمشق، وعاش فيها حتى رحيله إلى أميركا مجتمعا مع زوجته السورية المقيمة في أميركا. تلك المفاتيح تبرق مثل نجم بعيد في نصوصه، فنجد هناك المطعم الديري الذي كان يقدم المشروب والكباب في دهليز ضيق يمتلئ برواده المثقفين في فترة الظهيرة. وبيت بندر عبد الحميد المفتوح على العالم ويرتاده مخرجو أفلام، ومسرحيون، وشعراء، وروائيون، وإعلاميات، وكاتبات. يعبق فضاؤه برائحة الطعام والتبغ، ويكتظ بأسماء مشاهير الممثلات الهوليوودیات، ومشاهير الأدب عربا وأجانب. وثمة ساحة باب توما، وقصر البلور، ومطعم السمك الذي يقدم وجبته مع كأس من العرق الريان، وجسر الهامة، والمعظمية، ودمر. ولا يمكن

نسيان مشرب اللاتيرنا الأنيق، وبار فريدي حيث جلس ذات يوم صدام حسين، كما تقول الروايات، قبل أن يصبح رئيسا للعراق بعقود .

منامات نيوجرسي هي أيضا عن الثقافة الهجينة ذات الطابع العالمي حين يختلط الشرق بالغرب، هنري ميلر مع أبي العلاء المعري، بدر شاكر السياب ورامبو الفرنسي، آدم حاتم مع بايرون، والمغترب يصبح هجينا بالضرورة، ثقافة ولهجات ولغات وعادات ومشاعر. بل يصبح بدرجة ما مثقفا عالميا، يستدير صوب المنشأ الأول. القول بذلك صحيح. لكن ذلك المثقف يندمج في هموم أكبر من همومه المحلية، وهي ضريبة الانفتاح القسري على العالم. وهنا يصبح المغترب كوكبا تائها في السماء، يرسو في بيروت مرة، ومرة في مالطا، في طرابلس مرة، وفي نيوجرسي أو نيويورك. لكنه أبدا يظل غجريا بين دهاليز المدن، والقطارات، والذكريات. ولا يشفيه من هذا الانفلات الأبدي، الضياع المسكر خارج القيود أجمع، إلا الموت، وهو مصير يعرفه المغترب جيدا. وينتظره ربما .

كيف يتحول العالم لدى المغترب إلى صور وجوه بعيدة، وأمكنة زالت، وقصص حدثت في سنة ما، وروائح طفولة، وكتب بلغات عديدة، ومدن تختلف جذريا واحدتها عن الأخرى؟ كيف يمكن التقاط ذلك كله؟ بالكتابة عنه. لا سبيل آخر لدى المثقف المغترب جسدا وروحا. وفي حال اقترابه من المواطنة العالمية تتوهج لديه حساسية مرهقة لأبسط اهتزاز يحدث في خارطة الأرض. وحين يصبح وترا مشدودا هائل الطول، يمكن لأية ريح العزف عليه، والعصف بهدوئه الداخلي، وكل ذلك يدفعه نحو عزلة وجودية مرهقة كما يعترف أكرم في أكثر من مقطع سردي، أو شعري لا فرق. عزلة بيت صغير يستدعي أشباحه القديمة صباحا وليلا، سنة بعد سنة. هذه المعاناة القاسية، والدائمة، لا يشعر بوطأتها إلا من اكتوى بتجربة الغربة .

وعلى مدى شاسع من اللغة المسبوكة عبر النصوص، نثرا وسردا، نقع على شيء غريب، أي الحريق السوري وهو يستعر خلف نص أكرم قطريب هذا: المدن المهدمة ومنها مدينته حمص، وهجرات ملايين تشتتوا بين البلدان على طريق الجلجلة المار عبر بحار، وجبال وعرة، وممرات مرعبة، ومخيمات تفتقر لأي شرط مقبول للعيش. الحريق السوري يتوهج في الكلمات، والجمل، والذكريات البعيدة، وهو ذاته

يلوث حاضر الشاعر بأصابع من غازات كيمياوية، وشظايا قنابل وصواريخ، ومشاهد رعب في السجون وتحت أنقاض البيوت المتهاوية على ناسها .

إنه إذن صوت يغني وحده في عالم لا يرحم. يتحول بعض الأحيان إلى همهمة غير مفهومة في وجود إنساني عبثي لم يعد يتقبل الندم أو استعادة الماضي. باعتبار الأمر كله استحالة ضوئية المدى، تعصف بالكائن الحي دون أن يجد لها منفذا.

الشرنقة الذهبية للكتّاب المغتربين

وأنا أقرأ قصص وروايات الكاتب الروسي "إيفان بونين" شعرت أنني أطل على عالم يختلف عن عوالم الكتّاب الروس الذين ألفناهم مثل ديستويفسكي، وتولستوي، وتشيخوف، وسواهم من عباقرة النثر السردي الكلاسيكي. شحنة الحنين والشاعرية في نتاجه ذكرتني بكاتب عراقي هو غائب طعمة فرمان، صاحب النخلة والجيران، والمرتجى والمؤجل، والمخاض، وخمسة أصوات، وغيرها من روايات كرّسها لمدينته بغداد .

لقد جذب انتباهي أن الكاتب المهاجر عادة ما يدفعه الحنين إلى وطنه نحو رومانسية شفافة تقترب من الشاعرية في استرجاع بيئته التي فارقها، أو تدفعه كي يكون واقعيا بشكل لافت، مستعيدا تفاصيل الأمكنة التي هجرها، وحوارات البشر في المكان القديم، وكأنه يقضي على روحه بالبقاء في زنزانة الماضي. الشرنقة الذهبية للمغتربين. مثّل بونين الوجه الأول للكاتب المغترب المولع بشعرنة ذاكرته القديمة، وإضفاء صورة خالدة على ما اختزنته من تفاصيل. غادر بونين روسيا نهائيا في عام 1920 بعد مجيء الثورة الروسية، ولم يعد إليها. وعاش في باريس غريبا، متأملا بروسيا التي ماتت، وجاهد كي يعيدها حية من رمادها عبر القصص، والروايات، والأشعار، لكنه طلاها بتلك الرهافة الحزينة، والشاعرية الراسخة في ما مات وانقضى. أصغر المشاهد وأدق التعابير، كمنظر قمر في ليلة صقيعية، أو خيال فتاة في شارع يطل على النهر، أو مرأى حوذي يحتسي الخمر من قنينة عزيزة على النفس بعد منتصف الليل .

كاتبنا غائب طعمة فرمان غادر بلده العراق واستقر في موسكو، ملعب الذاكرة لبونين، إلا أنه مثل بونين لم يكتب سوى عن بغداده التي يعرفها. مات غائب في موسكو. ولم يعد له في بغداد أي قبر أو متحف صغير يذكّر الأحياء بدوره في الترجمة عن الروسية، والكتابة الروائية المؤسسة للسرد العراقي الحديث. كلاهما عاش غريبا، يستعيد ماضيه في هيمنة صاعقة قلما تتكرر لذلك الماضي. لكن غائبا كان واقعيا جدا، حاول رسم ملامح مدينة مثل بغداد بحرفية ووفاء للأمكنة التي تربى وعاش فيها قبل رحيله إلى موسكو. كتب عن البتاويين، ومحلات الكرخ الغاصة بالبضاعة، وشارع الرشيد بأعمدته الأسطوانية الضخمة، والحيدرخانة ذات المتاهات، ومحلة المربعة التي نشأ فيها، منذ ولادته في عام 1927، وباب الشيخ، وبارات المدينة المحتفلة بخمرة الليل وروادها من سائقي عربات، وتجار صغار، وموظفين، ونساء يبعن الخبز كي يواصلن الحياة، وساسة خيل وشرطة سريين. لم يزل غائب في معتزله الموسكوفي

يتذكرهم بسماتهم الخشنة، وأصواتهم، ونمط حواراتهم. هو عكس بونين، تعامل معهم بتلك الواقعية الخلاقة التي تستعيد فترة زمنية محددة، متحركة، متصارعة، من صورة تلك المدينة البعيدة عن إقامته .

مات غائب طعمة فرمان العراقي في موسكو عام 1990 ودفن فيها. ومات بونين الروسي عام 1953 في باريس ودفن فيها. كلاهما لم يطيرا خارج السجن المذهّب، سنوات الماضي الخالدة التي لن تعود. ربما كان خلاصهما في ذلك السجن، وقد أدركا ذلك جيدا .

ما الذي يدفع كاتبا مغتربا لامتلاك كل ذلك الحنين والخيال الرؤيوي لاستحضار الماضي؟ وما السبب الذي يجعله خارج المكان الجديد الذي يعيش فيه، سواء موسكو لغائب طعمة فرمان أو باريس لإيفان بونين؟

كاتب مثل ماركيز عاش فترة في باريس، مغتربا مشردا، يكتب روايته الشهيرة مائة عام من العزلة، وهي عن مكان يبعد عنه آلاف الكيلومترات، فيستدير خياله إلى هناك بعينين سحريتين، وخيال ضوئي يهندس أجيالا من مدينة بعيدة اسمها "ماكوندو"، لكنه لم يندمج بأجواء باريس الساحرة. ظل يكتب ويجمع القناني الفارغة كي يعيش حياته اليومية، ويواصل مدونته السحرية في رواية ستوصله عبر الخيال الجامح، والحنين الطاغي، والشاعرية النابعة من الروح، إلى مقاعد كتّاب نوبل الكبار .

وصل إدوارد سعيد إلى كرسي الشهرة في أميركا مع معارك فكرية وضعته بين أشهر النقاد والمفكرين الأميركان والعالميين، غير أنه ككاتب مغترب لم يستطع مقاومة العودة إلى مكانه الأول. كتب مذكراته عن القدس، والقاهرة، وبيروت، وكأن تلك المرحلة العمرية الشفافة لدى أي شخص لا يمكن لها مغادرة الذاكرة حتى لو بلغ الكاتب المغترب أسمى المناصب. هل هو تنفيس لذلك الانشطار الروحي الذي لا يمكن لإنسان الخلاص منه؟ انشطار الروح وهو يتسع مع الزمن وتغيّر التضاريس المكانية .

كان بونين في قصصه الباريسية لا ينسى قصص روسيا، وحكاياتها، ولياليها. فيمكن لبركة ماء بسيطة في شارع باريسي يتجول فيه مساء، أن تسافر به إلى موسكو القياصرة، وإلى بيوت أقربائه من فلاحين وضباط. ويمكن لضوء خافت لشرفة في الحي الباريسي أن تعيد له قصة حب مرّ عليها أكثر من

خمسين سنة. لم يكتب بونين أي شيء ذي بال عن حياته الباريسية رغم أنه كتب كثيرا عن سفراته في أوربا .

نفكر أيضا بإيزابيل اللندي التشيلية التي أنتجت أغلب رواياتها وهي تعيش في أميركا، لكن مواضيعها تأخذ القارئ إلى سانتياغو، وسانتياغو فقط، مهبط روحها وجسدها وذكرياتها وصراعاتها السياسية والعاطفية والإبداعية. كاتبة منشطرة هي الأخرى بين هنا وهناك، بين حاضر ربما يكون مريحا، وماض مكتمل غادره الشخص ولم يعد يرى، أغلب الأحيان، سوى جماله، مثلما نلمس ذلك لدى بونين .

إدوارد سعيد وإيفان بونين وغائب طعمة فرمان واللندي وكونديرا، وعشرات من الكتاب العرب خارج بلدانهم، يكتبون عن الجانب الانساني من وجودهم، وهو الجانب ذاته الذي يشترك فيه الكاتب المغترب مع ملايين المغتربين في هذا العالم. أولئك الذين اقتلعوا، لهذا السبب أو ذاك، من ترابهم ونباتهم وشوارعهم ومياههم وشموسهم، ليعيشوا في بقاع أخرى تختلف في كل شيء. لكنهم مثل البشر الآخرين سيعيشون منشطرين، فنيا وروحيا، بين عالمين، وربما عوالم عدة حتى نهاية وجودهم على هذه الأرض. لم يعد الكتاب المغتربون يكتبون عن واقع مدنهم التي غادروها، فروسيا لم تعد روسيا التي كتب عنها بونين، ولا بغداد كما كتب عنها غائب، في حين يعرف القارئ أن القدس وبيروت والقاهرة هربت من زمان طويل عن تلك التسميات التي يحملها إدوارد سعيد في رأسه .

يقول بونين في قصته "الأسطورة": إن كل الماضي البشري، كل التاريخ الانساني، ما هو إلا حشد وجحافل من الأموات. وسوف يأتي يوم أنضم فيه إليهم، وسأكون أيضا مرعبا بعظامي ونعشي في مخيلة الأحياء، مثلهم جميعا، مثل ذلك الجحفل العام الذي سيغرق الأرض يوم الحشر، مع ذلك سيظل هناك أحياء، وسيعيشون وهم يحلمون بنا، نحن الموتى، وبحياتنا المغرقة في القدم، وزمننا الماضي، الذي سيبدو لهم رائعا، وسعيدا، لكونه أسطوريا.

رواية إيرانية من تبريز

الكاتب "مرتضى كربلايي لو" من مواليد تبريز 1977، وهو تبريزي من أتراك أذربيجان، كان عمره ست سنوات حين زرت صديقي "تحرير" القادم من خانقين هربا من الحرب، والمقيم عند عمه في تبريز. وعمه كان من مناصري ملا مصطفى البارزاني، وحين فشلت الثورة الكردية استقر عمه في تبريز نهاية السبعينيات. استقبلني صديقي في كراج تبريز بليلة باردة، وربما شاهدت مرتضى كربلايي لو يلعب لحظتها في واحد من أزقتها، أو يتراشق بالثلج مع أقرانه. وقد ظلت لمدينة تبريز في رأسي ظلال وذكريات شاحبة، لأنني قضيت فيها ثلاثة أيام فقط. لهذا السبب جذب نظري عنوان هذه الرواية التي تدور أحداثها في تبريز، وكنت أنا راغبا في رؤية تبريز البعيدة التي تجولت فيها قبل أربعين سنة، فماذا وجدت؟ أصداء وخيالات شاحبة، ثمة بيوت مضيئة المرمر، وشوارع ثلجية، وسحنات غريبة، ولغة لا أفهمها، تنتمي إلى عالم بعيد عن خبراتي في ذلك الوقت .

وكنت عادة ما أردد مع نفسي كلما ورد اسم تبريز هذه الأمثولة الشائعة: أصفهان نصف جهان أكر تبريز نباشد، وترجمتها مدينة اصفهان هي نصف العالم لولا وجود تبريز. رواية "جهة العربة" ذات نكهة غريبة، فضلا عن أنني لم أجد فيها تبريز القديمة. كذلك استغربت من وجود شخصيات مثقفة تبريزية غير تقليدية، في المسرح والرسم، وكتابة المقالات والتمثيل، والمقاتلين القدامى في الحرب العراقية الإيرانية يهربون من الوضوح، ومن الغاية والهدف من وجودهم. وجود روائي قائم على اللامعنى واللغة الزلقة السفسطائية. شخصيات تحاور نفسها أو تتحاور عن كل شيء، وتثير أسئلة عويصة لكن دون إجابات. الجميع يهرب من الإجابات .

كل ذلك يجري في بيئة ثلجية تكاد أن تحوّل بشرها إلى أشباح، وهم يسلكون طرقا ضيقة في الأسواق المسقوفة، وأزقة الأرمن، والطرقات الليلية، صوب هدف غير واضح. داوود وأخوه كاوة وزوجته روكسانا، الرجل المهيب الأعمى، قرة زرّين الرسام، سعيد مدرب المسرح، طبيب العيون الذي حول عيادته إلى عنوان للقاء الأصدقاء، ورقائيان بائع الكتب، والجندي الحارس في قصر الشاه، وقد تحول إلى حارس للثريات الفخمة، وأدوات الطعام الكرستالية، والفراغ الوجودي. كنيسة الأرمن تختفي أحيانا بفعل السحر. الكاتب الكبير يتجول في الشوارع مخفيا قنينة الكحول في جيبه الداخلي. وطبيب التجميل ينسب المقالات

التي ينشرها إلى أنها مترجمة ليزيد من المكافأة. كل تلك الشخصيات تتحاور كما لو كانت على مسرح خيالي، بنكهة فلسفية تميل الى الفانتازيا وانفصال النخبة عن الواقع. فلا نعرف ما هي مدينة تبريز ومم يشكو سكانها، ولا نقع على بشرها العاديين المكتظة بهم الشوارع. تغيب السياسة والاحتجاجات، وهيمنة رجال الدين، وملفات كالأقليات والصراع القومي والفقر والحريات الشخصية .

ولا يحضر في تضاعيف الرواية دائما سوى الشادور، وهو اللباس الإسلامي المفروض بعد سقوط الشاه. لقد دأبت الشخصيات على إعادة قراءة الروايات الروسية مسرحيا، ومنها رواية الجريمة والعقاب لديستويفسكي، وإعداد الممثل لستانسلافسكي، ورواية دكتور جيفاغو لبوريس باسترناك، والحلم بدمج الهيئة البشرية بالحيوانات عن طريق رسم البورتريه، وهذا ما يقوم به الرسام قرة زرّين وكأنه يسخر من الكائن البشري. من كل ذلك هناك الحذر الشديد المعقّم في الحوارات: يتحاورون عن كيفية تمثيل مشهد قتل العجوز في رواية الجريمة والعقاب، وطبيعة الرسم، والحب، والعلاقة الزوجية، ومشروعية إقامة مسلخ للأبقار، وأهمية ارتداء معطف ثقيل في الشتاء، ومشروعية الحروب والبطولة دون التوصل إلى قناعات واضحة، وكأن الغرض من تلك الحوارات هو اللعب باللغة لا غير. لا يقتربون أبدا من مشاكل المجتمع الايراني الحقيقية، وهم بذلك يستعيدون مسرحية "في انتظار غودو" لبيكيت والعبث المصاحب لانتظاره، أو فيلم الأزمنة الحديثة لشارلي شابلن، حيث يقضي الفرد حياة كاملة في تثبيت برغي في آلة تدور بلا انقطاع، حتى يتحول هو ذاته إلى آلة بلا مشاعر .

حوارات أشباح غائبي المواقف الواضحة. شخصية الجندي الحارس في قصر للشاه في طهران، شخصية الأسير في العراق، أي ما أطلق عليه بالشخص المهيب وما زال يمتلك بندقية قنص حتى اليوم، وهي أصداء خافتة مثل جرس بعيد للحرب العراقية الايرانية وقد تركت ذكرياتها في المجتمع، وكأننا أمام حلم فانتازي بحياة أخرى عن طريق المسرح، والرسم، والضياع في أزقة البازار. وأغرب فصول الرواية وجود مقهى باسم مقهى الحمير، وهو مقهى سريّ يقع في أزقة البازار ولا يدخله إلا النخبة، وحيث يلتقي المثقفون المنفصلون عن واقع تبريز وايران عموما، ف"الحمرنة" هي السائدة في فضاء المقهى. وليس غريبا أن يضع مثقف، كاوة كاتب المقالات الجنونية، مخلاة مليئة بالتبن، يدس فمه فيها، ويتبختر وسط المقهى على وقع سخرية الجالسين وضحكهم. كل ذلك لا يفسر هذه الفانتازيا التبريزية إلا بمحاولة تلك

النخبة بالهروب عن طريق الفن من واقع معروف يصعب تغييره، وتفضل السلطة أن تضع ذلك النمط من المثقفين المنفصلين عن واقعهم في مقهى سري للحمير. وجاءت الحوارات لتشير وتلغز، لكنها لا تحدد الفكرة، والسبب معروف، خوف من مواجهة قوة غاشمة. لقد بذل المترجم الأهوازي أحمد حيدري جهدا هائلا في لملمة تلك الحوارات الفلسفية بلغة عربية سلسة، ساهم فيها أيضا العراقي كريم راهي في التحرير كما يكتب المترجم في مقدمته .

الهامستر

الهامستر هو الخلد المتواري في حفرته خوفا على حياته، وهي رواية عن اللاجئ السوري المتخفي في دهاليز بيروت .

ودهاليز بيروت هي مخيم صبرا، والأزقة المظلمة الغاصة بالنفايات، والبنايات المهجورة، والأرصفة البعيدة عن أعين الشرطة، والغرف الصفيح. واللاجئ السوري في تلك الدهاليز بمارس مهنا لا تكاد تطعم الفم، كبيع الزهور، وصبغ الأحذية، وأحيانا العمل غير الرسمي في صحف، ومسارح، ومؤسسات، وكراجات، ومزارع نائية. أما إذا كان ذلك اللاجئ من دون أوراق رسمية فعادة ما يكون مكانه السجن، أو التشرد على الأرصفة مستذكرا حياته القديمة قبل الزلزال في مدن سوريا وأريافها .

وبيروت عاصمة كوسموبوليتية، فيها السوري، والعراقي، والفرنسي، والقادم من دول أفريقية عليلة. والجميع يبحث عن حل لأزمة شخصية، سببتها عادة، ظروف قاهرة كالحروب، والمجاعات، والعنف، والتقاليد الاجتماعية، والقيم التي لم تعد تناسب الحياة المعاصرة. من ذلك الخليط البشري في بيروت الكوسموبوليتية التقط الكاتب شخصية روايته الهامستر، جبرائيل الذاهل، بعد أن قذفه تسانومي الحرب السورية من الشمال إلى دهاليز بيروت .

بصورها التعبيرية واندفاع أحداثها نحو الهدف، تستحق الهامستر أن تتحول إلى فيلم سينمائي لأنها تلامس الحس الإنساني فينا. وهي تلاحق مصائر بشر فقدوا الأمل بكل شيء، وهم يقفون عراة أمام التهميش، والقسوة، والبحر المتلاطم من تقاطع المنافع، وتنافر الغايات، في مجتمع متصارع مع نفسه، ومع ايقاع العصر .

وكانت حياة الشباب، وهم من مختلف المشارب، ويعيشون في مخيم صبرا بغرفة مستأجرة خالية تماما من مقومات العيش الكريم، تروي هموما صغيرة، ساذجة بعض الأحيان، لكنها بالمحصلة تحيلنا إلى ظلم شامل يحكم الإيقاع البشري في بيروت السفلية، بحاراتها، ومشرديها، ولاجئيها، ومصادفاتها المفخخة، ويأسها، بعد أن تحولت إلى كرة تتقاذفها أرجل اللاعبين الكبار .

جبرائيل الكاتب السوري المطرود من عمله، محمد بائع الورد في الطرقات، وهو سوري أيضا، ريا اللبنانية العاملة في المسرح، جوليا البيروتية ، الأثيوبية الغامضة، إيميلي الفرنسية، وأشخاص آخرون

يعيشون حياتهم البسيطة حسب إيقاع بيروت، إيقاع شارع الحمرا المزدحم، والروشة المطلة على البحر وهي تنتظر الحالمين، ومقهى تاء مربوطة، وباعة الملابس، والمسارح، والفنادق الرخيصة، والأزقة الموبوءة بالمخدرات. وكل ذلك يخفي بؤس ما تعيشه تلك الشخصيات وفراغ ساعاتها القلقة المذعورة من الغد. وقد لاحق الكاتب أرواحها الداخلية، وانفعالاتها حول ما يجري لها كل يوم، حيث يقتنصها وهي ذاهلة مما تعيشه، حالها كحال جبرائيل السوري الذي وجد نفسه وسط غابة فجأة، بعد أن انتقل من قريته الهادئة في شرق سوريا إلى مدينة بيروت الغاصة بالضجيج .

رواية سلسة اللغة، ترتكز على تجربة حقيقية. يحوّل الكاتب تلك التجربة إلى دلالات مضمّخة بروح انسانية تجبر القارئ على الميل إليها، وتبنيها، والتعاطف معها. وهي تجربة مضافة إلى تجاربنا الروائية العربية التي راحت تنتمي إلى واقعها المصنوع من حروب، وتهجير، وأحلام مجهضة، وتوق إلى عدالة انسانية غائبة، وظلم اجتماعي يقع على المرأة خاصة، وعلى الضعفاء من مجتمعاتنا. الضعفاء الذين يسقطون في مسننات مطحنة هائلة هرست وتهرس الجميع، وما زالت في عنفوانها.

خليل صويلح:

فرس تحتضر ورصاصة تنتظر

نص مؤلم لمن عاش في سورية بعضا من حياته، أو كلها. فهو غناء في مأتم، وعويل في بريّة موحشة، ورثاء قادم من الحاضر. حاضر الأعضاء المقطوعة، والأمهات المفجوعات، والمدن العريقة المقلوبة عاليا سافلا، والشعب الذي صار يبحث عن الطعام في براميل قمامة السادة: المافياويين الجدد، والضباط الكبار، والمجرمين العتاة الذين حوّلهم الإعلام الساقط إلى رموز وطنية. يبتدئ كل ذلك المأتم من لوحة الغلاف: صورة فوتوغرافية لبيت دمشقي متداع .

بيت آيل للسقوط غاب الانسان عنه، وعلى الدرج المتآكل لوحة مكتوب فيها "شرقيات عنبر". والانسان هاجر بعيدا، أو قتل ذات ليلة، أو دفن تحت القصف والانفجارات القادمة من محتلين، وجيش بلا صفات، وإرهابيين مفخخي الأجساد، وغزاة يحلمون باستعادة ماض بائد، وموتورين دينيا. كل واحد من هؤلاء يروم سورية على مقاسه، وعلى الصورة التي يحملها في رأسه، إلا أن الواقع ليس صورة فوتوغرافية، فالفرس المحتضر ينتظر الرحمة لتنقذه من العذاب، عذاب الموت المتشعب العابر للزمن الأرضي. والصورة تحتوي على أشلاء مادية كالأسلاك المقطوعة، والأسس المتساقطة، والنباتات الذابلة، والأبواب المغلقة، والدرج القاتل بعتباته المهترئة وحاجزه المنزوع الذي يأخذ أي شخص صاعد إلى الهاوية المميتة .

يقول خليل صويلح في روايته: أسير بلا هدف في شوارع مدينة تحتضر على مهل، مثل فرس، مدينة تبدل جلدها مثل أفعى كوبرا تبتلع ذاكرتها وتاريخها وعمارتها كل يوم، مدينة مهجرين ومهاجرين، مدينة الطاعون والجرب والمعتقلات، مدينة الحملات التأديبية المتعاقبة منذ ألف عام وعام، مدينة المتسولين والمجاعات والخزي: احذر أن ترفع رأسك عن المعلف، أو تقفز من سور الزريبة إلى الخارج، أو تغادر جحرك أيها الفأر .

وقبل أربعين سنة قال الشاعر الراحل رياض الصالح الحسين: يا سورية الجميلة السعيدة/ كمدفأة في كانون. يا سورية التعيسة/ كعظمة بين أسنان كلب. يا سورية القاسية/ كمشرط في يد جراح. نحن أبناؤك الطيبين/ الذين أكلنا خبزك وزيتونك وسياطك. أبدا سنقودك إلى الينابيع/ أبدا سنجفف دمك

بأصابعنا الخضراء/ ودموعك بشفاهنا اليابسة. أبدا سنشق أمامك الدروب/ ولن نتركك تضيعين يا سورية/ كأغنية في صحراء .

قارئ هذا النص الباكي يجد لوحتين تتجاوران على امتداد الصفحات: الأولى عشناها مع سرد يومي لمدينة تحتضر ببطء مثل فرس، ابتدأ فيها الراوي رحلة إلى قرية طفولته في مدينة الحسكة السورية ولم يزرها منذ عشر سنوات، وذلك ليرى قبر أمه، وليجد مكانا مختلفا عما حمله في ذاكرته. رأى أن الكارثة مرت على الأنهار، والقرى، ومقابر العائلة، والبشر، بوقع ثقيل أحال المكان إلى ماض دارس: ببشره، وقصصه، ومشاهده. رحلة نحو الحدث ثم العودة منه بقبضة من الشخصيات والمواقف والمشاهد التي يوحدها الخراب، الخراب والحزن. واللوحة الثانية متخفية، مواربة، شعرية، تظهر مثل ظلال خلف النص: عسف النظام وسجونه وبراميله المتفجرة على المدن، والهجرات المليونية خارج الحدود، والاستباحات الأجنبية والطائفية، والعنف في الشوارع، والانفلات المافيوي في الحياة اليومية. وتلك هي لوحة النزف الشعري لسورية الحاضر .

نعم، يرتكز خليل صويلح على مادة سردية خشنة، "قيامية" التجلي، وصورة شعرية استحضرها الكاتب عبر خبرته في ذلك الفن. فهو بدأ شاعرا قبل أن يتحول إلى الرواية. في السرد يأخذنا إلى حكايات سورية بعد انفجار الثورة الشاملة، والقصص التي رافقتها، من قتل عبثي، وإرهاب تكفيري، وخراب مدن وقرى كانت ذات يوم تنعم باستقرار نسبي. استقرار البنى التقليدية والحكايات المتوارثة والتقاليد. وفي الركيزة الثانية، ركيزة الشعر، صور ضبابية، ورموز، وايحاءات لما لا يمكن توظيفه في هذا المسلخ المعروض في الهواء الطلق. ونحن كقراء نستطيع تلقّيه وهضمه كوننا شهودا على أكثر من عقد لم يفرز سوى التعذيب، والتغييب، والتشرد بين المدن والبلدان، والغرق في صحاري الماء المسماة بحارا ومحيطات على أرض الهروب من المجزرة. الهروب من المسلخ. من الجيوش المتحاربة على صفحة الخارطة .

هناك إذن المعلومة، وهناك التحليل الفكري للواقعة، ودمج ما هو ثقافي بما هو واقعي، كون الراوي يعمل صحافيا في جريدة، وقراءاته السابقة وجدها تتطابق أحيانا مع ما يجري من أحداث: له ولمدينته: كافكا المعتم كثمرة جوز، ساراماغو الأعمى الحائر بالهواجس، خوان رولفو في بحثه عن قريته من خلال روايته بدرو بارامو. البير كامو في رواية الغريب وهو يتلقى خبر موت أمه ببلاهة على ساحل جزائري،

والشاعر العبثي نوح شعبان "بندر عبد الحميد" القادم من الجزيرة السورية، المقيم منذ أربعين سنة في بيت لا يبعد كثيرا عن حانة "فريدي" الشهيرة. الرسامة المنتحرة ولوحتها البومة العمياء، وهي صدى مفهوم لرواية الإيراني "صادق هدايت" الذي مات منتحرا بالغاز في باريس خمسينيات القرن العشرين.

نص مثقف، يقرأ الأحداث بدلا من روايتها، لذلك تتحول بعض الصفحات إلى مذكرات يومية، خاصة والكاتب لا ينجز رواية ذات خط مترابط يلضم الأحداث، بل يروي ما يشاهده ويعيشه في حياته اليومية بحساسية كاميرا فائقة الدقة. وحياته اليومية مثل سورية المعروضة في صورة الغلاف: أصدقاء غابوا بسبب الهجرة والموت والجنون والنسيان، وشبكات دعارة تستنزف الخزين الأخلاقي للمجتمع، وفوضى عارمة ما زالت تدوّم منذ عقد من السنين، ونعوات يومية تلصق في مقهى الروضة، وعلى سيقان شارع العابد، وملل يعيشه المثقف لتكرار الأحداث ذاتها، والخطاب الرسمي ذاته، والدجل الفكري والاجتماعي الذي يجاهد للتستر على المأساة، والمذبحة وبشاعة المسلخ .

ولكن الكاتب من خلال كل ذلك، بسرده الواقعي وإيحائه الشعري، يفتح الذهن على "العالم السفلي" لتلك "السورية التعيسة كعظمة بين أسنان كلب" كما وصفها الراحل رياض الصالح الحسين، شاعر سورية المنبوذ، قبل أربعين سنة. هي إذن رواية عن الزمن المضغوط بين دفّتي كتاب، والنزيف المسموع عبر الكلمات، وربما النشيج، إذ لا فرق.

دمشق التي ترتدي خوذة

لكنها دمشق التي ترتدي خوذة، وتخوض الحرب مع الجميع .

هنا حيث مشاهد الأحياء المدمرة، والدبابات المختالة بجوف ممتلئ بجنود يخافون الموت كأي بشر طبيعيين، وحيث لقطات بعيدة لاشتباكات عنيفة، وصور انفجارات ضخمة، وجنود مغبرون بوجوه مرهقة تبتسم كما تفترض بها مذيعة التلفزيون المسلحة بمايكروفون مصوّب نحوهم .

نازحون في خيام، طوابير من المتعبين أمام مراكز التصويت الانتخابية، أرتال من المهجرين يحملون صررا على رؤوسهم هاربين من قصف ما. جثث مبللة ومصفوفة بعناية على حافة نهر قويق في حلب. وهذه الشذرات الواردة في الرواية جزء بسيط مما تبديه تلك الحرب من بشاعتها، وتعابيرها المهولة الكالحة، وكان خلفية حزينة للأحداث .

الراوي، وهو الكاتب ذاته، يقص علينا أحداث رواية ينوي نشرها في دار نشر، ويسلّم المحررة فصوله بالتتابع، ويناقش تلك الفصول مع المحررة حنان. وشخصية الرواية المكتوبة جندي مثقف يعيش يوميات دمشق الحزينة. والبعد الفني للرواية يتمثل بتلك اللعبة السردية بين الواقع والخيال، وهما يندمجان في مستويات عديدة، لتضيع الحدود بين الحاضر والمتخيل .

جميع الشخوص في الرواية، سواء المتخيلة أو الواقعية تعيش حالة روحية مهشمة، مدحورة، تبحث عن خلاص بسبب واقع الحرب العبثية التي نخرت جسد المجتمع مثل سرطان مرعب. رند، لارا، حنان، سالم، الجندي مجهول الاسم، وآخرون كثر، شخصيات تختلف أسماؤها لكنها تتشابه بهزائمها الداخلية، ومثل ذلك كاتب الرواية. وشخصية كاتب الرواية يشبه المؤلف لاهتمامه بالمسرح والسينما واللقطات السريعة والمتنقلة عبر كاميرا روائية متخفية، وقد استفادت الرواية من هذا النمط من السرد السينمائي والتلاعب بالزمن. حتى جاءت الرواية وكأنها ذات أبعاد هندسية تتحرك على أكثر من مستوى في أمكنة السرد أو أزمانه. كل ذلك كي ترسم بانوراما هذه المدينة المشبعة بالحرائق، والانفجارات، والغياب .

نحن في دمشق مقهى الروضة، ومنطقة جرمانا، والمزة، وشارع الباكستان، ودمشق القديمة، بأزقتها المتاهيّة، وباب توما، ومدينة السلمية، وحماه في غرفة تحقيق، وكل تلك الخلفية القديمة الراكزة في ذهن عشاق دمشق السابقين. أماكن فقدت طعمها منذ وقت طويل. وغابت عن أزقتها، وكراسيها، وواجهاتها، وحدائقها، أغاني فيروز، وطمأنينة آخر الليل، وضوضاء مطاعمها وحاناتها، وأحلام شبابها .

نعم، تلك الأماكن لم تعد هي ذاتها، ذبذبات الغائبين، والمهاجرين، والمفقودين، تهيمن على أفقها مثل سمفونية مرعبة كتبها تشايكوفسكي. لقد مسخت الأحداث، منذ انطلاق أول احتجاج من ساحة التحرير ضد السلطة، مرورا بالمجازر والابادات والقذائف وركام الأحياء المدمرة كل ما كان مألوفا ورائعا. كل شيء، كل شيء، لا جدائل للصبايا الشقر في باب توما، ولا عبق الياسمين عند حديقة السبكي، ولا أمسيات قاسيون المطلة على الغوطة. فللوصول من جرمانا إلى الصالحية في قلب دمشق عليك بالمرور بعشر حواجز للجيش، تطلب منك ابراز هويتك، وتفتيشك بحثا عن السلاح. وخلال أسبوع واحد فقط انتحرت امرأة من الطابق السابع، واختفت نساء، ووري الثرى أصدقاء وأقرباء لم يتجاوزوا العشرين، وقصفت قاسيون بالطائرات، وشع ضوء القذائف في أفق الغوطة بلون الدم. صمتت ضحكات، وهاجرت الطيور، وفقدت العلاقات الحميمية بين جسدين وهجها القديم .

والبطل كاتب الرواية يتطلع في كراسي مقهى الروضة علّه يقع على وجه من وجوه أصدقائه القدامى الذين سجنوا، أو قتلوا، أو هجّروا، أو رحلوا عبر البحر إلى بلدان نائية هربا من ويلات الحرب المسعورة التي ابتلعت عقدا بأكمله. هذا الفقدان يجعل من بطل الرواية كائنا عبثيا، لا منتميا، لا يتبنى أي موقف واضح تجاه ما يجري له، وما يجري حوله. إنه يقدم الحاضر رغيفا ساخنا، خارجا من الفرن كما هو. يقدم الجروح والندوب في الأرواح . يقدم النحيب كما لو كنت، أيها القارئ، في مقبرة شاسعة، لكنها تغص بالبشر .

كل الشخصيات المتعاقبة في الرواية، المتخيلة منها في رأس الكاتب أو الواقعية، يرصدها المهند حيدر مثقلة بجروحها الغائرة وإن بدت طبيعية. تأكل، وتمارس الجنس، وتتحرك في الحارات والأزقة مثل أشباح وجلة من ماضيها، وحاضرها، ومستقبلها. إنها رواية بشر خارجون من زنزانة. من جحيم يومي. من غابة موؤودة لأحلام كسيرة ومحبطة. لذلك ليس للرواية نهاية، إذ تبقى نصا مفتوحا على الجحيم.

ونشيج طويل يصدر من المعسكرات، والمقابر، والوجوه المهزومة، وغرف التحقيق، والأحياء الدمشقية المدمرة، وأشباح الراحلين ممن ابتلعتهم البحار، أو مزقتهم القذائف. وهم ليسوا محكومين بالأمل على الأطلاق .

فلا أمل مع العنف، والمعارك، والسلاح، والطبول العالية .

وهذا ما حدث، للأسف، حين وضعت دمشق الخوذة على رأسها.

"السدية" رواية سوداوية عن التعذيب في "العهد الديمقراطي"

يمكن تصنيف رواية" السدية" للكاتب علي عدنان بأنها من روايات أدب السجون. وأدب السجون جزء من حقل أوسع في التعبير الفني عما يجري في الواقع العربي، عبر إبداع موصوف بالرواية، والقصة، والشعر، والسيرة الذاتية. وقد شاع هذا النمط من الأدب، أي أدب السجون والمعتقلات والتعذيب، في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، وهي فترات نشط فيها اليسار العربي ومثقفوه، وشهد المجتمع موجة من الوعي والانفتاح على العالم .

والسدية في اللهجة العراقية هي نقّالة تستخدم للمرضى والجرحى ممن فقدوا القدرة على الحركة. ولكنها في هذه الرواية أداة من أدوات التعذيب، وهي إلى حد ما تناظر آلة التعذيب التي وصفها كافكا في روايته "مستعمرة العقاب". حيث يوضع السجين في السدية ثم يلف مثل مومياء بأربطة وأقمشة حتى لا يستطيع حراكا، فيبدأ الشرطي أو السجان بوضع كيس بلاستيكي في رأس السجين كي يقطع عنه الهواء. وفي أوقات أخرى يجلس على صدره بكل ثقله حتى يعجز عن التنفس ويقارب الموت. لا تقتصر فنون التعذيب على السدية بل هناك تعليق اليد في السقف، والكهرباء، والتجويع، والتعطيش، والدفن الحي، وقطع الأذن، والاغتصاب، والمحاكمة الوهمية، والحرمان من النوم، وابتزاز الأهل، وذلك كله لدفع السجين إلى الاعتراف بجرم قد لا يكون هو من ارتكبه. وهذه هي حالة بطل رواية السدية المسمى "علي"، وهو اسم الكاتب ذاته "علي عدنان" الذي استلته قوة مجهولة من غرفة الزوجية بعد منتصف الليل.

القارئ العراقي، والعربي أيضا، أطل على تلك الزاوية المعتمة من مجتمعه ذات يوم عبر رواية أخذت شهرة واسعة في حينها، هي رواية الكاتب السعودي عبد الرحمن منيف المعنونة "شرق المتوسط". تناولت رواية منيف الزنازين، والتحقيقات، والحياة اليومية داخل السجن، والتعذيب المرافق لها. وما كان يسمعه المواطن العادي في الجلسات الخاصة والإشاعات المنتشرة في الشارع عن عنف السلطة، تجسّد بشكل فني في تلك الرواية، حيث نالت شهرة واسعة بين الفئات المثقفة. أما على صعيد الشعر فحضر ذلك في الشعر الشعبي لدى مظفر النواب، وقد مر النواب نفسه بتجربة السجن في "نقرة السلمان" القريبة من

الحدود السعودية، إذ تجاوب جمهور واسع مع تلك القصائد المليئة بالشجن، والاعترافات المأخوذة تحت التعذيب، وصوت الأم الرافضة لانهيار ابنها أمام المحقق الجلاد. وفي فترات لاحقة قرأنا رواية "طريق جهنم" لأيمن العتوم، وتناولت سجون ليبيا في عهد معمر القذافي والفظائع المرتكبة بحق المعارضين سياسيا. وفي الفضاء السوري أخرج الكاتب مصطفى عبدالله روايته "القوقعة" المكرسة للحياة المرعبة في سجن "تدمر" السوري، وكان الكاتب نفسه عاش التجربة لأكثر من خمس عشرة سنة. رواية "تلك العتمة الباهرة" للطاهر بن جلون المكتوبة بالفرنسية، تعيد القارئ إلى بداية السبعينيات في سجن "تزمامرت"، لشخصيات مغربية اتهمت بالقيام بمؤامرة على الملك.

أما رواية "شرف" لصنع الله ابراهيم فكانت من الروايات المميزة لهذا النمط من الأدب، وكشف فيها صنع الله واقع السجون المصرية وشكلت وثيقة إدانة للظروف غير الانسانية السائدة في الزنازين. طبعا لا بد من القول إن من الصعب على المبدع الكتابة عن السجون والمعتقلات إلا إذا عاش التجربة، ربما من هنا نجد هذا النمط هو الأقل انتشارا بين حقول الأدب. بينما تمظهرت صور السجون وما يدور فيها بين السلطة والضحايا، في الرواية خاصة، كونها تحتمل تناول فترة زمنية طويلة تستغرق أحيانا عشرات السنين، وتسهب في رصد المشاعر المختلفة، والحالات الغريبة الحاصلة خلف الزنازين، عكس الشعر أو الفنون الأخرى من مسرح، وفن تشكيلي، وسينما. كان ذلك الأدب الخاص جدا، نافذة في جدار الرقابة الشديدة للأنظمة العربية، وستارها الحديدي المفروض من قبل ديكتاتوريات عسكرية لم تكن ترضى بخروج أي من ممارساتها القمعية إلى العلن، ومن هنا لاقت رواجا شديدا لدى القارئ العربي .

وفي الحقل السردي العراقي، وهنا تقع المفارقة، كتب الروائي فاضل عباس روايته "زقاق الألم" عن واقع السجن والتعذيب في عهد الديكتاتورية. وقد اتهم البطل بكتابة شعارات على الحائط ضد النظام مما جعله يدفع سنوات طويلة من حياته معتقلا في سجن الاستخبارات العسكرية، واصفا حالات سوريالية عما كان يجري في ذلك المعتقل، وقد كانت التهمة هي انتماؤه لحزب الدعوة الاسلامية المعارض لنظام البعث. ومن المفارقات أن الكاتب علي عدنان كتب روايته السدية عما يجري في سجن الاستخبارات العسكرية في سامراء ومن ثم في سجن تكريت، بعد اتهامه زورا وكيديا بتعاونه مع الارهاب وتنظيم داعش. رواية عباس فاضل تناولت فترة الثمانينيات بينما اعتقل بطل رواية السدية في سنة ألفين وخمسة عشر، ورغم

أن الفارق الزمني بين الروايتين يجاوز الثلاثين عاما، وأن رواية فاضل عباس عن النظام الديكتاتوري ورواية علي عدنان عن السجن في النظام الديمقراطي، إلا أن التفاصيل: القمع، والاذلال، والبربرية، كانت واحدة في كلتا الحالتين والزمنين. حتى أن شخصيات الجلادين تكاد أن تتشابه في سلوكياتها ومتعهم الغريبة في اذلال البشر. في الحقيقة تشابهت أساليب التعذيب في الروايات العربية المذكورة سابقا على رغم اختلاف الحقب الزمنية، والدول، والأنظمة الحاكمة، وهذه واحدة من غرائب المراحل التاريخية التي تمر بها شعوب الشرق عامة. ونحن نعرف على سبيل المثال أن كافكا اخترع روايته المرعبة "مستعمرة العقاب" في بدايات القرن العشرين، لكنها لم تعد موجودة في معظم دول العالم المتحضر .

قرأنا في أحداث رواية السدية عن قوى تتحكم بمصائر المساجين من الصعب اكتشافها. شبكة عنكبوتية تمتد في المكان العراقي الشاسع بمختلف تلاوينه، تخطط وتنفذ بذكاء مظلم برامج، وخططا مسبقة للتعامل مع شعب كان متماسكا نسبيا على صعيد الهوية الوطنية. قضاة وميليشيات وضباط وشيوخ عشائر وانتماءات طائفية ودينية وقومية، وأصابع من خارج السجون والمحاكم تستفيد من اتهام أبرياء، ومن تحطيم أسر وتشويه سمعة وتلفيق تقارير مع غياب حقيقي لقضاء نزيه، وادعاء عام محايد. وتتباين المقاصد من ذلك، فهناك الفائدة المادية، وهناك الخلافات السياسية والمذهبية، وهناك مؤسسات لا تريد للمجتمع أن يعيش بسلام واستقرار. هناك تطرف ديني، وولاءات أجنبية، وعمالة شبه مكشوفة، ومافيات اقتصادية ودولية .

إن من عاش في العراق بعد سقوط النظام والاحتلال الأميركي، شعر بسطوة كل تلك الدوافع في الشارع العراقي، مدنه، وسجونه، ومحاكمه. علي عدنان كتب عن كل ذلك، إضافة إلى أنماط المعتقلين وأفكارهم ونزعاتهم الفردية بعد أن توضع في اختبار القسوة، والاذلال، واليأس، ليتحول البعض منهم إلى حيوانات لا علاقة لها بالبشر. طبعا ينطبق ذلك على السجناء والسجانين، وشيء ما على جزء من المجتمع أفقدته الزلازل السياسية والحروب توازنه ومرتكزاته الحضارية

روايات المدن

رواية زهير الجزائري "باب الفرج" نموذجا

الروايات المكتوبة عن مدن معروفة تغري بالقراءة، وفي العراق لاحظت وجود عدد من تلك الروايات مثل: رواية "آخر الملائكة" لفاضل العزاوي، وهي تأخذ القارئ إلى مدينة كركوك في منتصف القرن العشرين، هذه المدينة المختلطة بعربها، وكردها، وتركمانها، وآشورييها، واحتكاكها البدئي بالانكليز بسبب اكتشاف النفط فيها. ورواية "باب الفرج" التي استعادت مدينة النجف في فجر الحداثة العراقية بدايات القرن الماضي، وأمكن لزهير الجزائري رسم لوحة شاملة لمدينة ذات نكهة خاصة منذ القدم. كتب زهير بحق ملحمة المدينة كما لم يكتبها أحد قبله، حيث يختلط في سرده الحدث، والتحليل، والنص الديني، والصراع بين العلمانية والرؤية الماورائية. أما رواية "أهل النخيل" لجنان جاسم حلاوي فقد وضعت القارئ في أزقة البصرة، ومحلاتها، وأساطيرها، وصياديها، وحركاتها السياسية، وأساطير نخيلها، ولياليها الهادئة. وكانت اللغة المشغولة باهتمام فائق هي الرافعة الكبرى للأحداث، والناظم لها. في حين جاءت رواية "مسامرات جسر بزيبز" لتضيء سنوات بعيدة من قرى غرب الفرات "الرمادي"، بطقوسها وعاداتها وغجرها وانتقالاتها الحادة في السنوات الأخيرة من قرننا الحالي. روايات مكتوبة عن المدن العراقية لها نكهة خاصة، فهي تحفر في خارطة مجهولة التضاريس بعض الأحيان، ولكن بمجموعها تقدم رؤية شاملة عن بلد الرافدين في صعوده وهبوطه وتقلبات أحواله، وهناك بالتأكيد روايات أخرى من هذا النمط لم يتسن لي قراءتها أو تذكرها. في مزاوجة بين الرؤية السردية، والحس الصحافي، والفهم الاجتماعي لتاريخ العراق، يبتكر الكاتب زهير الجزائري في روايته "باب الفرج" مدينته، مدينة النجف، بمحلاتها، وأزقتها، ومفرداتها، وطقوسها، وشخصياتها الثرية، لينجز ملحمة تاريخية يمكن اعتبارها أكبر من رواية، مستعيدا فيها مدينة محاطة بالصحارى، في لحظة مفصلية من التاريخ، هي بداية القرن العشرين.

تدور الأحداث في الفترة المحصورة بين نهايات الدولة العثمانية وبواكير الإحتلال الانكليزي للعراق في الحرب العالمية الأولى. وقد غطت مروحة الأحداث قوساً واسعاً، زماناً ومكاناً، امتد من إمارة الشيخ خزعل في الأحواز حتى مكة المكرمة أثناء موسم الحج وبيع العبيد، مروراً بمعارك الحرب العالمية الأولى حين تقابل فيها الجيش الانكليزي مع الجيش العثماني وحلفائه من العشائر الجنوبية. بجمل قصيرة تنبني على إيقاعات سريعة، مقتصدة، وحوارات متوترة، يلاحق الروائي عائلة الشيخ مرتضى، بزوجاته الأربع

وأبنائه وأخوته، حيث يتتبع تلك الشخصيات ومصائرها، ببراعة وصبر وكأنه كاميرا ذكية تدوّن ما يدور أمامها. وتتلاحق في السرد مزاوجة بين الأحلام، والوقائع، والحوارات، عبر خليط زمني يبلغ بعض الأحيان كما لو أنه يقفز على السنين ليجد الخيط بين الأجداد والأحفاد، وبين الأحداث المتناثرة في رقعة جغرافية شاسعة.

وما يلفت النظر عند قراءة "باب الفرج" (منشورات المتوسط 20019) هو تنوع الشخصيات، إذ نقع على العامل البسيط، والفلاح، والإقطاعي، ورجل الدين، والأمير، وتاجر العبيد، ونقع على الأمي والمجنون والشاعر والخطيب، كل يكشف عن دواخله بلغته، وهواجسه، وأحلامه. وعلى صعيد الأمكنة تواجه القارئ أحداث تدور في مدينة النجف أو في مكة أو بغداد، وفي ساحات المعارك وعند ضريح الإمام علي، حسب ما تقتضيه جذوة الفن في رصد جذور الشخصيات، وتواريخهم، والمعاناة التي درجت عليهم. فترصد الرواية ذلك الصراع المستعر داخل العباءة الدينية المهيمنة على المدينة، وما يتمخض ويفور تحت السطح، خاصة بعد دخول الحداثة ممثلة بالفكر العلمي القادم مع الصحافة، والمجلات المصرية والبنانية، والكتب المترجمة وهي تخترق ستار الجهل والقناعات الدينية المهيمنة على فضاء المدينة منذ قرون.

وتمثل دخول الحداثة بالقطار، والمشروطة، واهتزاز الحياة التقليدية تحت وقع التطور، وضرورات الحياة اليومية، واحتكاك العراق بالعالم سواء عبر الحروب، أو الاحتلالات، أو الأخبار الوافدة مع المجندين في السفربرلك العثماني. أي فجر التنوير وهو يشرق على هذه المدينة الصحراوية، والمعروف أن مدينة النجف متعددة الأعراق، والمنابت، والمرجعيات الدينية، فنرى العوائل التقليدية سواء في التجارة أو الدين، كي نقرأ عن آل كاشف الغطاء، وآل شبر، وعائلة الجواهري، وعائلة الكليدار، والخليلي، والرفيعي، وبيت كمونة، وغيرهم ممن لعبوا أدواراً في حياة المدينة تجارياً، ودينياً، وفكرياً، وإذا بالقارئ يجد نفسه في متاهة حكايات، وأزمان، وأمكنة، أسفر استحضارها وتوظيفها في المتن الحكائي، عن قدرة الكاتب على صناعة رواية غير مألوفة في السردية العراقية، أي ابتكار مدينة من وهج الخيال.

وزهير الجزائري ولد ونضج شابا في النجف، وتشبع بفضائها الحضاري، والاجتماعي، والسياسي، حتى هاجر خارج العراق في نهايات عقد السبعينيات من القرن الماضي، ثم استقر ردحا من الزمن في عمان، وبيروت، ودمشق، وجبال كردستان العراق، فضلا عن احتكاكه مع الثقافة الأوربية، وهو الأمر الذي أعطى الرواية نكهة عراقية سافرة، لكن بتقنيات حديثة استفادت كثيرا من تطور فن الرواية المعاصر.

ومثلما كانت النجف محوراً للرواية فإن مرقد الإمام علي كان محوراً للمدينة، وسر هيمنتها المعنوية على شريحة كبيرة من المسلمين، وكل ذلك أحياه زهير الجزائري بنمط شائق من السرد عبر الحياة اليومية لأسر عديدة بنسائها، وشيوخها، وأطفالها، ومراهقيها، علمائها وشعرائها وهم يعقدون مساجلاتهم الشعرية في مجالس النجف، فيخرجهم الشعر أحياناً عن ورعهم وتزمتهم ولو مؤقتاً، كما حصل مع الشاعر سعيد الحبوبي، شاعر الخمرة الروحية، الذي استشهد في المواجهة مع الجيش الانكليزي عند تخوم البصرة. والخيال المجنح كان وسيلة الروائي في الغوص داخل البشر، في الماضي والحاضر، متخذا من علي، الصبي ابن الشيخ مرتضى الذي يمتلك موهبة الطيران في سماء المدينة، ناقلاً أميناً للقصص والحوارات والوصف، فجسد لنا لغة العامة، ولغة النخبة التجارية والدينية، والهواجس والأسرار، في تلك الحقبة الاستثنائية من حياة مدينة النجف. هذه التقنية أعطت للراوي سلاسة الحركة في الزمان، والمكان، وفي مختلف الظروف، نراه مرة في الكوفة ومرة في مكة، في قلعة الشيخ خزعل أو داخل المرقد، يروي ما حدث لأهل المدينة حين تفشى فيها مرض الطاعون، وصار المرقد يكتظ بالجثث لأيام وأيام.

ولم تغب مقبرة السلام، وهي أضخم مقبرة في العراق وتقع على تخوم مدينة النجف، عن أذهان الأحياء ممن تخطوا ويلاتهم وحروبهم وأمراضهم وحزازاتهم، مذكرة إياهم بحكمة المغادرة ذات يوم عن الأرض مهما كانت رخية وجميلة. ويهيئ زهير كل ذلك كي يستعيد مدينته بنبضها، وأصواتها، وأمثالها، ومخاوفها، ومسراتها، وليشارك القارئ متعة الاطلالة على التاريخ وشقاواته، ومعاكساته، سواء المأساوية منها أو المفرحة. لكن دون أن ينسى رصد تلك التحولات الكامنة، المقموعة، أو المعلنة، في نسيج مدينة ظلت مغلقة لقرون، إلا أنها بدأت تتفتح على أحداث العراق عن طريق حواضره البعيدة، كالكاظمية، وبغداد، والكوفة، والبصرة. وكأن ما يوحد ثنايا تلك اللوحة الروائية، ذات النفس الملحمي، هو نسغ المدينة التاريخي يتغلغل في المشاهد، والأحداث، وجرس اللغة، على امتداد الرواية. ذلك النسغ هو ما يشد

أجزاءها ويدفع بالقارئ إلى متابعة القراءة وخوض مغامرة الطيران على أجنحة الراوي. الراوي الحاضر دوما خلف كل تفصيل، وحوار، ونقلة زمنية أو مكانية.

نجح زهير الجزائري بروايته "باب الفرج"، وهو أحد أبواب المدينة، في أن يعرض مجتمعاً عارياً، مثل لوحة بانورامية مشعشعة الألوان والخطوط والأبعاد، مجتمعاً ثرياً رغم بؤسه الوجودي، فجاءت الرواية، بحق، خطوة شاسعة على سلم الرواية العراقية والعربية.

اكتشاف الحب

هي قصة حزينة عن عائلة مكونة من زوج وزوجة وصبي. يكتشف الزوج أن زوجته مصابة بسرطان الثدي. ومن هنا تبدأ هذه المذكرات العابقة بمشاعر إنسانية مؤثرة. إصابات السرطان مألوفة في العراق بعد عشرات السنين من الحروب، والانفجارات، والقذائف المعبأة باليورانيوم غير المخصب والأسلحة الكيمياوية. وما لا يعرفه أحد من مواد مشعة فتكت بملايين العراقيين وأدت إلى تشوه الأجنة، وتصاعد الأورام الخبيثة، وانتشار العاهات الجسدية. سرطان الثدي شائع في العالم كله. وهو معضلة من معضلات العصر. المؤثر في جعل هذه الثيمة الكونية أن الكاتب استطاع تحويلها إلى حدث انساني عميق، يقفز به من المحلية نحو مديات أخرى تختلط فيها مشاعر الوفاء بالحب، بتجاذبات الأرواح التي تتألم كل يوم. وربط الحدث الشخصي بالأوضاع العامة في المنطقة هو ما أعطاها بعدا روائيا ناجحا يستحق الإشادة. كتبت الرواية بطريقة المذكرات الشخصية.

فالبطل هو الكاتب ذاته، خريج كلية الفنون الجميلة في بغداد، واشتغل لاحقا في محطة تلفزيونية. أي أنه ناضج الرؤية والتجربة، يشتغل في الثقافة البصرية والمكتوبة، وخدم في الجيش العراقي وقت الحصار. مذكرات شبه يومية تمتد سنوات في الزمن، لكنها تتمسك بمنطق الرواية المتزن وما فيه من حوارات، وتخيلات، وتحليل للسلوك البشري. وتنجح في استقراء ما تستبطن الشخصيات من هواجس ومخاوف وقلق وجودي، واجتماعي. هدوء الحدث الخاص، والعلاقة العميقة بين زوجين بتفاصيل يومية ملتقطة بدقة وذكاء، موضوعا كله أمام عنف الواقع المصاغ من حروب طائفية، واحتلال، وتعصب، وتغييب للمنطق، ولّد في هذا النص تواشجا بين الفردي والجمعي، الحدث السياسي والمعاناة البشرية التي تصل إلى أقصى مرمى لها ألا وهو الموت. رواية ليست عن المجد الشخصي بل عن التضحية، لأن الرجل في النهاية هو الذي دفع حياته ثمنا للوفاء، وثمنا لموقف فردي جاهد أن يبقيه نظيفا من وحول السياسة.

عاشت المريضة ومات المنقذ، وهي كما نعرف مفارقة تحصل في الحياة كثيرا. اللغة السلسة المسبوكة عبر تزاوج الفكر، والحركة، وقراءة الشخصيات بدراية، أنتج رواية متماسكة تمضي مباشرة إلى إيصال رسالة الفن المتمثلة بتقديم الجميل والسامي لدى البشر رغم الظروف الشاذة والقاهرة المحيطة بهم. يضاف إلى ذلك نفاذ الكاتب، وعبر ذلك الحدث الانساني، والشائع، إلى ملامسة حكمة الوجود، ومعنى

الألم، وشفافية العلاقة الزوجية وأبعادها أثناء مرورها بانعطافات قاتلة، كالمرض المزمن لواحد من الطرفين، أو اختلاف النظرة نحو الحياة ذاتها. قدم الروائي شخصيات ملموسة وأليفة، تابع حياتها خلال أكثر من عشر سنوات، وفي خارطة متغيرة اكتوت بها مدينة الموصل والعراق كله، خاصة حقبة ما بعد ألفين وثلاثة، قاعدة، معارك طائفية، انهيار الدولة، هجرات، احتلال الموصل من قبل دولة الخلافة، الوحشية المصاحبة لذلك الاحتلال، تحرير المدينة، أربيل، بيروت، بغداد، حصار التسعينيات، من ثم تجربة الرقص مع الموت بشكل يومي. وهو ما أنتج لغة حية، ثرية، بتأملات فكرية ناضجة.

الأدب الروسي

توقف القارب فقفزت منه إلى الأرض وأنا أنظر إلى الوراء، كان الشاطئ المقابل خاليا، وعاد عمود القمر يمد جسرا من الذهب عبر النهر كله. وبلغت سمعي نغمات فالس قديم من وضع "جوزيف" لا نّير فكأنها تودعني. كان "غاغين" على حق فإن أوتار قلبي جميعا قد ارتعشت تجاوبا مع تلك النغمات المبتهلة المسترحمة. قرأت ذلك المقطع في رواية قصيرة للكاتب الروسي تورغينيف، اسمها "آسية"، نشرت أول مرة في عام 1858، في مجلة "سوغريمينيك" الروسية. وكان ذلك المقطع على لسان بطل الرواية العاشق، أما غاغين فصديقه الذي تعرّف عليه مع أخته آسية في مدينة ألمانية. وقد جذب انتباهي اسم ذلك المؤلف الموسيقي، وكيف امتلك التأثير الساحر على قلب البطل، في تلك الأمسية الموسيقية جنب النهر. تركت "تابليت" القراءة وسريري المجاور للنافذة الزجاجية الواسعة المطلة على الحديقة، ومضيت إلى كومبيوتري للبحث عن تفاصيل أكثر عن حياة ذلك الموسيقي ومقطوعاته.

وتبين لي أنه مؤلف نمساوي عاش بين 1801 وبين 1843، وقادني الفضول إلى أن استعيد اللحظات الموسيقية التي تركت بصماتها على البطل، فبحثت عن ذلك الفالس المذكور في الرواية، عبر الغوغل، ورحت استمع إليه وأنا أحدق في شجر الحديقة، وطيورها، وسمائها. كانت السماء زرقاء خريفية، وأحسست وكأنني عدت إلى الوراء 170 سنة، في خضم شعور بهي هو أنني أتشارك مع تورغينيف تلك المتعة الشخصية بسماع ذلك الفالس. علما أن ثقافتي الموسيقية بعيدة كل البعد عن التراث الموسيقي الغربي. ما جلب لي الفخر، والسمو، حيث أنني توحدت مع أجواء رواية تعود إلى القرن التاسع عشر، وهذه هي المتعة من القراءة إذن: ضغط الزمن ليصبح عمرا إضافيا للقارئ. بدلا من أن تعيش ستين سنة، أو سبعين، فأنت تعيش مئات السنين عبر القراءة .

جاءت رواية "آسية" ضمن مختارات تبلغ الألف صفحة لقصص وروايات تورغينيف القصيرة. جربت سابقا قراءة "الآباء والبنون" و"الدخان" لتورغينيف، إلا أنه، حسب ما أتذكر، لم ينل من اهتمامي الكثير. وما أغراني بقراءة هذه المختارات هو مترجمها الروائي العراقي "غائب طعمة فرمان" بالاشتراك مع "مواهب الكيالي". أعود إلى قراءة الكتّاب الروس كلما سقطت في فسحة من الكآبة، والملل، والفراغ. ودائما ما

أجدهم هناك بانتظاري، مثل مخلّص متسامح ودود. الكتاب الروس في زمن القياصرة يدهشونني كل مرة، وفي مختلف المراحل العمرية. أنا الذي أقرأ الروايات منذ خمسين سنة تقريبا. عربية ومترجمة.

أقرأ في رواية الحرب والسلم ل "تولستوي"، وأنا مستلق على سريري أحدق إلى الخريف الماثل في أوراق الشجر الأصفر وهو يتساقط أمام واجهة الشباك العريض، أعود مع الرواية مئتي سنة إلى الوراء، لأتابع حروب نابليون في أوربا، وحياة النبلاء الروس في قصورهم الباذخة، بعيدا عن حروبنا الحاضرة وأوبئتنا الساخطة على الجنس البشري. وتولستوي حتى وهو يروي ملحمته، لا ينسى تفصيل جزمة الإمبراطور الروسي وهو يستعرض الجند الذاهبين إلى المعركة، أي سرد أخاذ وأية عين روائية ملهمة.

كان يلبس شعرا مستعارا وشاربا مستعارا، وكان كل شيء فيه زائفا ومستعارا وذا سواد لامع حتى آخر شعرة في جسده، وكان يضع الأحمر والأبيض طيلة النهار. وكان الناس يؤكدون أنه يتمتع بموهبة خاصة في إخفاء تجاعيد وجهه بواسطة أسلاك حلزونية دقيقة يخفيها تحت الشعر المستعار. كما كانوا يؤكدون أنه يرتدي كورسيه، لأنه فقد ضلعا من ضلوعه وهو يقفز بلا مهارة من إحدى النوافذ أثناء مغامرة غرامية حدثت له في ايطاليا. وكان يعرج بساقه اليسرى. ويؤكد الناس أن له ساقا زائفة من الفلين ، لأن ساقه كسرت في باريس في مغامرة أخرى. وقد يكون في هذا بعض المغالاة، ولكن من المؤكد أن عينه اليمنى كانت من الزجاج، ولكنها كانت متقنة إلى حد يصعب معه ملاحظة أنها اصطناعية. وكانت اسنانه صناعية كذلك، وكان يقضي الأيام بطولها في الاغتسال بالمياه المعدنية ووضع العطور والأدهنة. تلك صورة كاريكاتيرية أبدعها العبقري فيودور دوستويفسكي لشخصية أمير عتيق، ومدّع، وذلك في رواية حلم العم، وهي شخصية يمكن العثور عليها في ما حولنا، لدى(مثقف)، أو (سياسي)، أو (شخص عادي)، وحتى في (بلد) من البلدان، أي حين تحاول إقناع الآخرين، بكل الطرق والوسائل، بشخصية أخرى غير شخصيتك الحقيقية، وهكذا نمط من البشر عادة ما يزدهر أيام الأزمات والفتن والمنعطفات الحادة، واختلاط الأوراق بين صحيحة وزائفة.

تورغينيف، غوغول، ديستويفسكي، تولستوي، شيخوف، بونين، أكثر الروائيين العالميين توغلوا في الروح البشرية، في الحب والغضب والجبن، في النذالة والشجاعة والبؤس والكبرياء والانسحاق والفقر والغنى. توغلوا لا عبر ظروف اجتماعية غريبة أو شاذة، كما فعل معظم الروائيين العالمين، بل لامسوا في

تلك الصفات الانسان الفرد، العاري، حتى أنهم وقعوا على جوهره ذاته. لدى الكتاب العالميين يرى القارئ السوداوية والتشاؤم مثلما عند كافكا، المغامرة والشجاعة كما يكتب عنها همنغواي، الغرائبية والسحر في المجتمع الأميركي اللاتيني كما عند ماركيز ويوسا والليندي وسواهم. المجتمع المحلي وخصوصياته لدى الكتاب الأفارقة، واحتماليات الواقع عند الياباني هاروكي موراكامي وبورخيس وساباتا. مآسي المجتمع الألماني تحت وطأة الحرب كما عند ريمارك وغونتر غراس، وهكذا. في حين تظل ميزة الكتاب الروس هي الكتابة عن جوهر الأنسان، وهذا ما جعل شخصيات رواياتهم، وقصصهم، خالدة تقرأ في كل مكان من الأرض، وفي كل زمان من تاريخ البشر .

هل يعود السبب إلى قربهم، واندماجهم، واحتكاكهم الحي، مع تلك الشخصيات؟ هل يعود ذلك إلى طبيعتهم الشخصية فائقة الحساسية والعمق والاستشراف الفني، أم إلى الطبيعة الامبراطورية للمجتمع القيصري وقد شملت مختلف الأعراق، والثقافات، والنماذج البشرية؟ هل يعود الأمر إلى موهبة خلاقة لن تتكرر مستقبلا؟ كل ذلك جائز. وجائز أيضا أن تكون تلك النخبة من الكتاب قد وقعت على الخريطة الجينية للروح الانسانية، بنزواتها وترددها واقدامها ووضاعتها ونبلها، شغفها ونفورها وهشاشتها ولطفها، من دون أن نعرف سببا محددا، أو دافعا بعينه أوصلها إلى نحت ابداع خالد مثل ذاك.

"إنعام كجه جي" تستعيد "بلاد الطاخ طاخ" عبر الحكايات

يمكن لأي نص أن يكون ممتعا في القراءة لأسباب كثيرة، كالوصف الذكي للبيئة، وسلاسة اللغة بإيقاعاتها المبتكرة، والعمق الفكري التأملي للأحداث، والطرافة، وابتكار المشاهد والحوارات، وزاوية النظر الفريدة للحياة، ثم الحكاية الطازجة. ولعل هذه القصص جمعت بعضا من تلك المواصفات السردية كلها، إلا أنها تميّزت بحكائيتها التي تغري القارئ بالمواصلة، والانتقال من قصة إلى أخرى بانتظار له سمة الفضول لما سوف تجترحه الكاتبة في سطورها التالية. هي ذاكرة دقيقة، شعبية، ساخرة أحيانا، ومتنوعة بسبب تجربة الكاتبة في الأمكنة التي زارتها أو عاشت فيها. والذاكرة هي الخيط السري الذي انتظم القصص أجمع، وكأنها تقدم خلاصة لمعاناة زمنية مديدة، تغتني بالأشخاص الغريبي الأطوار والمواقف المفارقة، والبيئات المتنوعة مكانيا وزمانيا. نجد طريقة محترفة في تحريك الذاكرة تلك بين الماضي والحاضر، الطفولة والمشيب، مع ربط حكائي يجمع نتف الذكريات لصياغة قصة ممتعة تقسر قارئها على المتابعة .

وعادة ما يتوفر ذلك للكاتب المحترف، وإنعام كجه جي من الكتاب المحترفين بعد تجربة روائية مهمة في السرد العراقي والعربي، يتذكرها القارئ في روايات شهيرة كالحفيدة الأميركية، وطشّاري، والنبيذة، وغيرها. يرفد تجربتها ممارسة صحافية ممتدة لعقود، ومن تلك الخبرة الصحافية برعت في صياغة قصتها "صورة المرحوم" و"الكاميرا الأولمبس". إضافة للحكائية، والذاكرة، والمتعة المحسوسة في القصص، يمكن تلمس سمة الاغتراب بوضوح. شخصيات مغتربة، مستوحشة، عاشت بعيدا عن بلد نشأتها، أدلّ سماتها الانشطار الروحي بين بلد المولد وبلد العيش، والذاكرة القلقة التي يندمج فيها، بعض اللحظات، الماضي بالحاضر، فيتحول الفرد إلى عجينة تقترب من فقدان هوية الشكل والانتماء واللغة، وتفاصيل الأمكنة الغريبة. وكل ذلك طبعا ثمرة لأجيال عربية هائلة العدد تغرّبت في أوربا بعد قدومها من العراق، ومصر، ولبنان، والجزائر، وأفريقيا المستعمرة، والمغرب، وغيرها من البلدان. وشكّلت فرنسا، خاصة، مصهرا لم يتوقف يوما في تكرير حياتها، وما يتبع ذلك من تبلور غريب وطريف لتلك الشخصيات. وهو ما أغرى الكاتبة في تحويلها إلى مادة قصصية، لها نكهة غير محلية، قد لا تنتمي إلى بلد يعينه .

عارية في الوزيرية، عمياء في ميلانو، نخلتي، مرآة كردوسة، مع هذه القصص وغيرها يقف القارئ عند نصوص يمكن تسميتها بنصوص الاغتراب، أو النصوص "الكوزموبولتية". نصوص ذات رنين مميز لا يشبه النصوص الوطنية، أي المكتوبة ضمن واقع وطني محدد كالعراقي أو اللبناني أو المصري. وهي بشكل ما واحدة من تمظهرات الكتابة السائدة في اللحظة الحضارية الراهنة، بزوال الحواجز الحضارية، والاندماج البشري عبر التكنولوجيا الفائقة التطور، والآفاق العلمية المحلقة بعيدا عن الأساطير. والتجربة هي النضج والحكمة والمعرفة، وقد فاضت تلك الخصائص على معظم القصص، ولوّنتها بالمعنى من الحياة ذاتها، ومراحل تغيراتها على الكائن البشري المتصل بالموت الأكيد في النهاية. لذلك جاءت الشخصيات مكتملة التجربة، تضع القارئ في دائرة المشاركة لنغمة النضوج وحكمة الوجود البشري المحكوم بالزوال. ومن هنا يبرز سمو التواضع، وفهم تلك السيرة الإنسانية المؤطرة بين قدرين، قدر الولادة وقدر الموت .

أول مفارقة يلمسها القارئ في هذه القصص تتجلى في الغلاف، فهناك الرقصة المولوية المعروفة لدى المتصوفين التي أسسها جلال الدين الرومي، لكن الغلاف الراقص يحمل صورة أرنستو جيفارا الثائر اليساري المقتول في أحراش بوليفيا. وكأن الغلاف إيحاء بمفارقات تلك الشخصيات التي سيراها القارئ بعين الخيال، ويعيش معها على الورق. التناقضات الفاقعة، الايمان والإلحاد، التحرر والتقديس، الهنا والهناك، الذاكرة القزحية والحاضر المر، الوهم وشراسة التحولات الاجتماعية، وقد حكمت المفارقات تلك شخصيات القصص بوضوح. وتجلى عاليا بقصة "بلاد الطاخ طاخ"، حيث يهرب تمثال الديكتاتور في متحف الشمع لكي يستعيد تمثيل دوره كقائد أوحد، كليّ القدرة. يرتدي نياشينه القديمة، ويبرز شاربيه الذكوريين، وينفخ صدره، بعد أن هرب من المتحف بالتواطؤ مع الحارس كي يستعيد دوره بإتقان، في فيلم يتناول حياته الذهبية. وهنا نقع على الكوميديا المجهرية المتخفية عميقا في روح معظم شخصيات القصص. المرأة التي زارت مصر وجلبت مرآة ترى في بلورها تفاصيل حياتها، والمنظّفة الجزائرية التي تصاب بصدمة لأنها اكتشفت صورة ل"هواري بومدين" في بناية عتيقة. وكانت الصورة ملقاة في زاوية المراحيض لتلك البناية. هي مفارقة الغلاف نفسها، حين اندمج جيفارا برقصة أدّاها الحلاج على جسر بغداد قبل مقتله.

وقصص "بلاد الطاخ طاخ" هي أيضا حكايات النساء، وقد بلغت بهن الحكمة منتهاها بعد التجربة المتواصلة في الزواج، والانجاب، والسفر، ومغادرة الجمال القديم، واستقبال خريف العمر الملوّن بأمراض الجسد. وهي لا تنتهي حتى تصل بهن إلى المقبرة. منهن الصحافية الشابة وهي تروي بداياتها في مهنة المتاعب، والمسافرة بين المطارات والحدود، والأرملة الفرنسية الحاملة لرماد زوجها النحات لتدفنه في مقبرة أعظمية بغداد، ثم العاشقة في زمن الكهولة. تجارب غنية، مريرة، سعيدة، متشائمة، ممتدة لأعمار كاملة. وفي بلاد الطاخ طاخ، بلاد الفقر، والازدواجية الأخلاقية، وهيمنة العقل الأسطوري، والذكورية الفاقعة، وخراب الحروب والهجرات والانفجارات المباغتة، تصبح الحياة مشكلة أزلية يعيشها الفرد يوميا، وهو يحلم بالهروب منها حتى لو كان الهدف كوكبا شمسيا نائيا. وذلك عكس البلدان المستقرة، والمتطورة، التي تخطط لأيامها، وتسكر بلذّاتها اليومية ونجاحاتها، وعادة ما تكون الحياة فيها تجربة سحرية تستحق أن تعاش، وهي مفارقة أخرى خبيئة عميقا، ومجازا، في قصص الكاتبة العراقية إنعام كجه جي.

في رحاب فؤاد التكرلي

هذه هي المرة الثانية، وربما الثالثة، التي أقرأ روايتي فؤاد التكرلي "الرجع البعيد" و"المسرات والأوجاع"، سبب إعادتي للقراءة هو تعبي من قراءة الروايات الأجنبية المترجمة، وحنيني إلى حياة بغداد القديمة، خاصة فترة السبعينيات بما فيها من مرارات وذكريات جميلة، وتفتّح على العالم، وهي الفترة التي تتناول أحداثها رواية المسرات والأوجاع، ثم قررت قراءة العملين دفعة واحدة، كي يمكن لي فهم تجربته في الكتابة الروائية: أسلوبه، وتقنيته في السرد، وكيفية استخدام البيئة العراقية عبر الرواية ولغتها وشخصياتها، وكان التكرلي رائدا في هذا المنحى هو الذي جعل من بغداد ساحة للأحداث.

ورغم البعد الزمني بين كتابة الروايتين لكنني وجدت تشابهات كثيرة بين العملين، ووجدت كيف يختبئ الكاتب خلف نصوصه، ومن ثم كيف يكرر رؤيته في عملين وإن تباينت الأحداث والشخصيات. تشابهات في اللغة التحليلية، والتقنية، والغوص إلى عمق الشخصيات النفسي. لم يوظف المكان بتفصيل كبير بل أشار إلى الأمكنة والشوارع الرئيسية متجاهلا الوصف المبالغ به لبغداد، أو بعقوبة، أو خانقين، وهي الأمكنة الرئيسية في الروايتين. قرأت خاتم الرمل منذ فترة طويلة وأتذكر أنه كرسها لمدينة بغداد فقط.

استبعد فؤاد التكرلي التأثير السياسي الآني في كلا الروايتين رغم أنه وضع إطارا زمنيا للحقبتين، أي أواخر حكم عبد الكريم قاسم في الرجع البعيد، ثم حقبة السبعينيات حتى اندلاع الحرب العراقية الإيرانية في المسرات والأوجاع. كلا الروايتين غذّتا الخطى بشخصياتهما وتفاصيلهما ويومياتهما نحو المأساة والكارثة: انقلاب شباط في 1963، واندلاع الحرب صيف سنة الثمانين تقريبا.

وباستبعاد الحدث السياسي المباشر، وفعله على الشخصيات، ركّز التكرلي على الجانب الاجتماعي والأسري خاصة، وصراع الفرد مع محيطه بتناقضاته، وتخلفه القيمي، وسعيه للخروج إلى نور العقل والاستقرار والعدل، وثقل الحاضنة الأسرية على أفرادها. كان يستبطن دواخل الشخصيات بعمق، وأحيانا بشكل مبالغ به، وكأنه طبيب نفسي أو معالج روحي يستمتع بالحفر في تناقضات الشخصيات العراقية ودوافعها، خاصة الجنسية المكبوتة، ويقترب بعض الأحيان من الروسي ديستويفسكي، وهو يبدي إعجابه بهذا الروائي الفذ على لسان أحد الشخصيات "توفيق لام" بطل رواية المسرات والأوجاع. وإضافة إلى السعة الثقافية في فهم الشخصيات، وقدرة الغوص في الأرواح، احتفظ التكرلي بلغة القانون والمحاماة، وهو كما معروف اشتغل طويلا في هذا الحقل، فأثرت تلك المواصفات السرد الروائي عبر إلقاء الضوء على

الشخصيات والأحداث متناولا ذلك بمنظور متعدد الزوايا، وأحيانا غير مفكر به عند الشخص العادي. هذا الجانب هو ما يوحي بالثقافة العميقة المنفتحة، وامتلاك البراعة في نقل الحدث من مستوى معين إلى مستوى آخر، وهي معضلة تواجه معظم كتاب الرواية.

وجدت الحوارات بين الشخصيات شائعة جدا في روايتيه، وظفها كثيرا لكشف ما تفكر به الشخصية، أو لتصبح معبرا إلى طبقة أخرى من طبقات النص. ولم يتورع التكرلي من استخدام اللهجة العراقية، أو الفصحى المتكئة على اللهجة، بهذا زاوج بين الفصحى والعامية دون أن يشكل ذلك خللا، أو ضعفا في نسيج اللغة، وهذا الأمر يحتاج دون شك، إلى براعة روائية وفهم عميق للشخصية.

معظم شخصياته مهزومة، محبطة، تبحث عن طريق، تغرق أحيانا بالهواجس والأحلام والكحول والضياع، كون الظروف التي وضعت وسطها تشكل جدار قمع لها، بل وتأتي بعض الأحيان أقسى وأكبر من قدراتها، بالذات الشخصيات المتعلمة التي لا ينسجم تعليمها ورؤاها مع تخلف الواقع وقيمه البائدة. يحب ويكره، يسرق ويصلي، يفشل ويدّعي الانتصار، مهان وينتفخ بالكرامة الزائفة، يعشق ويفكر بقتل حبيبته، يكره السلطة ويحابيها، متعلم تعليما عاليا ويدب مع الطقوس والتقاليد، أليست هذه شخصية الفرد العراقي النموذجية على أرض الواقع، ومنذ أكثر من قرن من الزمان؟

إلى جانب غائب طعمة فرمان، أعتقد أنهما الروائيان اللذان امتلكا الريادة في تطويع الواقع إلى الفن الروائي، عبر "اللغة" العراقية وتفرعات لهجاتها، والأمكنة المحسوسة والمسماة في البيئة الروائية، والموروث المتجلي في ذهنية الشخصيات، ومقاربتهما للهمّ الإنساني في لحظة تاريخية عادة ما تسميها الرواية أو تشير إليها، سواء عرضا أو نتيجة ضخامة ضغطها وتأثيرها على سيلان الأحداث. كانا وفيين للمحلية كمادة أولية للإبداع، وكثّفا الرؤية الثقافية في الكتابة، مع ما تحمل تلك الرؤية من ضعف أحيانا، بدون ادعاء انشائي أو تضخم لغوي مستجلب من الثقافات الأخرى.

التقيت بفؤاد التكرلي مرتين، وكانت الأولى في مكتب المدى الدمشقي بعد الألفين وثلاثة، ووجدته يجلس على كرسي بسيط في صالة المدخل، وأظنه كان يتابع وقتها إصدار أعماله الكاملة، والمرة الثانية في وزارة الثقافة العراقية حين التأم هناك مؤتمر للمثقفين العراقيين سنة 2005 كما أتذكر، ووجدته بين

عشرات المثقفين القادمين من الخارج، بالإطلالة الخجولة والتواضع الملحوظ، والابتسامة المواربة، وكنت وقتها أرأس تحرير النشرة اليومية التي كانت تصدر عن المؤتمر، لكن اللقاءين كليهما كانا عابرين، وسريعين، لم يتح لي الوقت والظرف للحديث معه، ونقل اعجابي الشديد بكتاباته، وهذا ما ندمت عليه لاحقا.

هواجس القراءة في مشاعية الترجمة

وفر الحجر البيتي، بسبب جائحة كورونا وما جلبته من غياب للسفر والمشاريع الجادة بمرتجاها ومؤجلها، فرصة كبيرة للقراءة، وكان للكتب المترجمة من روايات وشعر وأبحاث ونقد الحصة الأكبر من المتابعة، والاطلاع، لي شخصيا على الأقل. فما زالت الترجمة إلى العربية قاصرة عن نقل المهم في الإبداعات العالمية، من فكر وأدب وعلم، وتكاد أصغر دولة أوروبية لا تقارن مع الدول العربية مجتمعة في غزارة ما يترجم. كل ذلك يجري في غياب خطة عربية واضحة أو مشروع للترجمة يسد النقص الحاصل في كل الحقول المعرفية. عدد قليل من الدول العربية تبنى خطة للترجمة، قادتها مؤسسات رصينة، عدا ذلك تعتمد الترجمة على جهد فردي، أو جهد دار نشر تفكر بالربح وليس بمشروع نهضوي تنويري .

إن أغلب التراجم المقدمة إلى القارئ العربي، تخضع لاعتباطية الاختيار ومزاجية المترجم، وحسابات دار النشر، وهي تجارية في الغالب. رغم أن أهمية أي دار نشر تكمن في ما تقدمه من ابداعات عربية حصرا، فالكتب المترجمة متاحة للجميع ولا تضع بصمة للدار. يشيع كتاب مهم في أوروبا أو أميركا وتسارع دور النشر العربية إلى التسابق على ترجمته، وربما هذا ما جعلنا نلاحظ وجود أكثر من ترجمة لعمل واحد، سواء كان العمل رواية أو عملاً فكرياً. وقد جر كثير من الإشكالات بين دور النشر حول حق الترجمة، في ظل غياب قوانين ضابطة، ومتابعة صارمة حول الموضوع، وذلك واضح وطبيعي ومعروف، إزاء النهم الكبير للاطلاع على ثمرات حضارية مغايرة. لكن ما هو غير طبيعي أن تقوم دور النشر بترجمة الكتب المهمة، أو الأسماء المهمة التي تشكل في محيطها الحضاري ثقلاً مميزاً إلا أنها ليست حاجة اجتماعية راهنة في مجتمعاتنا. حيث الربح هو دافع الترجمة، بعد غمط حقوق الكاتب واعتصار جهد المترجم من دون رحمة. أما ترجمة العلوم فشبه معدومة، والخلل الحضاري فيها واسع وشامل .

من النادر جداً ايجاد جامعة عربية تترجم آخر ما استجد في العلوم النظرية كالفيزياء، والكيمياء، وتكنولوجيا النانو، ونظريات الفضاء، والسبب ببساطة هو تخلف تلك الجامعات سواء في العلوم النظرية أو التطبيقية. يضاف لذلك هيمنة الوضع السياسي المرتبك، والمتفجر، في دول عربية كثيرة على الواقع العلمي للجامعات. والقارئ في حقول مثل تلك هو متلق سلبي أغلب الأحيان، ضمن أرض غريبة، مفاهيمها مغايرة تماماً. والناشر العربي أصبحت لديه حساسية عالية حول الكتاب الرابح، وهذا من حقه أيضاً، لكن في هذه الحالة ما ينبغي عليه القيام به هو تقديم كتاب مترجم يكون وفياً للأصل أولاً، ويمتلك

الحد المقبول من النسق اللغوي العربي ثانياً، سواء في بناء الجملة العربية أو الحفاظ على التماسك النحوي وصحة الصرف أو نقل الفكرة تامة، ويكون خالياً من الأخطاء الطباعية. إن الحد الأدنى ذاك لا بد من توفره، وهذا ما يجب على رقابة المطبوعات الموجودة في بعض الدول العربية أن تركز عليه أولاً، وليس البحث عن كلمة نابية أو فكرة تمس هذا الخط الأحمر أو ذاك. ولعل تركيز الرقابات العربية على المحرمات في الترجمة، وغيرها، هو ما جعلها تنصرف، على ما أظن، عن سلامة اللغة العربية الموجودة في العمل المترجم، أو غيره، وهذا ما يلاحظ بشكل كبير في عدد من دور النشر العربية هذه الأيام، حتى بات ظاهرة لافتة للنظر .

ما يتم منعه في معارض الكتب لا علاقة له بالنوعية، بل بالأفكار والأجواء فقط، وغالباً ما يشتمل ذلك على ثالوث الجنس، والدين، والسلطة. تقرأ رواية مترجمة أو مجموعة قصصية، تقرأ كتاباً فكرياً لهذا الكاتب المشهور أو ذاك، فتفاجئك الأخطاء النحوية واللغوية والطباعية، وهشاشة تركيب الجملة، بل وركاكة الفكرة المنقولة، فتتعجب أشد العجب. هل أن كتّاباً مشهورين لهذه الدرجة يمكنهم أن يعبروا عن فكرة معينة بهذه الركاكة؟ وهل يفتقدون العمق حقاً رغم شهرتهم؟ هل فهم المترجم النص، بلغته الأصل، أم أن المترجم لا يدرك قوانين لغته الأم التي يترجم إليها، لذلك يصعب عليه صوغ جملة واضحة وعميقة بهذه اللغة، وبالتالي تفقد أعظم الكتابات عمقها وشفافيتها ووضوحها؟ مع التنويه هنا أن غالبية المترجمين ينقلون النص، أكثر مما ينقلون الحضارة ببعدها التاريخي، الحضارة الكامنة وراء الكلمات، وذلك لضعف المعايشة مع مجتمع النص غالباً. والتنويه أيضا إلى سطحية التساؤلات تلك، بل وسخفها ونخبويتها الضيقة جدا، ونحن نعلم أن هناك عشرات المدن العربية لم يعد الكتاب يشكل لها هاجسا يوميا، ونتمثل هنا بالعراق وسورية واليمن وليبيا ولبنان والصومال، وبقية المدن الجائعة .

معضلة الكتاب العلمي النظري المترجم، تتمثل بقصور اللغة العربية عن استيعاب المصطلحات الجديدة، فهي، حاضراً، وليدة مجتمعات متخلفة عن الحضارة الإلكترونية التي يعيشها الآخرون، الغرب وأميركا واليابان على وجه الخصوص. في هذه الحالة قد يفضل القارئ المتخصص قراءة البحث العلمي بلغته الأم أكثر مما يفضل قراءته بشكل هجين في اللغة العربية. في مجتمعات لا تمتلك دراسات فضائية ومحاولات تطبيقية لتلك الدراسات على سبيل المثال، كيف لها استيعاب هكذا حقول عبر الترجمة؟ ثم

يعجب القارئ، المتخصص، بهذه الاستهانة التي يتعامل بها المترجمون، والناشرون، مع الكتاب المترجم، فلا يرف لهم جفن في تقديمه بأخطائه النحوية المخجلة التي ينبغي على أي طالب في الثانوية أن يتقنها، أو في نقل الكتاب عن غير لغته الأصل رغم شيوع تلك اللغة بين المترجمين. هل يعقل أن يترجم كتاب صدر باللغة الألمانية عن الفرنسية؟ أو كتاب صدر بالتركية عن اللغة الروسية مثلاً؟ بل وثمة مترجمون يدافعون عن الغلط، والتخليط، الحاصلين، ولا يرضون بالنقد الموجه لهم، كون الجهد حسب الدفع، ولا من يرى، أو يسمع. فيفكر المرء ويتساءل مرة ثانية، أين هي الرقابة إذن؟ حتى صار يشك أن الرقيب لا يفقه لغته أيضاً، وإلا لما ترك مثل هكذا نصوص تنزل إلى السوق، وبهذه الفضائح والمجازر اللغوية. إن من أبسط مواصفات دار النشر التي تحترم ذاتها، توظيف شخص يتقن اللغة ويمتلك قدرة على الحكم على أسلوب النص، ومدى سلاسته ودقته وبعده عن الركاكة، ناهيك عن المراجع الذي يتأكد من دقة الترجمة .

ولطالما سمعنا بدور نشر عالمية تتحكم في صياغة إبداعات حتى الكتّاب المعروفين، كون دار النشر لها رؤيتها للكتاب الذي يخرج من مطابعها، ونوعيته، وسوية الرفعة الفنية التي يجب أن يكون عليها. هل هي استهانة بالثقافة العربية وإدراك القارئ إذن؟ هل هو عدم احترام لتلك الثقافة من حيث العمق والدقة؟ هل هو عامل الربح والتجارة الذي يجعل همّ دار النشر التعجيل بإصدار الكتاب قبل غيرها من الناشرين؟ هل هي فوضى الترجمة التي تعتقد أنها تتعامل مع قارئ بليد، يأكل كل ما يقدم له كأي مخلوق جائع؟ أم أن السبب يكمن في فقدان المعيار في عملية الترجمة، والفوضى الضاربة في سوق الكتاب، وانشغال الرقابة بجوانب أخرى تعتقدها أكثر أهمية؟ كل تلك الأسئلة تثار أمام القارئ وهو ينتقل بين دور النشر علّه يجد استثناءات يعتد بها، ويبدو أن الفساد شامل، وهو متغلغل في كل زاوية من زوايا حياتنا العربية السقيمة.

ابراهيم أحمد في رواية "عثمان الموصلي:"

عودك رنّان يا شيخ.....

بين الشيخ عثمان الموصلي التاريخي " 1854 – 1923" وعثمان في هذه الرواية مساحة شاسعة من الخيال. يفترقان ويندمجان. يتطابقان في نقطة وهمية أو يسيران متوازيين، لتعود المدن، والموسيقى، والفقه، والتصوف، لحظة تاريخية فارقة. متمثلة باستدارة القرن العشرين. يندمج الاثنان بلمسة الفن الساحر. يفتتح ابراهيم أحمد الحكاية في حانة "إلياس" على نهر دجلة. والحكاية يرويها صديقه بهاء القزاز التاجر الموصلي المعروف. مرة يتأملها وحده، ومرة مع جليسه الدائم الموسيقار جرجس. نديمان بين ذراعي بنت الحان، وعصارة كروم الجبال، يتتبعان أخبار الشيخ عثمان، وتحولاته الغريبة. سفراته، تقلبات روحه بين اللحن والقدود والموشحات والتراتيل القرآنية. فإذا هو واحد من رموز عصره المثقفين موسيقيا وفقهيا بتسامح لا بتزمت، يبحث كأي انسان مرهف عن هدف مفتقد في حياته. هو بومضة ما، يكاد أن يشبه عصره المائج بالأحداث السياسية والأفكار، وثمار الحداثة الوافدة من الغرب. ومنها حداثته الفنية الموسّقة على أصوات المدافع، والبنادق والصحف واسطوانات كبار موسيقيي أوربا .

للموصلي دور تنويري عبر تكريس الموسيقى في مدينته، وعبر وحواراته ووجهات نظره الفقهية والدينية إزاء المتشددين المغالين في النصوص وتفسيراتها. نشأ مع الفقراء والمهملين من طحانين، وسقّائين، وحوذيين. فأبوه سقاء هرب من مدينة الرمادي ليستقر في الموصل خادما في بيت واحد من وجهائها. إنه من طبقة رثة، في مدينة تضم العرب والأكراد والتركمان. وتعج بالأديان والمذاهب. فضّل الغياب عن حفل ختان ابن الوالي العثماني والبقاء في المطحنة لينشد لحن "المنصوري" على الطحان جابر شقيق حبيبته مهجة، حيث تصطاده شرطة الوالي ليحمل على فرس إلى حفل الختان. والموصل في بدايات القرن العشرين شهدت تنحية السلطان عبد الحميد، وصعود جمعية الاتحاد والترقي .

الموصل هي حانة على نهر دجلة، وطاحونة للقمح، وسقّاء ماء في الأزقة، ودراويش يلتهمون الزجاج. إنها قصور الولاة والوجهاء، وطقوس الأعراس والختان، وعربات النقل، والولائم، والموشحات الدينية. الموسيقى ، وآلة العود، والتجارة مع حلب وإسطنبول وماردين وديار بكر، ونهوض لصناعات حديثة واحتكاك مع الغرب. كل ذلك ليس بعيدا عن سور المدينة التاريخي حيث تحطمت ذات سنة أحلام نادر شاه الصفوي في احتلالها. هناك سجل تفصيلي نستشفه في ثنايا الأحداث لنهوض هوية الموصل

خارج الكنف التركي. كل ذلك عبر سلاسة تقدمها الرواية التي تتوغل بحذر في حياة ملا عثمان الموصلي، والظروف التي أحاطت بنشأته، وبلوغه، ودراسته في جامع عبد القادر الكيلاني وأبي حنيفة النعمان بمقتبل عمره، على يد محمد شكري الآلوسي فقيه بغداد وقتها. ثم ما جرى له من رحلات ليصبح مقربا من السلطان عبد الحميد، ثم موفدا إلى ليبيا ومصر ودمشق وبغداد، حتى استقراره شيخا في الموصل ليصبح متصوفا على هدي جلال الدين الرومي في مزجه للموسيقى والرقص مع التصوف .

في تلك الحانة نرافق صديقه بهاء القزاز ليروي حياة عثمان، الملا عثمان الموصلي كما عرفته كتب التاريخ. الموسيقي الفقيه الذي تأثر بألحانه سيد درويش وعبدة الحامولي وأحمد زيدان ورشيد القندرجي، مرورا بالشاب القادم إلى عالم المقام محمد القبانجي، والمطربة الصاعدة وقتها من بيئة يهودية، المعروفة بسليمة مراد. وكان في مدينته كثيرا ما يستظل بحدباء جامع النوري، مزاوجا بين الفقه والتصوف ليصبح لاحقا، حين عاش في اسطنبول، مريدا لشيخ الطريقة القادرية، ثم من أتباع المولوي جلال الدين الرومي المدفون في مدينة قونية. روح وخلاصة التراث الموسيقي الموصلي، والحلبي، والتركي، عرفه الزمان بما لديه من الموشحات والأغاني ومن أشهرها، فوق النخل، لغة العرب اذكرينا، وغناها يوسف عمر، و يا أم العيون السود، التي غناها ناظم الغزالي، وآه يا حلو يا مسليني، وقدك المياس يا عمري، وزوروني بالسنة مرة حرام .

وثّق عثمان عمله الموسيقي، كما يخبرنا راوي حياته وصديقه، وحافظ أسراره، بهاء القزاز، بالتعاون مع الموسيقار جرجس رغم إنه يصغره بحوالي عشرة أعوام. مضى معه ببحث أشبه بالمغامرة، أو الرحلة النغمية العجيبة. أرادا الوصول إلى ألحان زرياب، وإبراهيم الموصلي، وابنه إسحاق. استعان عثمان بإلهامه وخياله وتوقعاته، واستعان جرجس بدأبه وتقصّيه من مختصين في كنائس وأديرة الموصل، وآخرين كان يراسلهم في بغداد ودمشق والمغرب العربي، حتى حققا بذلك حصيلة طيبة، راسمين خارطة لأغان وألحان عديدة، كانت مدهشة ومفرحة. ألحان تغيض المتزمتين الذين كانوا ينظرون إلى هذا الشيخ بريبة التخلف والحس البليد. استدعيا بذلك المشروع الرائد، السابق لزمانه المضطرب، هواء العصر البغدادي والأندلسي البعيد، والتقطا منه ألحان أولئك الموسيقيين، القديمة الشجية الضائعة. وكان الموسيقار جرجس يجمع التراث الموسيقي للموصل من الأديرة والكنائس، ويزوّد عثمان باسطوانات يجلبها

من القسس والرهبان ليسمعها الموسيقار الفقيه. اسطوانات لبيتهوفن وشوبان وباخ وموزارت. يسمع الشيخ ويتأمل. يفتتن بهذا الفن الوافد على الذائقة الشرقية .

جاءت شخصية عثمان الموصلي في رواية ابراهيم أحمد وكأنها شخصية أسطورية، أو مقطوعة موسيقية مفصّلة على جسد عثمان المغني، الفقيه العازف على أوتار عوده. وهي مقطوعة تهيم في اسطنبول الباب العالي، وقونية جلال الدين الرومي، وتصطخب في جامع الحيدرخانة عند شارع خليل باشا البغدادي، وتخشع في ضريح أبي حنيفة النعمان المطل على النهر، وترقص مع عشق الشيخ في صباه للفتاة مهجة. تسافر مع المكارية إلى حلب، ودمشق، وقاهرة المعز، واسكندرية الماضي. تدخل الجامع الأموي لتتروحن وتنثال من الأناشيد والأذكار وهي تغادر الجامع لتنساب بين بيوت الموصل وأزقتها بأديرتها وبساتينها وخمورها، جالبة معها أمجاد مملكة آشور التي حكمت نصف الشرق من ضفتي نهر دجلة، وأسست مكتبة العالم القديم للملك آشور بانيبال .

ولعثمان الموصلي جوانب عديدة، متناقضة أحيانا، خاصة في علاقته مع الباب العالي والخلافة الحميدية، مثل بلورة كريمة. خطيب لجامع الحيدرخانة في بغداد، والخفافين حين صار شيخا. ثائر على ظلم السلطنة في خطبه شابا، وهو ما أدى إلى اعتقاله ونفيه إلى تركيا، وجليس للسلطان عبد الحميد الثاني في عز مجده. درس على يد الملا العديد من أعلام الموسيقي في العالم العربي مثل عبدة الحامولى، ومحمد كامل الخلعي، وعلى محمود، وسيد درويش، وعمر البطش، وعبد الرازق القبانجي، والملا أبا خليل القباني. هؤلاء الأعلام تتلمذوا على يديه فعبرت الموشحات الشامية والتركية والعراقية من خلاله إلى مصر والشام، وهي مقامات لم تكن معروفة في مصر على سبيل المثال، كالنهاود والحجاز كار والنصراوي. كان دائرة معارف في الشعر والمقامات الموسيقية، والضرب على العود، والعزف على القانون. وله العديد من القصائد والموشحات والألحان، وقد كرم من قبل الدولة العثمانية أكثر من مرة .

كانت الرحلة مع بهاء القزاز، وهو يسرد حياة عثمان الموصلي عبر قلم ابراهيم أحمد، رحلة شاقة، ومعرفية، في سنوات مفصلية في تاريخ الشرق الأوسط. إذ نعيش عبر المغني والملحن والمنشد والفقيه، في إسطنبول، وبغداد، والقاهرة، وحلب، ودمشق، والإسكندرية. ونصبح شهودا على الصراع المحتدم بين دعاة العروبة ودعاة التتريك من أنصار جمعية الاتحاد والترقي. بين الاسلام المتنور والاسلام الجامد

المسخّر من قبل السلاطين والولاة. كما نقرأ عن تهاوي أسس الامبراطورية العثمانية واحتدام الصراع على تركتها من قبل الدول الأوربية كبريطانيا، وألمانيا، وفرنسا، وقيصر روسيا. ونقرأ أسباب كل ذلك ونقتنع. تلك الرحلة تحملنا إلى التصوف والرقص في ملاهي القاهرة مع عبدة الحامولي وليالي الموصل مع جرجس الذي أسس فرقة باسم الشيخ عثمان الموصلي لتحافظ على تراثه وألحانه. استغرقت رحلة الملا عثمان متغربا عن الموصل ثلاثين سنة، جعل منها ابراهيم أحمد نافذة واسعة على عصر، ومدن، وأفكار، وصراعات ظلت تتفاعل حتى اشتعلت الحرب العالمية الأولى وبلغ عثمان شيخوخته، حيث رافقناه في بغداد وهو يقطن غرفة في مسجد الخفّافين. أصبح شيخا يدب على عكازه في الأسواق، وشهد سقوط بغداد على يد الجيش الانكليزي، ولكنه ظل كعهده موسيقيا بارعا ومتصوفا يبحث عن شعاع الذات الإلهية والتسامح عبر اللحن، والعود، والشطحات الصوفية. حكمة الحياة في الزواج والحب الروحي وجوهر الدين. وبقي على قناعته بأن الموسيقى هي روح هذا العالم التي توحّد الشعوب وتؤاخي بينها .

مات عثمان الموصلي وحيدا أثناء زيارة لبيت ابنه، بعد أيام من زيارة الملك فيصل الأول له في غرفته المنزوية في الجامع. تلك الرحلة الطويلة لشيخ الموسيقى سكبها الكاتب عبر السرد الملون الخال من الحذلقات اللغوية، سواء في الحوارات أو بناء الجملة السردية. إذ من متطلبات العمل الفني للرواية هو الصدق. وهو ما شكّل الرافعة لتسلسل الحكاية وانتقاء مقاطعها، مع الابتعاد المهني، المدروس، عن الانشاء والاستفاضات. أي أن الحركة القصصية المتواترة أنتجت لغتها، وتفسيرها أو قراءتها الأدبية والروحية، وهو التساوق المطلوب في أي نص مبدع. نعم فالجسد ينتج إشاراته النثرية وجمله المعبرة، والقصد هنا هو جسد الحكاية ذاته بكل تفاصيله.

وخبرة ابراهيم النثرية لمسها القارئ في نسج نص ينتمي إلى عصره. حوارات غنية، وصف أخاذ وفاتن، إدارة ذكية لترميم صورة جلية ملونة للشيخ عثمان، وذلك عبر استحضار الهموم الاجتماعية، ومصطلحات أهل المدينة، وحفلاتها، وعلاقاتها بالسلطة العثمانية الآيلة إلى الزوال. أو الرجل المريض كما وصفها الغرب في تلك الفترة. فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى بقليل، وما بعدها، وبروز العراق كبلد يمتلك هويته الوطنية بعد أن اجتمعت فيها الولايات الرئيسية، وهي البصرة وبغداد والموصل، لتشكل عراق اليوم الذي نعرفه. مهمة شاقة بلا شك، أي استحضار عصر كامل تناءى عنا منذ أكثر من قرن، وتقمصه

الكاتب روائيا بلغته، وهمومه، وموسيقاه، وأمكنته، وأطعمته، وأزيائه، ومؤامراته. ولا يستطيع انجاز ذلك دون شك، سوى كاتب موسوعي لغة، وثقافة، ومهارة، وكان كل ذلك حاضرا في هذه الرواية الشيقة المسبوكة معرفيا، وتنويريا.

"ما تخيله الحفيد" ذات سنة في الموصل

الموصل مدينة ذات طبقات تاريخية مغرية للحفر فيها، قديما وحديثا، وإظهار ذاكرتها وتقاليدها وطقوسها، عدا عن جماليات أمكنتها لما تمتلكه من خصوصية، وتفرّد لم يجد مساحته المستحقة في فنون السرد كما وجدته مدن عريقة مثل بغداد، والقاهرة، وحلب، ودمشق، وطنجة، وغيرها من المدن التي لمس القارئ روحها، وعجائب ما يدور في دخيلة ناسها وأمكنتها. وذلك في روايات، وقصص، على امتداد الوطن العربي، وعاشها القارئ في بطون نصوص بعينها. في هذه الرواية، القصيرة نسبيا، نجد بعضا من الموصل، بشرا وأمكنة، عبر قراءة ذاكرة عائلة. عائلة تقليدية إلى حد ما، تتكون من الأم أمينة وأولادها الثلاثة سليمان وهو والد راوي الأحداث، وشكيب المعتقل بجريرة أخيه الهارب غالب، وكان الأخير معارضا للنظام في حقبة السبعينيات من القرن الماضي. يعود الابن "الراوي" من مغتربه في مدينة "مالمو" السويدية لزيارة أبيه المقعد سليمان، ويحدثه الأخير، بمونولوجات طويلة، غير مترابطة بعض الأحيان، عما حدث في الماضي، وانتهى به إلى ما هو عليه، شيخا مقعدا يعيش في حمأة الذكريات، وينتظر موته بعد أن فقد الصلة بما عاشه البلد من تحولات دراماتيكية لم يعد يفهمها. وكون سليمان ينتمي لزمن آخر، وأمكنة زالت، وشخوص ماتوا منذ زمن بعيد، أي موصل القديمة، موصل الخياطين وصناع الأحذية المحلية، والمقاهي التي يسهر فيها أبناء المحلة، وغزو الأفكار القومية واليسارية، ثم تلك الأزقة الخائفة ليلا، يتحول إلى تاريخ ينبغي أن يكتب ويقرأه البشر، وهو ما أراد منه الكاتب في روايته. إذن نحن في العائلة: الجد والأب والأخوة والأم ونمط العلاقات داخل الأسرة، أي وسط جو نفسي يخلق تماسكا للرواية وإغراء لمواصلة القراءة كي يصل المرء إلى حقيقة ما حدث في تلك البيئة المهملة قبل عشرات السنين .

تشكل العائلة وخباياها وأسرارها، أسرار أبنائها خاصة، مرجعية للسرد، والحوارات، والوشائج بين فرد وآخر. الحفيد، حفيد الجدة أمينة، يستمع للأب المقعد، والأب يغوص في ذاكرته التي يعود معظمها إلى حقبة السبعينيات. رغم أن الجدة أمينة، وهي محور الأحداث تقريبا، قدمت من ماردين التركية إلى الموصل لتتزوج الجد وتكون شاهدة على عسف السلطة في تعاملها مع معارضيها، وشاهدة على تغيّر أحوال المدينة بين ماض بعيد وحاضر قلق. وعسف السلطات في العراق الحديث سيرة تتكرر كل حقبة، ومع كل جيل. إذ سجنت الجدة أمينة وتعذبت بسبب أولادها، وهي حكاية تأكل ذاتها مرارا، فلطالما ذهبت عائلات بجريرة أبنائها، سجنا، وتشريدا، وهجرة، وحصارا نفسيا واجتماعيا. والخيارات الفردية شبه معدومة،

فالمصائر مقررة سلفا من قبل السلطة والمجتمع. كان الأب سليمان يستعيد تاريخا ميتا، كل ما نزفته ذاكرته قصصا لحياة لم تعد موجودة. فالاهتزازات طالت كل شيء في "أم الربيعين". وقراءة تاريخ ماض ينحت لغة سلسة تنساب برهافة، وهي تقود القارئ إلى كشف لما تفكر به الشخصيات: مخاوفها ورؤاها وأحزانها. وقد استحضرت الكاتب فترة، قبل الحرب الإيرانية، وما حملته من صراعات سياسية وحكايات عن أجهزة الأمن، التعذيب ومطاردة المعارضة السياسية للسلطة. تلك الحكايات انتشرت في معظم المدن، تركت آثارها في كل عائلة تقريبا، وقد ساهمت أجهزة الأمن والمنظمات الحزبية والإعلام الحكومي في خلق جو من الرعب والخوف يشيان، بالتأكيد، عن تجارب حقيقية خاضتها شخصيات معارضة من كافة الأطياف الاجتماعية والحزبية. غلبة التحليل النفسي وتتبع الأفكار الداخلية طغى على تفاصيل هذا العمل، وذلك عبر الاستبطانات الداخلية لمعظم الأفراد، سواء وهي تدلي بهواجسها أو حين يسترجعها الأبن، والأب، والجدة أمينة، وبقية أفراد العائلة. وبعض تلك الهواجس والاستبطانات تأتي بحجم أكبر مما يهيأ لنساء ساذجات غير متعلمات، مما يوحي بدور كبير للراوي لينقل تلك الظنون، والتحليلات، والمخاوف، إلى مائدة الرواية. الأمر الذي يضع النص في مستوى واحد من آليات البوح والتعالق مع المحيط، على اختلاف الشخصيات ومستويات وعيها. إلا أن تلك التقنية أضافت سعة إلى مساحة الزمن، وإلى المكان إلى حد ما .

بوح يحتمل الرمز عبر الأب المشلول وقصص حب مجهضة. وشائج بين عرب وأكراد من خلال قصة علاقة جمعت الأب سليمان، شابا، والفتاة آمال القادمة من مدينة السليمانية لتدرس في أحد المعاهد. واقع السجون وعلاقة السكان به، كلها إضافات لتاريخ موصلي غير مكتوب. أخيرا التموجات السياسية حين تثقل على مصائر البشر وتحرفها عن مسارها المألوف، وهي ظاهرة طالما فعلت فعلها في حياة العراقيين أجمع منذ عشرات السنين. رواية "ما تخيله الحفيد" مصائر "مأساوية" لعائلة موصلية عاشت هناك ذات مرة: خرجت أمينة من السجن فاقدة لعقلها، وأعدم ابنها غالب بعد عودته من دمشق إلى العراق بدسيسة أمنية، وشلّ الابن سليمان وأصبح مقعدا، وهاجر الحفيد بحثا عن الخلاص ليستقر في مدينة "مالمو" السويدية. وهذا هو الواقع. لا يمكن تغييره بالخيال، على الأقل في المدى القصير.

رواية "حي 14 تموز" لسهيل سامي نادر:

ثلاثون سنة من مدوّنات الموت

نحن أمام شخصيات تتأمل واقعها ثم تطلق أحكامها عليه. نرافقها منذ المراهقة وحتى نضوجها الفكري والجسدي، لتسقط، لاحقا، في شرنقة الحروب المتوالية. تاريخ صار معروفا للجميع دون أدنى شك، لكن التفاصيل الدقيقة مجهولة تترسب في دواخل البشر. والتفاصيل هي ما يهم الكاتب. وجديده ينبع من بناء تلك التفاصيل. وبراعته أيضا .

وسهيل سامي نادر يدرك تلك المعلومة جيدا. وتحولات أحكام شخصياته تتواشج مع فترات سياسية مظلمة، هيمن فيها حزب واحد على كل حيثيات الواقع، وتفرّد بعدها شخص واحد في الموت والحياة، ثم حرب لم تترك زاوية في النفوس إلا ونفذت إليها. تغلغلت كأي خلايا سرطانية ذكية في جسد الوطن، وقادت ذلك الحي بشبابه، وبيوته، وبغداده، وعراقه، إلى التحلل، والانهيار، والموت السريري .

نتجول منذ البداية في حي اسمه 14 تموز، وهذا هو المكان. والسنة هي نهاية السبعينيات من القرن الماضي. نجد أنفسنا مع مراهقين يقرأون رموز هذه الأحجية التي يعومون في لجتها بوعيهم الضيق، نوعا ما، وأفكارهم التلقائية التي تسعى للفهم والاستنتاج والمحاكمة، مستخدمة كل أدواتها المعرفية، واللغوية، والفلسفية، لكن يرافق ذلك ضمور هائل في الفعل. ثرثرة مراهقين يعتقدون أن الأرض تدور حولهم فقط. فالفعل، والحركة، والاندفاع لتغيير الواقع، تقود إلى الهلاك في بلد الزنازين، والتقارير الحزبية، والنمائم، وفرق الاعدام .

يقع الحي في جانب الكرخ من بغداد، واحتل موقعا استراتيجيا بين بغداد التاريخية وبغداد الجمهورية. يحدّ الحي من الغرب شارع فلسطين التجاري الصاخب، ومن الشرق قناة الجيش. سكانه من الطبقة المتوسطة: موظفون، وضباط، ومدرسون. من ذلك الحي خرجت عصابة الشباب الساخرة: منير، وفالح، وصالح، وأصدقاؤهم الدائرون حولهم ابراهيم ابن الضابط، ومحسن السمين، وحسن السلبوح، ومحمود الضعيف، وسعد المالح. شباب يحيلون كل حدث جاد إلى مسخرة. وينظرون إلى الأفكار المتماسكة باستهجان وتتفيه واع، كون الأفكار لا تغيّر واقعهم المزر. وكان ذلك قبل الحرب، ويرويها منير الأعرج في القسم الأول من الرواية الذي أطلق عليه اسم "المؤانسات" . هؤلاء يضعون كل شيء على مشرحة

النقاش. المراهقة: وهي أولى المراحل التي تواجه الشاب البغدادي، وعلى لسان منير المعوق نتابع رؤيته، وهي رؤية أقرانه بشكل عام: الكبت الجنسي نتيجة ثقل التقاليد، والخيالات النسائية المستحضرة عادة ما تكون بديلة عن الاتصال الجسدي، واهتمامات المراهقين من أبناء الطبقة الوسطى، المرفهين نسبيا مقارنة بجموع الشعب الفقير والجاهل كقراءة الكتب، ومراسلة المجلات، والموسيقى، والفن التشكيلي، والحلم بالسفر نحو فضاءات أكثر حرية. هم بقدر ما يعيشون على هامش الحضارة. وكانت العادة السرية وملاحقة الفتيات هو المشترك لدى جيل العبث. العادة السرية نتيجة الركود اليومي، والرقابة الحكومية والأسرية على الأخلاق، وندرة النشاطات التي يمكن للمراهق تفريغ طاقته فيها، والجهل المطبق بالثقافة الجنسية. اكتشاف الجسد كانت أولى الدروس لتلك الشلة العابثة. وبغياب الجسد الآخر، يقول منير، لا يبقى أمام الفرد سوى العبث بجسده عبر استحضار سيناريوات لنساء قريبات، أو مألوفات في هذا الحي، أو معلمات وجارات .

تمتد تصفية الحساب مع الماضي على لسان منير صاحب العاهة في رجله اليمين حتى نهاية الأحداث، حيث أول ما يبتدئ بتحليل الشخصية العراقية التي وصفها بركام هائل: ناتج عن تفجير أبنية، طابوق مفكك، أرباع وأنصاف وأخماس، ثلوم، كسور، حصى ناعم، فتافيت. شخصية "سايكوباثية" بالمصطلح النفسي، بنيت على امتداد عقود من الانقلابات، والاحتلالات، والمصادمات الطائفية، والاخفاقات في الوصول إلى طريق واضح لما يراد له أن يكون وطنا للجميع. ضمن تلك الأجواء الكابوسية تصبح مراقبة زيارات القائد للبيوت العراقية واحدة من متع الشلة الساخرة. يضعون التلفزيون في الغرفة العليا المعزولة، يتجمعون على مائدة البيرة، يقفلون الأبواب والشبابيك، ثم يضعون ما تنقله الكاميرا على طاولة النقد والسخرية والضحك. يرونه يدخل المطابخ البغدادية مفتشا في القدور عن طبخة اليوم، محدقا في عيون ربات البيوت التي تلهج بالثناء والشكر، مداعبا الأطفال المدهوشين. يرونه يطبطب بيده على أكتاف مضيفيه ببدلته العسكرية ونياشينه، نياشين الرعب. وفي فضاء بعيد عن حقيقة المعارك المهلكة، يتابع الشباب الساخر حركاته البهلوانية كاتما خوفا داخليا من الأيام القادمة. فوقود الحرب لا تنتهي، وهم يقفون على الطريق السائر نحو الموت .

اكتشفوا ذات يوم أنهم لم يعودوا يجهرون بأفكارهم الحقيقية عن حياتهم البائسة حتى لأنفسهم. فالأخ الأكبر يراقب كل نأمة في الشارع، ويسجل كل رأي يقال دون روية. وأذرع الأجهزة الأمنية جاهزة للبطش. وعي مبكر يستولي على الجميع حول خطورة المرحلة. ذلك هو الواقع، أما روايات الحرب وما يبثه التلفزيون من انتصارات، وما تدبجه الصحافة من أكاذيب، وما يلعلع به الشعراء الشعبيون، فلا يعدو أن يكون موجة ساخنة، وحارقة، مثل صيف بغداد الذي يذيب تكوينات جواد سليم المعلقة على جدارية نصب الحرية. ونحن إزاء تأملات فلسفية وفنية وفكرية في كل ذلك الجحيم.

الشخصية العراقية المشوهة، علاقات الحب المشوهة، المساءات المشوهة بدخان السيارات العسكرية. الأفكار المشوهة التي تدّعي الاستقامة، لشعب وجد نفسه في مصيدة الحزب الواحد، والحرب، والقائد ذي النياشين. وليس هناك من ضوء في نهاية النفق. والتحول الأكبر الذي حدث لتلك الشلة "البائسة" حين قامت الحرب مع ايران. تلك الحرب ستصبح الفضاء العام للرواية في قسمها الثاني المعنون ب"المراثي". تلك هي المحرقة الباذخة في وعي الشخصيات كلها، حيث ينزل حي 14 تموز من سماء الأفكار والحوارات الفلسفية والتهويمات الجنسية والتحليلات التاريخية، إلى الواقع الخشن. الموت الذي يلتهم كتب الأدب، والأغاني العاطفية، والعلاقات البشرية، وعادية الأيام في جريانها المعروف .

تحولت الحرب إلى فضاء اجباري للشخصيات، فقد لوّنت مناحي الحياة كلها بألوانها: الصحف، الكتب، الشوارع، البيوت، لافتات النعي، الحزبية القامعة، نشاطات قائد الحرب، الفن. وينتج عن كل ذلك ضغط هائل على وعي الشخصيات، وتعاملهم مع تلك المفردات. وهنا يقودنا منير، مدوّن الأحداث، إلى سلسلة جحيمه الذي يبكيه ويرثيه في الوقت ذاته. فقد اقتيد رغم عوقه إلى معسكرات الجيش الشعبي، لينقلنا إلى بعد أعمق في عذابات شلة 14 تموز. الوحدة، فراغ الصحراء القريبة من الموصل، الاذلال الممارس على المجنّدين، الرعب من أي كلمة أو تعليق على لغة المطحنة البشرية الدائرة في جبهات القتال. ثم الاستدعاء إلى الاستخبارات العسكرية في مقرها الكائن في الكاظمية. تابعناه في رحلة التيه تلك وكأنه شخصية بملامح مشوهة وتداعيات شاذة خارجة من إحدى روايات كافكا. هو لا يعرف سبب استدعائه، ولا يعرف التهمة، ولا يستطيع مجابهة محققيه. اكتشفنا أن الأمر يتعلق بانتحار صالح في جبهات القتال، الانتحار الذي فسر على أنه تثبيط لمعنويات المقاتلين وكانت تلك تهمة لا تغتفر في نظر

القائد. أما جبهات الحرب، وكان فالح وصالح قد التحقا بها، فكانت ملونة بقذائف تشعل الأجساد، وفقدان للعقل أثناء الهجوم، وأوامر صارمة، ورائحة جثث متروكة في العراء، وأحلام محشورة بين قذيفة الأعداء وأجساد الجنود .

من تلك الفاجعة التي عمت المجتمع ولدت أيضا رواية الحرب، وشعر الحرب، وإعلام الحرب. وسرعان ما يجد الفرد نفسه محاصرا بضجيج قادم من الجهات كلها: الهواء والأرض، والسماء، وهواجس الرعب الداخلية. والسوريالية في هذه الأحداث هي الطاغية، وهي انعكاس لسوريالية واقع بحد ذاته. سوريالية اللغة، والسخرية، والوقائع البعيدة عن المنطق والعقل لجيل ضائع، سحبته الحروب المتعاقبة نحو مصير مأساوي. لنجد في نهاية هذه الرواية تحولات أبطالها من سكنة الحي البغدادي. هنا تتجلى سوريالية التحولات والمصائر في أقصى ظهورها وحضورها. فهم بعد الاحتلال وصعود التنظيمات الدينية والطائفية، بين ميت ومهاجر ومروّج للطائفية أو مستفيد أو منتسب. جرى ذلك على ركام من الانتحارات، والعوق الذهني والجسدي، والسكن في المقابر، والنكوص عن أحلام الشباب إلى جنة الدين والخرافات. ثم لتعود الحلقة الجهنمية، حلقة الزمن، لتنغلق مرة أخرى، ويصبح الهروب من نارها هو الحل الوحيد. وهذا ما فعله كاتب هذه الرواية في نهاية سنة 2006 .

"جنوب" دنى غالي

تروي عن الشمال أيضا

"جنوب" هو عنوان جامع، موح، لذلك الجزء من الخارطة العراقية التي تشمل الزبير، والتنّومة، والعشار، وأبي الخصيب وغيرها من الأصقاع، فيما اصطلح عليه بالبصرة. بصرة الخليج واهب المحار والردى. المكان الذي انطلق من مينائه شخص بسيط، غامض، اسمه السندباد، ليجوب الجزر والبحار، جالبا معه كل مرة مزيدا من القصص، والحكايات، والأساطير .

والجنوب هو الخلفية الاجتماعية للشخصيات والأحداث في كتاب دنى غالي، إذ ضم روايتين: الأولى "خطوات" وهي في جزأين، والثانية "مانفيستو الغرفة" وهي مقاطع سردية تستعاد فيها الطفولة، والمراهقة، وهموم الفتيات في زمن بعيد، قبل الحروب المترادفة ربما. أي حين كان الناس يمتلكون أحلاما حقيقية في تغيير واقعهم عبر الحركات الثورية، والتثقيف الحزبي، والنشاطات التوعوية لعامة الناس، ثم الحرب الأولى المهلكة، حرب الثمانينيات الكارثية بين العراق وإيران وقد وقعت على تخوم البصرة. والبصرة مدينة الكاتبة أيضا، تعرف أزقتها، وقنواتها، وكورنيشها، وقلبها القديم، ومناطقها الريفية، وغابات نخيلها ونسيمها .

رواية "خطوات" تبدأ بصعود الصديقين، رفيقي الطفولة، فاضل وحسام في الطائرة المتجهة إلى كوبنهاغن حيث يقيم الشخص الثالث وائل. وهم الثلاثة أصدقاء منذ أيام البصرة. عائلات يعرف بعضها بعضا، أحلام مشتركة، مغامرات شبابية وأوهام فردية. وهنا يتم العثور في حقيبة فاضل على دفتر مذكرات أرسل من البصرة إلى وائل. كان بشكل ما الذريعة الفنية لاستدراك الشخصيتين لماضيهما البعيد في البصرة، والنجف، وكربلاء، والحرب، ومناطق الطفولة والنضوج. الحاضر هو أوربا، والماضي، وأغلبه في مدينة البصرة، لا ينفصلان، يتبادلان الأدوار في الحضور، ويؤثر أحدهما في الآخر. وليس الأمر بمستغرب بعد أن ترابطت الأحداث الكونية في الروح البشرية فلم يعد هناك انغلاق على ما يجري في هذا الكوكب. وقد فرضت ذلك السوشيلميديا، وسهولة السفر والانتقال من قارة إلى أخرى، وترابط الاشكاليات البشرية لتضغط على الجميع في أيما بقعة يعيشون، وفي أي مدينة يقيمون.

كان ما يربط الشخصيات هو دفتر المذكرات الذي كتبه والد وائل في البصرة وأرسله له قبل أن يموت، وكأن الماضي هو الخيط الوحيد الذي يربط تلك الشخصيات المشتتة والقلقة والهاربة من مصائرها،

لا لتجد الاستقرار في النهاية، إنما لتنفتح مزيد من الأسئلة حول جدوى هذه الحياة التي يعيشونها كمهاجرين من بلدانهم. غاب عنهم أي هدف. وليس أمامهم سوى نقطة معروفة مسبقة هو الموت في الغربة، مثل فاضل الذي مات عند نقطة تفتيش في أحد مطارات أوربا. نطل على علاقات حب، ونساء، وعائلات في أمكنة بعيدة وأطفال يعيشون مغتربين مثل آبائهم .

وفي الجزء الثاني من رواية "خطوات" تكشف الكاتبة سر ذلك الدفتر السميك، العتيق. نتابع المذكرات وهي توثق حياة الأب، أب وائل، في مدينته البصرة لشهور سنة 2008 . وهنا يطل القارئ على هموم يومية كالحصة التموينية، والكهرباء، ومراجعة الأب للمستشفى، وحركة ابنته وحفيده، واصلاحات البيت اليومية، واتصالات ابنه من دمشق وكوبنهاغن، وأحوال المدينة الحياتية. أحداث لم تعد جديدة لكنها ضاغطة على شريحة واسعة من البشر غامرت بالعيش في بقعة أخرى غير بلدها الأم. واليوم صار لدينا أدب مهجر بحق، لا في الرواية فقط بل في معظم الفنون. منتجوها هم مثقفون عرب يعيشون خارج أوطانهم، ويندمجون في مجتمعات غير تلك التي غادروها. لكنهم، وبصورة محكمة، يحتفظون بالتماعات قديمة لمدن، وشخصيات، وحوارات ماضية في ذاكرتهم. أدب اغتراب، ثقافة اغتراب، فن مغترب وهكذا. شخصيتا اللاجئين فاضل وحسام هما نموذج واضح للقاء بين مكانين، بلد اللجوء والبلد الأم، عدا عن تشظي الهوية وعبور الرواية للحدود الوطنية لتحكي عن نماذج جديدة على رواياتنا العربية لا في العراق فقط، بل في عدد كبير من الدول العربية. هناك أكثر من حاضنة، اللغة، العادات، العلاقات الانسانية بين قوميات مختلفة ومنابع جديدة للفن والنشاطات اليومية والهموم كذلك.

ولكون مركز ثقل رواية "خطوات" يستعيد الماضي بشكل صارخ، تعود الكاتبة دنى غالي لتقدم لنا عبر روايتها الثانية "مانفيستو الغرفة" حياة المهاجر بشكل تفصيلي. وذلك عبر زوجين تمكنا من الهرب من البصرة وأجواء الحرب، ليجدا نفسيهما يعيشان في كوبنهاغن عاصمة الدانمارك كلاجئين. منال وزوجها أوحد. عبر فصول قصيرة شاعرية، مكثفة، لاحقت الكاتبة منال منذ طفولتها، وتابعتها حتى وصولها الجامعة. علاقاتها مع صديقاتها، مع الأسرة، هموم المجتمع الصغير الذي تعيش فيه، سفرات إلى التنومة، العبّارة التي تنقل المسافرين بين ضفتي شط العرب، أهواؤها الأولى في الجامعة وتعرفها على أوحد. هناك استرجاع لنمط حياة كاملة، وكأنه المعادل الموضوعي لحياة الاغتراب سواء في الرواية الأولى

أو الثانية. فقط في رواية مانفيستو الغرفة يعيش القارئ تفاصيل حياة المغترب، بحساسية عالية هي حساسية منال. ينفذ إلى روحها قلق المنفى، وتغيرات العلاقة الزوجية، وايقاع الزمن مع لغات وأمزجة ورؤى، وشخصيات جديدة اسكندنافية الطابع بالهيئات، والسلوك، والتفكير .

جملها السردية في الروايتين محكمة ومشغولة بروية، تميل في بعض منها إلى نكهة شعرية تضفي شيئا من الطراوة على سياقات السرد. وعند منال خصوصا، وكأن الكاتبة تقمصت روحها الأنثوية المتوترة، الممتلئة بالهواجس والشكوك وهي تعيش دوامات ساعاتها المحسوبة بدقة. وهنا في "مانفستو الغرفة" يكاد الماضي أن يغيب ويصبح الحاضر معضلة كل لحظة، وساعة. ومثلما تبحث شخصيات روايتها الأولى "خطوات" عن الهدف من الرحلة، يعود السؤال ذاته إلى منال بطلة رواية "مانفيستو الغرفة ."

ما الجدوى من كل هذه المغامرة المتعبة؟ مغامرة السندباد البحري المعاصر، المغامرة المفتقدة لليقين والمعنى، والبوصلة حتى؟

جاءت ملاحقة التفاصيل بعين نابهة مدققة، وتقشير الشخصية المغتربة من زوائدها كالأخلاق العامة، والتقاليد المجتمعية، والنفاق الديني، والمجاملات، كي تفسح المجال واسعا لبيئة المغترب الجديدة لتنفذ إلى الفرد. إلى وعيه وقلبه وأفكاره. تواصل ذلك عبر حرية فردية واسعة في التعبير عن الأفكار، والهواجس، والرغبات، والسلوكيات. وكأننا إزاء وقفة مع النفس عميقة، وجادة. وهو ما لم يتح في وطن المغترب المهاجر المنفي، الوطن الأم الذي تحول من بعيد إلى دخان لا شكل له. بالتالي يمكن دراسة تلك القشور الروحية والشخصية بعدسة الفن الروائي التحليلي بعد أن أصبح الكاتب أداة لذلك. وهذا ما فعلته الروائية مع بطلة روايتها الثانية منال متتبعة إياها في جل تداعياتها الذهنية، واستشعاراتها التي تميل إلى البوح غالبا. لكن تبقى هناك دائما غيوم في السماء، وأشجار عند زاوية الشارع، وشمس تشرق كل يوم، وليل يهبط على الكائنات. يبقى ذلك في كل بقعة من بقاع هذه الأرض. يبقى مشردون ومغامرون ومتوحدون وعشاق وحالمون. وتبقى طقوس لحرق الساحرات على هذه الأرض في ليلة من ليالي الهجر، والوحدة .

تعمل دنى على تقديم قراءة دواخل الشخصيات كلها، المهمة منها خاصة مثل فاضل وحسام ووائل ومنال، عن حكمة هذه الرحلة الطويلة والمعقدة. رحلة الحياة، حياتهم، وهم يتنقلون بين طهران ودبي وستوكهولم وموسكو وكوبنهاغن والبصرة وبغداد وغيرها من المحطات. ولكل منها حكايات، ومواجع، ووجوه. كذلك هي تمسك بشخصيتها منال لتغوص إلى أدق انفعالاتها وهواجسها وتحولاتها مع تقدم سنوات الاغتراب. والاغتراب في النهاية ليس امتيازا. هكذا نصل إلى هذه الحقيقة الواضحة كالماء. بل هو ظاهرة أصبحت بارزة في الواقع العراقي والعربي والعالمي .

وقد لوحظ أيضا الابتعاد شبه الكلي عن تفاصيل السياسة، فهي خلفية بعيدة لماضي الشخصيات. والمغترب منبت، وحيد، لا جذور له هنا أو هناك، ومفهوم الوطن لديه اختلف. مشاعره متناقضة أحيانا. حائر بين لغتين، وعقلين، ومكانين. وزمنين. إلى أن يتحول التماسك اليومي لحظة منشودة لذاتها. ظاهرة مثل تلك تتجلى في النصوص الأدبية والفنون البصرية يوما بعد يوم، وسنة بعد أخرى. لتشترك في مجرى عالمي أوسع لم ينج منه أحد من المثقفين، حتى لو حاول الحفاظ على المحلية المغلقة .

إنها بصمة عصر في طريق طويل. وهي بالتالي سمة الإنسان وبصمته في هذه الحضارة الجديدة المشتبكة، المتداخلة، المتفاعلة. الحضارة الباحثة عن منفذ فضائي وعلمي يقترب من الخيال، للهجرة من جديد إلى كواكب ثانية في المستقبل المنظور.

١

رواية "رائحة الوقت" لهاشم مطر

أحداث موازية لتاريخ عراقي

مريم هي الشخصية الرئيسية في هذه الرواية الضخمة "500 صفحة"، حيث بدأت مراهقتها في أسرة عراقية عادية، انشغالاتها تنحصر بالدراسة، والعشق من بعيد، وأخبار الجيران وأصدقاء المدرسة. تاريخ عادي جدا ينساب بهدوء حتى حدثت المأساة. مأساة فردية للوهلة الأولى، وفي الوقت ذاته جماعية هدمت تماسك مجتمع، وذاكرته، وانتماءاته الفرعية .

يبدأ تاريخ الأحداث عند تهجير العائلات العراقية في نهاية السبعينيات وبداية الحرب العراقية الايرانية. وكانت عائلة مريم واحدة من تلك العوائل المهجّرة إلى إيران فيما عرف سلطويا ب "التبعية". ومريم هي الرابط العام لكل الشخصيات والأمكنة والأحداث التي تناولتها الرواية، ويمكن في حساب بسيط معرفة أن مسار الزمن الروائي يمتد أكثر من عشرين سنة، بدأته مريم مراهقة في مدينة من مدن العراق، قد تكوت بعقوبة بلدة الكاتب أو بغداد عاصمة الجميع، لتنتهي في مدينة كوبنهاغن عاصمة الدانمارك عبر معاملة "جمع الشمل" مع زوجها المقيم في تلك المدينة .

الأمكنة لا تبدأ في العراق ثم تنتهي، بل تمتد إلى رحلة الخروج القسرية التي أجبرت تلك العائلات عليها من قبل قوى الأمن، عبر مهانات وفظاظات انتقامية وجبال ووديان موحشة عند الحدود. ثم تمتد إلى مخيمات اللاجئين في إيران، لتتواصل نحو دولة عربية، ربما هي سوريا أو لبنان، ثم باريس وكوبنهاغن حيث استقرت مريم أخيرا مع عائلتها. حكاية جمع الشمل لها دروب ودهاليز بين المدن وأروقة السفارات والطائرات والمخاطر فيها، لتشمل ما ينتج عن كل ذلك من التباين بين بيئتين، بلاد الأم وبلاد المهجر. رافق ذلك توالد شخصيات بعضها من بعض كما قرأنا في ألف ليلة وليلة، شخصيات بعضها أوربي وبعضها عربي، مع هواجس مكثفة حول الهجرة ومواجهة ما هو جديد، وغامض، ومختلف .

اشتغال الكاتب هاشم مطر كان اشتغالا روائيا متواترا، عبر عشرات الشخوص متعددي الثقافات والمشارب والهموم، إذ يعتمد في كل ذلك على التحليل النفسي والروحي للشخصيات كلها: الرئيسية والثانوية، وحوارات بين الشخصيات، واستبطانات مع النفس، وجمل قصيرة تتابع حركة الأحداث والشخصيات في المكان والزمان، مع تداعيات تفرضها الحالة النفسية وتكرار المواقف وتداخل المصائر. تفاصيل تقتنصها جمل الكاتب دون تعب، لتتخلق حركة مندفعة بشكل دائم نحو النهاية في متون السرد .

والزمن في رواية "رائحة الموت" كان يكرر نفسه، ماضيا وحاضرا، تبعا لحالة كل شخصية وتداعياتها الذهنية. حيث تستعاد الأمكنة السابقة، وتستعاد معها شخصيات كانت منسية، ومواقف مختبئة في ذاكرات تتقلب في الأمكنة ذاتها التي ظنت أنها تجاوزتها وغادرتها إلى الأبد. الزمن المستعاد هو تمظهر حتمي لتعلق الشخصيات بالماضي نتيجة الغربة، والاحباطات، والتكيف المرتبك مع البيئات الجديدة. لا لبطلة الرواية مريم فقط بل لمعظم الأشخاص الذين مرقوا في سيرتها وتقاطعت مصائرهم مع مصيرها. وهي حالة معظم المهاجرين والمنفيين والمغتربين في العالم. ولا يقتصر الأمر على العراقيين وحدهم، بل ظاهرة عامة تعيشها البشرية خاصة في العقود الأخيرة من الكوارث، والحروب، والاهتزازات الاجتماعية. وقد شكلت سمة حضارية لكل فرد على الأرض .

نعم هو تعلق محموم بالماضي كأمكنة، وروائح، وأطعمة، وقصص حب، وخيانات، وطقوس حياتية، وأحداث سياسية عاشتها منطقة الشرق الأوسط. كان أبرزها الحرب العراقية الايرانية، ومشكلة الأنظمة الديكتاتورية، وثقل القمع النفسي والجسدي المتفشي في تلك الدول. حتى جاءت الرواية كما لو أن الكاتب أراد منها خلق تاريخ آخر مواز للتاريخ الرسمي المعروف، لما عاشه بلده العراق، وما عاشته بلدان قريبة منه. تاريخ مواز مأساوي الجريان قاد لاحقا إلى مستنقع الكوارث التي تعيشها المنطقة.

"قيثارة أجاثا كريستي" لإبراهيم أحمد،"خاتون بغداد" لشاكر نوري

بعد قرن على الأحداث، والتساؤلات ذاتها

ستضع "أجاثا كريستي" باقة من الزهور على قبر المس بيل، مواطنتها المدفونة في مقبرة الباب الشرقي، والتي كان البغداديون يسمونها "خاتون بغداد"، بعد سنوات على موتها. أجاثا كريستي، كاتبة الروايات البوليسية، هي الشخصية المحورية في رواية إبراهيم أحمد. أما المس بيل فهي بطلة رواية شاكر نوري "خاتون بغداد"، والروايتان ليستا من نمط الواقعية السحرية، وإن كانت ثمة سمات فيهما تقترب من ذلك، بل هما روايتان مكتوبتان بخيال جامح، معرفي، قاربتا بتفصيل سردي بارع حقبة حساسة من تاريخ العراق ودولته الحديثة في خضم دسائس السياسة المحلية، والعالمية، في أعقاب الحرب العالمية الأولى. حقبة تم فيها اكتشاف حضاراته القديمة من سومرية، وبابلية، وآشورية، بجهد كبار الرحالة، والآثاريين، مثل ماكس مالوان زوج أجاثا كريستي، وولفريد ثيسجر رحالة الأهوار، وهناك رموز شهيرة، بالطبع، ساهمت في ترسيم تاريخ العراق الحديث، رغم اختلاف الأدوار والأزمان، من حكايات الكاتبة أجاثا كريستي في أثناء إقامتها في الموصل، وبغداد، وجنوب العراق، إلى زوجها ماكس مالوان المنقّب الأثري. وهناك أيضا الباحثة في التاريخ، والسياسية الأشهر في الشرق الأوسط، المعروفة بالمس بيل، صانعة الملوك. علاقة الرواية بالتاريخ وشيجة خلال مسيرة تطورها عربيا وعالميا، وظل الحدث التاريخي معينا لا ينضب للكتّاب. وتكمن البراعة عموما بكيفية استلهام ذلك التاريخ، وهنا يبرز لدينا دور اللمسة الشخصية، ومفهوم اللمسة مفهوم عام، وله عناصر لا تعد ولا تحصى .

في روايته قيثارة أجاثا كريستي وجدنا لدى إبراهيم أحمد ثلاثة مقاربات لتاريخ بغداد، والعراق: قبل هجرة الراوي في نهاية السبعينيات بسبب القمع ومحاربة اليسار، وهو الوقت الذي كتب فيه الفصل الأول من روايته، ثم المقاربة الثانية بعد عودته حين سقط النظام على يد الاحتلال الأميركي وبحثه عن أوراق ومذكرات أجاثا كريستي وزوجها مالوان ليستكمل منجزه الإبداعي. والمقاربة الثالثة هي حقبة الأربعينيات حين سكنت أجاثا كريستي وزوجها الآثاري مالوان في فندق "تايكر بالاص" في منطقة السنك .

هي إذن رواية داخل رواية داخل رواية، تمتد أحداثها وشخصياتها منذ العشرينيات من القرن الماضي وحتى العقد الأول من هذا القرن. أي حتى تفجير شارع المتنبي الشهير قبل خمس عشرة سنة .

مكان الرواية توزع على منطقة الأهوار مع الرحالة ولفريد ثيسجر وهيامه بأسطورة "بنت المعيدي" وصورها المنتشرة في العراق من شماله إلى جنوبه، وسنواته التي قضاها بين عرب الأهوار. وبغداد الملكية

قبل سقوطها على يد الجيش، ثم العراق الجمهوري الممتد إلى سنة الاحتلال الأميركي. لم يستعر ابراهيم أحمد اسم الكاتبة أجاثا كريستي ليكون موضوعا شيقا لروايته فقط، بل إنه تقمّص عالمها البوليسي في الآن نفسه، فنسج الأحداث على ذات النمط، وهندس عقدة الرواية، والمحققين، والجهات المتورطة باختفاء الشخصية، والحفر في حواشي العقدة للوصول إلى الحل واكشاف السر. هنا تتطابق الرواية في مبناها مع معناها القائم على الحفر في طبقات مجتمع متحرك مثل المجتمع البغدادي، تهيمن عليه روح الأسطورة والخرافة والتقاليد العتيقة المتوارثة عبر قرون. مساءلة للذاكرة البغدادية عبر حدث تاريخي موثّق، فمن خلال اختفاء أجاثا كريستي يفتح الكاتب نافذة على الواقع السياسي ولاعبيه في عقد الأربعينيات: بهجة العطية، القائد الشيوعي فهد، نوري السعيد، القنصل البريطاني، الواقع الاجتماعي في العاصمة كحي الميدان وعاهراته، وحي باب الشيخ، ودراويش عبد القادر الكيلاني، وشارع الرشيد الصاخب بملاهيه، ومقاهيه، وصحفه، وشعرائه، ومثقفيه .

خيال الماضي كان حاضرا، عبر الخيوط الجانبية لشخصيته الرئيسية أجاثا كريستي. يربطها بالمستكشف ثيسجر، وبنت المعيدي، والقيثارية السومرية التي اكتشفت في تنقيبات "أور"، مدينة ابراهيم الخليل، ورحلات ثيسجر في صحراء الربع الخالي وهو يبحث عن جنة عاد، ومدينة "أيس" وهي هيت المعاصرة، ليعيش القارئ في عوالم من الخيال والأساطير. كما في وصفه الفذ لجنّة عاد وثمود وملكها شداد بن عاد والنبي هود، وكأن الكاتب، بوعي فني تحليلي ومعرفي، يجعل من مروحة الأساطير معادلا لبغداد تلك الحقبة بذاكرتها الشعبية، وتهيؤاتها، وخرافاتها عن الانكليز، والشرق، وأوربا، وكل ذلك التاريخ القريب والبعيد. ووسط ضياع القارئ في الأسطورة والواقع، يعود ابراهيم أحمد إلى يوميات الزمن الملكي على لسان شخصيات شعبية مثل صاحب البلم السكير "دعبول"، وعامل المقهى في علاوي الحلة، وعامل الفندق جبرائيل، وأحمد حارس بيت الآثار الواقع على كتف النهر من الكرخ. ينسج من كل ذلك وقائع اختفاء أجاثا كريستي في مدينة تعيش تحولات لن يكررها الزمن. وهي زاوية واسعة من الرؤية السياسية إلى فترة الاحتلال الانكليزي للعراق، والحكومة الملكية، والمظاهرات، والنفط، ونوري السعيد، والتحضير لانقلاب الجيش في نهاية عقد الخمسينيات .

وتوسيع الزمان والمكان جرى فنيا بضغط الأحداث زمنيا، وربط المكان بساكنيه وحكاياتهم، والانتقالات المكانية في اللحظة نفسها، وحبك كل ذلك في النص. أسطورة بنت المعيدي وتشعب الخطوط الروائية، ولفريد ثيسجر ورحلته إلى الأهوار بحثا عن البنت الجميلة، وزيارة أجاثا كريستي لقبر خاتون بغداد في المقبرة. وهنا يختلط الخيال بالواقع، حيث تتلاحق أدق التفاصيل والمشاعر والأفكار لدى شخصيات الروائي مثل ماكس مالوان، ولفريد ثيسجر، وأجاثا كريستي، وحتى الشخصيات العراقية مثل بهجة العطية، ونوري السعيد، والصحافي خالد القادم من مدينة أيّس والتقى ماكس في طفولته .

000

أما رواية "خاتون بغداد" فهي تؤنسن المس بيل منذ بداية الرواية حين دخلت بغداد مع الجيش الإنكليزي في عام 1917، وكيف كانت النساء تنظر إليها، وكيف كان الرجال يعاملونها في المقاهي والبيوت. ينتقل السرد بعض الأحيان إلى مذكراتها عن بغداد منذ وصولها وتعيينها سكرتيرة لبرسي كوكس حاكم العراق. ينتقل شاكر نوري من لحظة الاحتلال الانكليزي وما رافقه من شخصيات: لورنس العرب، المس بيل، برسي كوكس، جميل صدقي الزهاوي، الملك فيصل الأول، نوري السعيد، حتى لحظة الاحتلال الاميركي ما بعد 2003 ، حين يرافق شلة بغدادية مكونة من فيرناندو القادم من اليونسكو لكتابة تقرير عن المكتبة الوطنية التي سرقت أثناء دخول الأميركان إلى بغداد، وهي المكتبة ذاتها التي أنشأتها المس بيل باسم "دار السلام" قبل ما يربو على ثمانية عقود، وسميت لاحقا بالمكتبة الوطنية. شلة من الشعراء الصعاليك يحلمون بالهروب من البلد نحو أوربا وكندا، أبرزهم أبو سقراط الفيلسوف، حيث يترددون على الحانات ويزورون قبر المس بيل، ويتنصتون على الانفجارات في الشوارع والساحات، ويشرّحون الشخصية العراقية مثلما فعل أجدادهم قبل قرن حين كانوا يقارنون الاحتلال العثماني المتخلف بالاحتلال البريطاني الذي تزعمته المس بيل. الاحتلال الذي جلب معه المكتبة الوطنية، والمتحف العراقي، والكهرباء، والسيارات، والصحف، والحضارة الجديدة الواصلة من قارة أوربا .

الخاتون كانت محور الأحداث، لما تركته من أثر على العراقيين طوال مائة سنة، حيث شاركت في تأسيس دولتهم الحديثة. نرى حياة المس بيل منذ نشأتها في لندن، ودراستها للتاريخ، ثم رحيلها إلى طهران لزيارة خالتها، وتندمج هناك بالطاقم الدبلوماسي. تتعلم الفارسية وتعجب بالشاعر حافظ الشيرازي

وتترجم له، وتعيش قصة حب مع "هنري" الدبلوماسي العامل في السفارة. هي تفاصيل الحياة الشرقية التي حوّلتها إلى فتاة عاشقة. كل ذلك تكتبه بطريقة المذكرات، وترسل رسائلها إلى زوجة أبيها فلورانس وأبيها المقيمين في لندن ويطمحان لها بزواج سعيد .

بدأت المس بيل كتابة رسائلها عن العراق في العام 1917، وكانت موجهة إلى أبيها وزوجته، أو إلى أصدقائها الصحافيين في بريطانيا، ورغم أن العراقيين يدركون مسبقا آراءها التي تضمنتها المذكرات، باعتبارها صانعة سياسة الامبراطورية في الشرق عموما، وفي العراق خصوصا، إلا أن ثمة جانبا إنسانيا في نظرتها إلى عامة الشعب، وحلمها بناء عالم آخر مثل أوربا، جانبا توثيقيا مهما يستطيع القارئ، أو المهتم بتلك الحقبة الحصول عليه، وربما لن يجده في مذكرات أي سياسي آخر عاش السنوات ذاتها، سواء كان أجنبيا أو عراقيا. ولدت غيرترود بيل الحقيقية في مدينة يوركشاير البريطانية في العام 1868 ، وكان أبوها ضمن النخبة التي سافرت إلى الشرق، مما منحها بيئة مثالية للاهتمام باللغة العربية والفارسية، ولاحقا بالسياسة البريطانية الساعية إلى تأهيل تلك البلدان لتصبح مستعمرات راضية بإدارة الاحتلال .

دخلت العراق أول مرة في العام 1909 ، وتنقلت بين المدن العراقية والسورية، ودرست الصحراء العربية دراسة فريدة كونها تتقن لهجة البدو، ووجدت نفسها بين أبرز الرجالات الذين صنعوا التاريخ الحديث، أو كانوا أدوات لتنفيذ السياسة الانكليزية، بسذاجة أو بإدراك مسبق، كالشريف حسين قائد الثورة العربية والمناوئ للأتراك، وعبدالعزيز بن سعود الساعي لتوحيد نجد والحجاز تحت رايته الوهابية، وفيصل الأول وعبد الرحمن النقيب وبرسي كوكز وفيلبي وطالب النقيب ونوري السعيد وجعفر العسكري، وسواهم ممن تقلبت لديهم الأدوار في زمن شهد انهيار الامبراطورية العثمانية، واحتلال الجيش البريطاني للعراق، والجيش الفرنسي لسوريا، وهزيمة الشريف حسين، وتوحيد الجزيرة تحت مملكة ابن سعود. ثم أخيرا تأسيس المملكة العراقية من مداميك صفريّة شحيحة .

المس بيل تستقرئ أحداث العراق والشرق عموما بعينين ذكيتين، قادرتين على تسخير أية معلومة بسيطة لرسم سياسة عامة، أو استغلالها في التعامل مع البيئة العراقية. وهذا ما دعاها للاهتمام بعادات العشائر عبر معايشة واقعية، ورسم خرائط لتلك العشائر، وإعطاء رأي ذكي، ومعبّر، بشخصيات كان لها

دور فاعل في تلك المرحلة. تحضر الأعراس وحفلات الشاي، وتدخل البيوت، وتخالط النساء البسيطات، وزوجات المسؤولين وشيوخ العشائر لتستقي أدق المعلومات عما يدور في الخفاء. كان ثمة إيران ونفوذها على قسم من العشائر، ورجال الدين. وهناك تركيا الخارجة من هزيمة الحرب العظمى وهي تمارس طغيانها المعنوي على النخب الموالية لها، سواء كعشائر أو رجال دين أو عائلات درس أبناؤها في اسطنبول أو كانوا ضباطا كبارا في الجيش العثماني. إضافة إلى الاستعمار الانكليزي ومنافعه التي يغدقها على الموالين، وكذلك التأثير الكبير لابن سعود على العشائر الكبرى في العراق مثل عنزة، وشمر، والعبيد، وغيرهم، خاصة وتلك العشائر تتوزع في أكثر من بلد، ومنها سورية والصحراء العربية .

ولكي يدرك القارئ المعاصر جزءا مما يجري حوله في عراق اليوم، أعتقد أن عليه الاطلاع على تلك الرواية كونها تلامس بدقة، غريبة بعض الأحيان، جذور الدولة، الصراعات الإثنية والمذهبية، والخارطة المجتمعية والعشائرية ومفاعيلها. ورغم مرور قرن على تلك الأحداث، وكأن شيئا لم يتغير منذ ذلك الحين، تصبح العودة إلى نقطة الصفر مآل تاريخنا الحديث كله. نعم، التاريخ يعيد نفسه، لمن يقرأ العراق بين احتلالين، الفارق الزمني بينهما قرن تقريبا. سرد شاكر نوري في روايته يلامس أيضا مساحة واسعة لواقع بغداد في السنوات الأولى للاحتلال الأميركي. خاصة نقاشات شلة الشعراء في حانة "الرافدين" مع صديقهم فيرناندو، واستعراض سيناريو يونس عن المس بيل وهو يحلم بتحويل السيناريو إلى فيلم من قبل شركة من شركات هوليوود. رغم أن ثقل الأحداث انصب على تكوين الدولة تابعنا المس بيل وهي تروي للقارئ تنصيب الملك فيصل الأول، ومناورات قادة الاحتلال من أمثال فيلبي وتشرشل ومود ولورنس وبرسي كوكس وسواهم ممن تركوا إرثهم الاستعماري على واقعنا الحاضر. قطنت الخاتون بيتا مستأجرا في محلة السنك، وأصبحت محورا مهما من محاور الطاقم البريطاني الحاكم في العراق، وكان لمذكراتها تمظهرا ملموسا في الرواية. وفي العام 1926 غادرت الحياة في صيف ساخن، ودفنت في مقبرة ساحة الطيران في الباب الشرقي بجنازة شبه رسمية.

000

في رواية خاتون بغداد يستعيد شاكر نوري الزمن برمته، زمن المس بيل، بينما يدمج ابراهيم أحمد في روايته قيثارة أجاثا كريستي بالتاريخ الشخصي للراوي. حبه القديم، واستعادته بعد عودته من السويد

ليجد الحياة تغيرت من الجذور. تقمص عميق للتاريخ لدى شاكر نوري، وتمثّل مستفيض للذكريات لدى إبراهيم أحمد. استعمل شاكر نوري الوثيقة التاريخية بشكل حاذق لاستعادة حياة المس بيل. بينما حوّل ابراهيم أحمد إقامة أجاثا كرسبي وزوجها المنقب الأثري مالوان إلى حدث روائي. في كلتا الروايتين تتجلى بغداد القديمة في السرد، بغداد أثناء تشكلها، وأثناء الحكم الملكي. حفر لكلتا الروايتين في الماضي، وهما تستعيدان القريب منه، عبر سياسيين، ومكتشفي آثار، وصحافيين، ونساء متنورات، رموز غيبتها الأحداث التالية من حروب وصراعات طائفية واحتلالات ونفوذ أجنبي يطمح لتغييب الذاكرة الجمعية وتحويلها إلى شظايا. نقرأ رؤية فلسفية عن الحياة، والدين، والحب، والمرأة، والتخلف، ويعيد التاريخ نفسه في هذه البلاد، رغم مرور حوالي قرن على الأحداث التي تصفها وتحللها المس بيل، أو تدونها أجاثا كريستي، أو الرحالة ثيسجر. تاريخ العراق منذ بداية القرن العشرين يؤكد هذه الحقيقة. إنها لحظة الاصطدام بين الشرق والغرب وما يحمله كل منهما من صورة عن الآخر. في الوقت ذاته هناك بحث عن الهوية في كلا الروايتين، عرب وأكراد وتركمان وآشوريون. شيعة، وسنة، ومسيحيون، ويزيديون، وذلك بعد غياب الاحتلال العثماني ذي الشعار الاسلامي وقد تركهم يسبحون في التخلف، والاهمال، والفقر الثقافي لقرون عديدة. أي أن الروايتين تشبهان مرآتين يرى المواطن فيهما نفسه خلال تحولات مفصلية من وجوده المعاصر. يقترح ابراهيم أحمد القيثارة السومرية التي هامت بها أجاثا كريستي لخلق سمفونية من ذلك الخليط المتنافر إثنيا ودينا، بينما يقترح شاكر نوري حلم المس بيل، وبوحها في مذكراتها لرسم عراق حضاري متنور، يقوده ملك ينتمي إلى عمقه التاريخي، ملك قادم من تراث الجزيرة العربية وأصول الإسلام الأولى، وسيكون القارئ هو الحكم في ترجيح واحدة من تلكما الرؤيتين.

ابراهيم أحمد في مجموعته القصصية "لماذا تبكي كلما رأيت زهرة الأقحوان؟"

التقاط روح الفن من مادة الواقع

تشيع الحكمة في معظم قصص ابراهيم أحمد، تنجز بلاغتها في تقشير الواقع الخادع للوصول إلى السر من وراء وجود البشر، هنا نجد الرؤية المسبقة لفكرة القصة وشخوصها، أي هندسة الخيال وسكبه في كلمات. تقول الحكاية طارت قبضة قطن من النعش المحمول إلى المقبرة ثم تدحرجت في الحقول، وبصدفة عجيبة لمحتها قروية كانت في دورتها الشهرية وهي تركب حمارا، فما كان منها إلا أن تترجل لتلتقط كتلة القطن تلك من الأرض. تضعها بين فخذيها كي تواصل المشوار. وتلك قصة حدثت قبل أكثر من أربعين سنة، كتبها ابراهيم أحمد في مجموعته "عشرون قصة قصيرة جدا". خيط رفيع يربط الحياة بالموت، أو الموت بالحياة. الموت والحياة، جدلية الحب والكره، الجنون والحكمة، الحاضر القاسي والذاكرة البعيدة، تلك هي ثنائيات ابراهيم أحمد في رؤيته لجدل وجودنا الأرضي.

باختصار إذن، هو كتاب الفلسفة الحياتية بعد عمر السبعين أو الثمانين: خلاصة حياة مع ما فيها من معرفة عميقة، وخبرة حياتية متشعبة، واحتراف للكتابة صقلته الثقافة، وتساؤلات دائمة في جدوى الشيء ونقيضه، ومراجعة للتجربة والخبرة، ومعهما الأفكار والقناعات. فإذا نحن أمام نص واع ذي رؤية شاسعة، نص يدرك ما يريد إيصاله للقارئ. الذكاء يسخّر لالتقاط روح الفن من مادة الواقع عبر أحداث وشخصيات، قناعات وأمثولات وقراءات لمظاهر اليومي والعابر، وما لا يلتفت له .

وقد يجوز أن تكون الحكمة كلها في ذلك، ففهم ورقة يمكن عبره فهم دلالات الخلق كما يقول الصوفية في تجلياتهم، وإشراقاتهم. البيت المهجور، عازف العود، القبعة، لماذا تبكي كلما رأيت زهرة الأقحوان؟، قصيدة تبحث عن قائلها، وتلك وغيرها بعض من عناوين القصص. وتحت يدي ابراهيم أحمد الحاذقتين كل ما يخطر على بال الانسان يمكن أن يتحول إلى قصة تستوقف الذهن: الشيخوخة، الحب، الموت، الشعر، العسل والنحل، الجاحظ وكتبه، الملك والحاشية، ماركس وديكارت. شارع الرشيد وكنّاسوه النائمون بعد أن تغيرت أحوال الشارع، قلب بغداد ذات سنة، من زمن إلى آخر، ولا نرى سوى هياكل بنايات متآكلة، وقمامة تذروها الريح، وقادة تفّه يمرقون مثل موت أصفر، وقد تحول المارة إلى أشباح. نعم، إنها قصص تنتمي إلى العالم، عالمنا: العراق، السويد، مصر، ألمانيا، بلدته أيس، وهي قصص تنتمي أيضا إلى الماضي والحاضر، وفيها رمز وواقع، توهّمات ذهنية وأحلام، كل يجد فيها نفسه المصاغة

من كوابيس، ورحلات، وأشواق. سحر اللغة يجرفنا بعيدا في عالم الخيال. اللغة الشفافة، المتناغمة، السائرة كجدول ماء يسير هادئا في كل حين .

واللغة هي الكلمات المحسوبة، فكل كلمة في موقعها من الحدث، والكلمات السلسة ذاتها، الكلمات البعيدة عن التقعّر والغرابة في الاستخدام داخل الجمل. لا يخطئ الخيميائي في عمله، هو المتمرس في خلطة العناصر طوال خمسين سنة أو يزيد. ثم تباغتنا الضربة الأخيرة في كل قصة وتلخبط الفهم والعادة، والتوقعات، كما لو أن القصة قصيدة شعر وامضة في غموض الوجود البشري. هنا تعيدك صدمة النهاية إلى بداية القصة لكي تقرأ من جديد، ثم تسأل: كيف وصل المعلم بالحدث إلى هذه النهاية المحلّقة كسمفونية خالدة؟ ولا يمكن التغاضي طبعا عن المفتتح الذي يمسك بالقارئ، فهو خلاصة وتكثيف لما سوف يأتي، وإذا بكتلة النص كما لو أنها كتلة ناطقة صاغها نحّات يعرف ما يريد منذ جملته الأولى، أي ضربة الإزميل. كل شيء قابل للصياغة والنحت، الطيور، والقطط، والأزهار، تتحول بملمس الفكر والدربة إلى شخصيات محورية للقصص: حمامة تنبت لها مخالب، زهرة سوداء من عالم الغيب، قط ديكارت الشكّاك، النسر المولود من بيضة دجاجة، أو ذاك المسجون في قفص ثلاثين سنة ليطلق سراحه أخيرا، وهكذا يسعى النص ليحتوي هذا الوجود، بنكهة "حلولية" لا تغيب عما ضؤل أو تصاغر. فالأمثولة حولنا وفينا، ولا مهرب من عيشها. بلبل الإذاعة في شدوه الأخير، النسر في المطبخ، عسل الحكمة، أغنية، هناك في تلك القصص وسواها حدث، وشخصيات فاعلة، ونمو في ذلك الحدث تنضجه النهاية بعد تسلسل مشغول بحرفية عالية .

نعم، تقترب بعض القصص من السوريالية المعقلنة، سوريالية ما يمكن أن يحدث، وما لا يستحيل حدوثه، مصر هي المكان لكن الحكمة للجميع، كما في قصة متحف كافافي. مصر إذن أو برلين ألمانيا وأبسالا السويدية، وكرادة مريم البغدادية حيث الحانة المنبعثة من زمن آخر، وشارع ترابي في مدينة أيس، مدينة الطفولة، ومكتبة الجاحظ المكتظة بالمخطوطات. سواها وسواها، ولكن الأمكنة تنتهي في روح شخص ما، أو في درس فلسفي خلصت إليه التجربة القاسية وقد دفعت أثمانها أجيال من البشر. هكذا تعلمنا القصيدة التي تفضّل المشنقة على أن تكون مديحا رثا لديكتاتور عفن. وهكذا تنظر القصيدة الثورية إلى شاعرها الذي استكان إلى الذل والمهادنة كي يجالس المأدبة والذهب. إذن، مسرح القصص هو

الأرض، بشعوبها، وثقافاتها، وأمكنتها، وجمهورياتها، وأزقتها، وألوان سحنات بشرها. سياحة المعلم لا تنتهي في عالم القصة القصيرة وقد تاه في زواياه منذ أربعين سنة أو يزيد. بل هو يصحبنا معه في كل مرة يسافر نحو تلك الدهاليز الساحرة.

مدونة العنف في العراق" للباحث أحمد حميد:

أربعة عقود دموية وروايات عنها

لا شك بأن المجتمع العراقي مجتمع عنيف، وللأمر علاقة وثيقة بتطور العراق التاريخي منذ نشوء الدولة الحديثة عقب هزيمة الامبراطورية العثمانية في الحرب العالمية الأولى، وتأسيس المملكة لاحقا. ولذلك العنف كثير من الأوجه والتجليات وهي تتغير على مر العقود، وتبعا لتفاعلات قيام سلطة ما، أو حراك تطوري داخلي في الواقع. ومثلما نجد تركيبات عديدة في بنية المجتمع تتفاعل، وتتصارع، وتهيمن أو تهزم في لحظة معينة، نجد أيضا تنوعا في العنف تبعا لمسيرة الواقع والسلطة والقوى الخارجية. عنف ما قبل سقوط النظام ربما يختلف شيئا ما عن العنف الذي عاشه العراقيون بعد الاحتلال الأميركي، وانبثاق نظام سياسي جديد يختلف تماما عما سبقه. والعنف في الواقع ظاهرة مفهومة ومحسوسة ومعاشة، وهذا ما ترسب في ذاكرة أجيال وأجيال، لكن تجليات ذلك العنف في روح الفرد هو ما تكشفه الفنون رمزا أو إيحاء. بينما يظهر في الرواية واضحا، يستطيع القارئ تلمسه أثناء قراءة النص. ومن يضع له خارطة محددة، ويستقرئه بعمق، هو الناقد، أو الباحث في هذا المضمار.

كتاب الباحث أحمد حميد يغامر في رصد ظاهرة العنف عبر الرواية. العنف السياسي والاجتماعي والأسري، على سبيل المثال، ظل لعقود طويلة هو السمة البارزة في الروايات المنتخبة. وهي مكتوبة منذ الستينيات وحتى عام 2003، باعتبارها سنة مفصلية على جميع الصعد. هو يستخلص، عبر تتبع ظاهرة العنف، روح الرواية المنتخبة لتأكيد مقولته أو عنوانه البحثي. يتناول إذن تجليات العنف في تلك الروايات المنتخبة أكثر مما يتناول الجوانب الفنية الجمالية، حسب منهج البنيوية التكوينية الذي برع في صياغته الفيلسوف الفرنسي "لوسيان غولدمان". إذ يركز على بنية النص أولا ثم بعد ذلك علاقة تلك البنية بالمجتمع. الروايات التي تناولت العنف السياسي والمرأة كان لها صبغة فاقعة في هذا المجال، نتيجة احتدام العنف السياسي مع السلطات المتعاقبة، وتورط الشخصيات بموقف سياسي عادة ما يكون مناوئا لتلك السلطة. تمثلات العنف السياسي برزت جلية في رواية "خمسة أصوات" لغائب طعمة فرمان، و "الثلاثية الأولى" لجمعة اللامي، و "الغلامة" لعالية ممدوح، و "مكان اسمه كميت" لنجم والي، و "ليالي الكاكا" لشاكر الأنباري. أما الروايات التي تناولت السجون، بما في ذلك فنون التعذيب، والاعترافات على الرفاق، والحياة اليومية للسجناء السياسيين، فوجدها الباحث في رواية "الوشم" لعبد الرحمن مجيد الربيعي، و "القلعة الخامسة" لفاضل العزاوي، و "حافة القيامة" لزهير الجزائري .

وفي وقت ما من تاريخ العراق القريب هيمن الصراع بين البعثيين والشيوعيين لفترة طويلة على فن الرواية، عبر لعبة العنف والعنف المضاد، وهو صراع بين فكرين وآيديولوجيتين كانتا ذريعة للقتل، وتصفية الآخر المختلف، وقد امتد الصراع منذ الحقبة الملكية حتى سقوط النظام البعثي. ولاحظه أحمد حميد في رواية "القمر والأسوار" لعبد الرحمن مجيد الربيعي، و "ذاكرة المدارات" لناصرة السعدون، وفيها العنف السياسي بحق البعثيين من قبل حكومة ثورة تموز، ولاحقا بعد انقلاب شباط ضد البعثيين. هناك أيضا رواية "الرجع البعيد" لفؤاد التكرلي، و "لو دامت الأفياء" لناصرة السعدون أيضا، وتناولت فيها انكسار التيار القومي بسبب احترابات الرفاق وعنفهم المعنوي إزاء بعضهم البعض. ومعظم تلك الروايات كتبت في ظل رقابة شديدة على الكتاب، مما دفع بالنصوص إلى احتمال الرمز والايحاء والسجال المبطن. يجيء بعض الأحيان شاعريا تهربا من مخالب الرقابة .

ومن وجوه العنف كذلك ما هو موجه ضد المرأة، أو المرأة ضد الرجل، أي أنه يشمل العنف الأسري بعامة، وارتباطه بالتقاليد المتخلفة والنظرة الذكورية للعلاقات الانسانية. "حبات النفتالين" لعالية ممدوح، "أطراس الكلام" لعبد الخالق الركابي، ثم رواية "الخراب الجميل" لأحمد خلف. العنف الأسري يضم في مفهومه قانون غسل العار، وحماية الشرف الذكوري، وقد لمس القارئ أصداءه في رواية "المستنقعات الضوئية" لإسماعيل فهد اسماعيل، و "الجسور الزجاجية" لبرهان الخطيب. كما أفرد غائب طعمة فرمان حيزا واسعا للعنف ضد المرأة واستغلالها، وقد وثقت روايته المؤسسة "النخلة والجيران" ماهية المجتمع البغدادي في حقبة العراق الملكي، واستغلال الرجل لسذاجة المرأة ووعيها الخرافي والقدري. وفي العنف الاجتماعي، والخيانة الزوجية في مجتمع محافظ مغلق، تندرج أيضا رواية "صراخ النوارس" لمهدي عيسى الصقر، ورواية بابا سارتر لعلي بدر. أما عنف المرأة تجاه الرجل فقد استخلصها الباحث عبر حوارات الشخصيات، ومواقفها، في رواية "المسرات والأوجاع" لفؤاد التكرلي. أما رواية لطفية الدليمي "خسوف برهان الكتبي" فتتناول موضوعة انهيار الطبقة الوسطى في زمن الحصار، والمواجهة الخاسرة مع الواقع القائم، وهي رؤية سوداوية لحياة برهان الكتبي توثّق فنيا البعد المأساوي لما عاشه العراق فترة الحصار، والعنف المعنوي والمادي الذي مورس عليه، سواء من السلطة، أو النظام الدولي. وكانت موضوعة العنف

في الريف، والصراع بين الفلاحين والاقطاع فحضر جليا عبر رواية "ثغور الماء" لمحمد حياوي، والتقط الباحث من النص كيفية تسخير شيوخ الاقطاع في جنوب البلاد للفلاحين وعوائلهم في ظروف قاسية .

كانت الحرب تتويجا لأقصى عنف على الفرد، وهذا استنتاج شائع ومحسوس، لا في الرواية فقط، بل في قرارة الفرد العراقي الذي عاش عشرات السنين وسط حقول الموت والدمار واليأس. معلوم أن الكارثة ابتدأت عند انفجار الحرب العراقية الايرانية، وقد وجد أحمد حميد أن هناك روايات تعبوية كتبت لتمجيد الحرب، وساهمت في تزويق بؤسها، وغطّت على المقتلة الدائرة خلال ثماني سنوات. استبعد ذلك النمط كليا من بحثه. وهناك روايات كتبت بضمير متألم يقف على الضد من رؤية السلطة لتلك الحرب. والباحث تناول تلك الروايات المكتوبة بصدق عن معاناة الجنود، وثقل الحرب على الأسر العراقية، والهزيمة الروحية التي عاشها المجندون سواء في مواقع الحرب أو حين عودتهم إلى أسرهم في الاجازات. وظل تأثير تلك الحرب سنوات طويلة بعد ذلك، خاصة لدى الأسرى الذين عادوا بعد انتهاء الحرب، ولكنهم عادوا محطمين، مشتعلي الرأس بالبياض، مفككي الأرواح. وربما فاقدي جزءا من أجسادهم، كالعقل مثلا. وهنا عرض الباحث وثائقه الروائية عن الحرب فوجدها في رواية "الحافات" لمحمود جنداري، ورواية "ألواح" لشاكر الأنباري، و "الحرب في حي الطرب" لنجم والي، و "باب الخان" لهدية حسين، و "العيون السود" لميسلون هادي، و "أصغي إلى رمادي" لحميد العقابي وهي عن حال اللاجئين العراقيين في مخيمات اللجوء الايرانية، والانتحار بينهم، وأسلوب عيشهم اليومي. كذلك في رواية "من يفتح باب الطلسم" لعبد الخالق الركابي إذ نأت نحو التاريخ البعيد بعرضها لحروب الدولة العثمانية ضد العشائر المتمردة في جنوب العراق، و "الخروج من الجحيم" لناطق خلوصي، و "أروقة الذاكرة" لهيفاء زنكنة وهي عن القيادة المركزية وانتفاضتها ضد السلطة نهاية الستينيات، و "مدن فاضلة" لزهير الجزائري وكتبت عن حركة الأنصار الشيوعيين ضد السلطة في بغداد ثمانينيات القرن العشرين، و "ليل البلاد" لجنان جاسم حلواي، حيث البطل يهرب من الحرب ليلتحق بالأنصار أيضا.

ذلك هو، إجمالا، كتاب أحمد حميد عن العنف قبل 2003 ، وتجلياته في الرواية العراقية. ويلاحظ أن الباحث بذل جهدا استثنائيا في قراءة عشرات الروايات. وعاش مع مئات الشخصيات ليستخلص رؤيته لمقولة العنف. إضافة إلى أنه يسند تحليله، بعض الأحيان، بأفكار رديفة لنقاد، ومفكرين، تناولوا موضوعة

العنف في النص الروائي عالميا وعربيا. وهو عمل ليس باليسير، إذا ما عرفنا أن الكتاب المعتمدين يقيم بعضهم خارج العراق، أو صدرت رواياتهم قبل عشرات السنين وليس من السهولة توفرها في الأسواق اليوم. وهنا ينبغي القول إن هناك روايات أخرى لكتاب عراقيين ممن كتبوا في منفاهم الطويل، لم يصلها الكاتب، وتناولت ذات الموضوعة، أي العنف، وبالذات وجه الحرب البشع. وتمتع الباحث أحمد حميد بحيادية ملموسة في انتخاب نماذجه، عدا عن عمق التحليل للنصوص، واصطياد الفكرة المؤيدة لرؤيته التي وصفها بالبنيوية التكوينية. لكن ماذا عن العنف في الروايات التي صدرت بعد عام 2003؟ بعد أن زالت الرقابة، وتنامت حركة الكتابة بصورة غير مسبوقة في العراق؟ وماذا عن نمط العنف، وتبدل أشكاله، وزوال الرقابة الحزبية والأمنية، واتجاه المثقف العراقي لكتابة الرواية؟

لا شك أن تجليات العنف في انتاج روايات ما بعد الاحتلال تبدل، جذريا من بعض جوانبه. إذ دخل هنا الصراع الطائفي، والقومي، والعشائري، وهجوم الفكر التكفيري، القاعدة وداعش والميليشيات وملحقاتها، وصراع التدين السياسي مع الفرد وميوله الشخصية، والعنف الجديد في الطقوس الدينية وضد المرأة في الشارع. ثم الخطف، والاغتيال، وحياة السجون، وعنف جنود الاحتلال، والعنف ضد البيئة. ونحن نشهد دمارها دون أي حل منظور. وماذا عن العنف في سجون النساء، وبيئة المخدرات وتجارها، وبيئة العنف ضد الأطفال؟ وأخيرا ماذا عن الروايات التي صدرت بعد 2003 وتناولت مرحلة سابقة من العنف؟ حقيقة ينبغي القول إن مواصلة الباحث أحمد حميد في استنطاق العنف في روايات ما بعد 2003 يمكن أن يشكّل إضافة كبيرة لتاريخ الرواية العراقية، ومواضيعها وهمومها، ولو أن استكمال المشروع شاق ومكلف نفسيا وروحيا على من يتصدى لهكذا مشاريع تصب في خانة الوصول إلى مجتمع متصالح مع نفسه، يدين العنف بتجلياته كافة.

رواية "من ذاكرة الصور" للعراقية صبا مطر:

عن نساء يبتكرن الحكايات ويبكين

هي حكاية ياسمين، المرأة المتزوجة القلقة التي شارفت على منتصف العمر. المرأة التي تتنقل بين ثلاثة بلدان وعدد كبير من الشخصيات، أما البيوت فيصعب عليها تذكرها أحيانا. تروي عن كل ذلك بذاكرة فائرة، وعينين ذكيتين تراقبان أدق التفاصيل، والتعابير، والأفكار. إنها حكاية الحياة، وهي تتقلب بين الذاكرة والوقائع، بين الماضي المؤلم والحاضر غير الأكيد، وهي صوت امرأة تتقاذفها الهواجس والبلدان والشكوك والأحزان، وكأن الفرح غادرها منذ أن خرجت من بلدها الأم العراق. الحالة التي تشترك فيها ياسمين الراوية مع غيرها من البشر، بغض النظر عن البلد والدين والمنشأ، هي إرث الماضي، هنا نجد هذه الظاهرة تنيخ على كاهل ديفيد الفنان الدانماركي، وإيفا معلمة اللغة الألمانية في مدينة فورتسهايم، وإليزابيث الدانماركية مجنونة الوشم على جسدها، وميلاد العراقية صديقة المنشأ والهموم والغربة.

إرث الماضي يشمل بخيمته الجميع، لكنه إرث له وجوه عديدة، وغريبة بعض الاوقات. إرث الحرب، والعلاقات الأسرية الفاشلة، والطبائع الفردية، والأخطاء المرتبكة في مسيرة حياة كل فرد. هذا هو الخيط الإنساني المنتظم للجميع على هذه الأرض. تنقلات ياسمين بين ثلاثة بلدان، تجربة المقتلعين والمهمشين وفاقدي البوصلة، هي ألمانيا والدانمارك والعراق أكسبها قدرة على تأمل أصدقائها بعمق، ربما بسبب حساسيتها الفائقة كامرأة ما زالت تتذكر شجرة الياسمين في حديقة بيتهم الأول، وتعليمها الناضج، وفي الأخير شخصيتها الشفيفة في تعاملها مع الطبيعة وسلوك الأشخاص وهمومهم. فصاحب المعاناة يصبح بعض الأحيان أكثر تحسسا لمعاناة الآخرين، الأمر الذي عكسته ياسمين في روايتها للأحداث، وتفسير تلك الأحداث، وتقييم الشخصيات التي تقاطعت معها. عكسته في تعاطفها مع إليزابيث رغم أنها قاتلة، أغلقت على زوجها السكير في قبو بيتها حتى مات من الجوع والعزلة، لكنه الخطأ الذي ستدفع ثمنه طوال حياتها. علاقات حميمة مع الجميع ممن امتلكوا إرث الماضي الثقيل الذي وضعهم في سحابة طائرة من المعاناة التي لا تغيب .

نرى انتقالات حرة تجري في ذهن راوية الأحداث ياسمين بين الماضي والحاضر، وبين شخصية وأخرى، وقد تعلمت هذه التقنية من مدرّسها في الفن واللغة الألمانية ديفيد الرسام الذي ابتكر جدارا يعرض عليه صور كل من عرفه في حياته، أصدقاء وحبيبات وأقرباء. كان شخصية استثنائية لرسام يعيش في

عزلة ذاتية وغربة عن محيطه، حيث تجد ياسمين معه مشتركات كثيرة. وقد أنشأت في أول انتقال لها من مدينتها السابقة كولند إلى العاصمة كوبنهاغن، ذات الجدار المقام في بيته الريفي، وهو يحمل صور كل من عرفتهم في حياتها. أولئك الذين يعيشون معها في القطارات والمدن والبلدان، كل واحد منهم له قصة، وكأن ياسمين تحولت إلى شهرزاد معاصرة تروي الحكايات لتستمر حياتها، إلا أن علاقتها مع أبطال حكاياتها أشد التصاقا بها، ولهم هيمنة أكبر على وعيها ونظرتها للحياة .

في رواية صبا مطر شخصيات رئيسية مثل ديفيد يورينسن نصف الدانماركي نصف الألماني، وإليزابيث الدانماركية، وميلاد العراقية، ومعلمة اللغة الألمانية إيفا تسيمرمان الألمانية خالة ديفيد. أسماء تظل تتنفس طوال النص وتدفع بأحداثه قدما نحو النهاية. وهناك شخصيات ثانوية لها علاقة بالشخصيات الرئيسية مثل أم هاني جارة ميلاد، وهانس زوج إليزابيث، وفليمنك جار ياسمين، وأخت ميلاد مارتا التي ذهبت إلى السماء بتفجير كنيسة "سيدة النجاة" في بغداد. وكان حدثا مشهودا وقتها، هز أركان المجتمع البغدادي بقوة. فيما يغيب زوج ياسمين عن الصورة كونه، ربما، دائب السفر بين البلدان بسبب عمله في شركة. ولن نستطيع رؤية ملامحه طوال الرواية. من كل تلك الفصول المتعاقبة التي تطارد الكاتبة عبرها الشخصيات، بعيني ياسمين العميقتين، نحس حين نقرأ شاعرية اللغة وهي تتجسد في خيال امرأة حساسة، مرهفة، مسكونة بالماضي، وتنظر إلى الحياة بعينين متسائلتين دائما. ونحس الرؤية الجمالية لتحليل الأروح ونزعاتها، ونستوعب الأفكار الكامنة خلف الكلمات وهي تشيد تحليلا متماسكا، ومقنعا، لقضية الاغتراب البشري. في بعده النسائي تحديدا. نعم، عرفنا قصص تلك الشخصيات الاستثنائية الملتقطة بدقة، وعثرنا على حيرة معنى الوجود لدى ياسمين، وحيرة الهوس بالانتقالات بين بلد وآخر. معنى الوطن. معنى الذاكرة. معنى تعلم اللغة. وأخيرا معنى الاستقرار .

كما يستطيع القارئ أن يصل إلى تباينات الثقافات وهي تحتك بعضها ببعض، شخصيات الغرب والشرق، الأديان المتباينة، الاحتكاك بين الثقافات والرؤى المتوازية بين الشرق والغرب، إلا أن ثمة مصيرا واحدا يجمعها هو ماضيها القاسي. ماضيها البشع أحيانا والذي يقف عائقا أمامها لممارسة حياة طبيعية لها نبرة من فرح وتفاؤل، وثقة بالمستقبل. الجميع يهرب من ذاته، ويخاف من مواجهة الكوارث الجارية على هذه الأرض منذ أبينا الأسطوري آدم وحتى آخر حرب تهين كرامة الجنس البشري. ياسمين في

حقيقتها الداخلية ترغب في أن تكون حرة مع نفسها ومع محيطها، ترغب في أن تستقر عاطفيا ونفسيا، لكنها تطلب أمرا مستحيلا، فمن خرج لن يعود. ومن مضى وغاب يعسر استرجاعه. ومن كل ذلك تظل ياسمين تتساءل عن جدوى هذه الرحلة، رحلة الفرد وتقلبات مصائره مكانيا وزمانيا.

والملاحظ أن معظم الشخصيات المؤثرة في الأحداث هي شخصيات نسائية أجادت الكاتبة في تقديمها من الداخل عن طريق البوح، والحوارات، والتداعيات الذهنية الحرة. معظمها إذن شخصيات جادة، لا مجال أمامها للسخرية أو السطحية في الأفكار. شخصيات تتكلم حقيقتها الداخلية دون خوف. ونحن إزاء حكايات يومية هي في الحقيقة مآس تجري كل لحظة نتيجة حروب، أو تداعيات حروب، أو قلق وجودي لا مهرب منه. مآس تروى بلغة شاعرية بعيدا عن الرومانسيات الشائعة التي تنحو إلى إنشائية فجة تفتقر لضرورات السرد. ماض مفتت تنسج منه الكاتبة صبا مطر معنى، وحكمة وجودية للمغتربين والمقتلعين من تربتهم، والباحثين عن ومضة من النور تنير لهم أماسيهم القادمة. حكاية إليزابيث مع زوجها هانس. حكاية ميلاد المسيحية مع عائلتها في الكرادة. حكاية المعلمة العجوز إيفا في مدينتها فورتسهايم التي دمرت تماما في الحرب العالمية الثانية. وحكاية ديفيد رسام مدينة كولند الباحث عن المطلق. كل ما سبق يلوّن حكاية ياسمين ذاتها. مقاطع تترى من هنا وهناك، ماضيا وحاضرا، تتراوح بين القصر والطول النسبي لتخلق رواية "من ذاكرة الصور". وهي بمجملها مساءلة للاغتراب والعلاقات البشرية، وجدوى أن يحمل الانسان ماضيه مثل قوقعة لا يستطيع إزاحتها عن ظهره. وقد جاءت برؤية ناضجة للمأساة البشرية بشكل عام، حيث تتوالد لغتها من مصهر الأحداث ذاتها.